# عظمويل

## «الأنشودة السوداء»

سلمي ، محمد، أحمد
أحمد محمد سلمي رواية/عظمويل - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع / القاهرة: ٢٠١٩
٢٨٤ ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٣-١٤-٠٦٧٤-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٠٩٦١

| | |
|---|---|
| دار النشـــــر: | دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع |
| عنوان الكتـاب: | عظمويل |
| الكاتـــــبة: | أحمد محمد سلمي |
| تصحيح لغـوي: | الزهراء عادل |
| إخـراج فنـي: | ضياء فريد |
| تصميم الغلاف: | إسلام مجاهد |
| إشراف عـــام: | محمد المصري |


جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

elrasm.blkalemaat
elrsmblklemat@yahoo.com
٠١٠٦١٤١٩٥٥٥

# عظمويل

## «الأنشودة السوداء»

رواية

أحمد محمد سلمي

**المجد للشيطان... معبود الرياح**

**من قال «لا» في وجه من قالوا «نعم».**

**من علّم الإنسان تمزيق العدم.**

**من قال «لا» فلم يمت،**

**وظلّ روحًا أبديّة الألم!**

أمل دنقل «كلمات سبارتكوس الأخيرة»

# ما قبل البداية

كان يلقب بالغول، ولا يُعرَف باسم أو كنية، لا يهم ما كينونته، ولا يهم أي دماء يحمل، كان يحفظ عهد «الأول والأخير»، فساد الأرض وعمر، ملك الدنيا وعدل، ولتاجه خضعت الأمم وخشعت، ترك العهد ففُتن، تعصب إلى اسمه وكنيته فوهن، حارب لأجل دمه، فانهار كل شيء، كل شيء، وكانت الطامة الكبرى.

كان اسمه ياقوت، وكان صلدًا عنيدًا، وكان مهووسًا بالخيانة، وكان من أعدائه الأوائل «بني مراس»، فاستحل دماءهم واستباح نساءهم، ومن نسائهم كانتا اثنتين تشرفان على تذوق طعامه، وتبرهنان على خلوه من أيّ سُم، تبرهنان لمدة ساعة أو بضع، ولكنهما فعلاها وكان طويل الأمد، فراحتا بعد أيام وراح معهما ياقوت، وبعد أسابيع كانت «بني مراس» مجرد ذكرى.

كان اسمه القاسم، وكان إذا سعل في الجنوب اهتز عرش راكان في الشمال، كان أصغر شيخ قبيلة عرفه العالم، وخطيئته العظمى أنه

وضع ثقته في صقر، وخرج من وكره، وكانت رمال الصحاري شاهدات، وكانت قمم الجبال شاهدات، وكانت صخور الوديان شاهدات، وكانت الضواري العاويات شاهدات، وكانت الجوارح المتربصات شاهدات، شاهدات على خاتمته الأليمة هو وجيشه وبني جلدته.

كان اسمه أشبوب، وكان يبغي الكمال، ونعت بالبطولة، وخدمه أقسى جلادين الأرض، ونسبت له عظيم الأمجاد، البحار تغنت باسمه والقلاع ترنمت بسيرته، كان ماهرًا في قمع الخصوم، واستثنائيًا في التخلص من أعدائه، وعندما توهم أن الأرض استتبت له، حلم بعبور تلك الحصون المخيفة والتغلب على ذلك الجدار الرهيب ودثر نعيق تلك الغربان البغيضة، ولم يحقق، فلقد جاءته الغادرة، وكانت من دم دمه.

كان قد تلثم عن الأسماء، وربما عرفه البعض بخالق الرمز، أو نبي الملحمة، أو عراب «الحوراني»، كان الوقت تلك الليلة، وكان يستند ذلك التمثال، وكان القمر محتجبًا ولم يأبه، فلقد كان يحتضن قمره الخاص، وكانت مذبحة المذابح، النحاسيون فعلوها، وانتزعوا قمره أبدا، ولكنه أدرك، أدرك لما تبين ذلك الخاتم الذهبي الذي يخنق خنصر تلك اليمنى مثل أفعى، اليمنى التي أخمدت نوره، ثم تلاشى.

«أور» هكذا يدعونه في وطنه، «أور» يشحذ مديته، وينتظر، ينشُد إتمام مهمته، يبغي دفن السر، سر شقيقه، وأبوه يتضرع لأجل سلامة الصغيران.

# 1

## جورشبيل

أخيرًا وبعد رحلة شاقة حطّت السفينة التجارية مراسيها في ميناء العاصمة لسلطنة عظمويل.

«جورشبيل» يرتكن إلى جانب السفينة، لأن البضائع الرديئة لا مكان لها في الغرف الدافئة، والأكبال الحديدية الصدئة تؤلم معصميه وتترك أثرها جليًا، ورائحة العطن نفاذة من أثماله الرثة، يكتسي عباءة جلدية مهترئة محاكة يدويًا من جلد الماعز، ويبدو هزيلًا منهكًا كأنه أسير حرب.

الليلة شتوية والجو عاصف والقمر متواري خلف الغيوم وفحيح البحر مخيف، كان الأزرق هائجا كأنما ثعبان مارق.

وقريبًا عن أي وقت مضى خلال الشهر المنصرم لاح رصيف الميناء واضحًا، راكدًا شبه خاوي، فإنه من النادر ما تخاطر السفن للإبحار في مثل هذه الأجواء العاتية.

اعتلى سطح السفينة بضع من حراس الميناء برفقة كبيرهم المتثائب فدبت الحياة جنبات الراسية، التجار يجهزون أوراقهم وكل منهم يرتب بضائعه ويهندمها، توهجت السماء مرتعدة، وشرع الحراس في عملهم.

على عجلة تقدم كهل قصير فاتح البشرة مجعد الوجه جاحظ العينين، يتشح ثوبًا حريريًا أخضر أسفل معطف صوفي رمادي وأعطى أوراقه لكبير الحراس وقال:

ـ أنا «ميمون» تاجر العبيد ومورد الخدم لقصر السلطان «ملكان».

فقال كبير الحراس:

ـ مرحبا بك في «العرين الذهبي» يا سيد ميمون، أين بضائعك؟!

أخرج ميمون يسراه من جيب معطفه، وأشار للثلاثة المكبلين المرتكنين جانب السفينة، وعلى ضوء القناديل متراقصة النيران، تفحص الكبير الأوراق والعبيد، ثم أمر أحد رجاله بالإتيان بعربة وإيصال السيد وبضائعه لقصر السلطان.

شد حارس الميناء لجام الفرس الأدهم وانطلقت العربة تشق الطرقات المرصوفة بحجارة صغيرة سوداء، جورشبيل له أعين ثاقبة حاصدة لا تفوت أي أنملة، وعقل مسجل مستقصي لا يغفل أي تفصيلة، الأشجار متناثرة على الجوانب، البيوت فخمة البناء متعددة الطوابق، مطلية بحرفية، وألوانها متنوعة متناسقة معظمها أصفر لامع، وجميعها تحوي حدائق وبعضها يحوي مسابح، وهذا هو حال الجانب الرغد من العاصمة، حيث الضفة الغربية من النهر.

وصلت العربة إلى وسط «العرين الذهبي»، وتحديدا «ساحة ياقوت» الواقعة أمام القصر السلطاني مباشرة والمحفوفة بكثير من الطرق والمنشآت الحيوية، وتعتبر المنبع والمصب لجميع الشوارع الرئيسية والأهداف التسلقية، فهي بمثابة القلب النابض للبلاد، وسميت بذلك الاسم تيمنا بـ «ياقوت المستقل»، أول سلاطين «آل قروم «، ومشعل الثورة ضد الجنادرة، فعلها ياقوت واستقل بعظمويل عن جندرة وأعلن قيام السلطنة القرومية، وكان ذلك قبل سبعمائة عام تقريبًا.

عندما حازت العربة التمثال القابع في منتصف الساحة، انحني الحارس سائق العربة في احترام وفعل ميمون المثل وأشار لعبيده فقلدوه وانحنوا بدون فهم وأخذوا يتفحصون التمثال بأعين خاملة.

منصة رخامية مربعة منحوت فوقها بإتقان تمثال من البرونز، لجواد يبدو أشهب يقف على قدميه الخلفيتين فقط، يمتطيه رجل قصير عريض المنكبين، يسراه مرفوعة وقابضة على رمح أبيض، الرمح في وضع أفقي مائل للأعلى.

وبعد ثلاث ساعات من الصمت نطق سائق العربة متفاخرًا:

ـ كان «ياقوت المستقل» ـرحمه اللهـ مفتون بالبرونزي واتخذ منه دروعًا، وهكذا فعلها ومزق عنق غول جندرة في معركة الغابة!

سعل وأردف:

ـ لعنة الله على الجنادرة ناقضي العهد وبائعي الدم.

انقشعت الغيمات متثاقلة وبان في الأعالي خيط قمري ضئيل، وكف الجواد الأسود عن العدو، ثم توقفت العربة أمام أسوار القصر السلطاني، وبعد دقائق من الانتظار فتحت البوابة الحديدية، فناول ميمون أوراقه إلى الحارس السائق الذي ترجل ووقف مع أحدهم يطلعه على الأوراق.

كانت الأسوار سميكة بيضاء، ارتفاعها يقترب من العشرين متر، ونقش عليها بإتقان أشكال متنوعة، هناك أسد ذهبي المحيا وكذلك رمح أبيض برأس ذهبية، وعبارات مثل «فليظل الرمح شامخا»، أعلى السور دقت صواري عملاقة تحمل رايات ذهبية يتخللها نفس الرمح الشامخ وترفرف بشدة.

نظر «ميمون» لعبيده، وارتسمت على وجهه ابتسامة سمجة وقال:

ـ لا تستغربوا فهؤلاء القوم يقدسون تلك الأشياء!

أنهى الحارس سائق العربة ما يفعله، وعاد وبتملق قال:

ـ يمكنك الدخول الآن يا سيد ميمون، أتمنى أن أحملكم للداخل ولكن أظنك تعلم القواعد، لا يعبر أي حارس أو جندي أو شرطي هذه البوابة إلا...

قاطعه ميمون وقال:

ـ إلا بمرسوم من الحارس الأعظم شخصيا، وحراس السلطان فقط هم المسموح لهم بالتواجد داخل أسوار القصر، أعلم.

ودعهم الحارس السائق وعاد بالعربة إلى الميناء منفرج الأسارير بعدما وضع «ميمون» ثلاث قطع فضية في يده.

دلف ميمون وبضائعه البوابة الحديدية وعندها قابلهم رجل في الأربعين من العمر، تغطي الدروع البرونزية جسده الطويل المكتنز وله وجه داكن، ولحية خفيفة اختلط شيبها بشبابها ورأس صلعاء عن بكرة أبيها.

فاحتضنه ميمون وقال:

ـ كيف حالك يا معيوف؟

قال معيوف:

ـ بخير حال يا سيد ميمون.

التفت ميمون إلى بضائعه وبتكلف قال:

ـ هذا صديقي معيوف السندالي، من فرقة حراس السلطان وأحد أبرع المحاربين في سلطنة عظمويل.

بعدما انتهت عبارات الترحيب والسؤال عن الحال، سار معيوف السندالي وتبعه ميمون ومن خلفه بضائعه.

الدهشة بادية على وجوه العبيد المرهقة، فخامة قصر السلطان «ملكان بن أشبوب القرومي» لا تضاهيها فخامة أي مبنى شاهدوه من قبل، فبعد أن عبروا البوابة وجدوا أنفسهم يقفون في باحة القصر الواسعة، بدى لهم القصر بمحياه الذهبي كأنه صيغ من ذهب الجزر الماريكية.

تمشوا حتى وصلوا حد الحديقة التي تحتوي على أرقى أنواع النباتات والورود وأنفسها، رائحة الزهور ملأت صدورهم وأفعمتها، أنستهم أهوال رحلتهم الشاقة في البحر وكذلك برودة الجو؛ «ولكنهم بالتاكيد لم ينسوا أنهم عبيد، فرائحة الماس ذاتها لن تنسيهم أنهم ليسوا إلا بضائع تباع وتشترى»، هكذا فكّر جورشبيل.

وهمت البضائع الترجل في الممر الذي ينتصف الحديقة والمؤدي لأبواب القصر ولكن فاقوا من غفلتهم عندما أمرهم سيدهم بالتوقف وأمرهم باتباعه شمالا حيث سكن الخدم. ولاح على ضوء المشاعل طابق واحد كبير مطلي باللون الأخضر.

طرق معيوف باب سكن الخدم عدة طرقات، فتح لهم أحد الخدم وكان شابًا نحيلًا أبيض البشرة طويل الشعر، فأمره السندالي أن يخبر السيدة «منجية» بحضور السيد ميمون.

فعاد الخادم أدراجه وبعد دقائق قليلة جاءهم وبرفقته «منجية» سيدة الخدم؛ أطلت عليهم منجية الخمسينية بملامح تعمدت أن تبدو صارمة، انعقاد حاجبيها ووجهها الجامد ونظراتها الحادة لم يخفيا طيبتها الكامنة، زفرت بخارًا وقالت:

ـ تأخرت عن موعدك السنوي يا سيد ميمون!

ميمون يعرف أن منجية لا تحبه ولا تكن أي ود له بدون سبب واضح وكالعادة الحديث بينهم لا يبدأ أبدًا بعبارات ترحيب أو مقدمات، إنه حديث التجارة فقط ما يجمعهم، فتنهد وقال:

ـ كما تعلمي سيدتي، طقس هذا الشتاء فاق المعتاد، والكثير من السفن أجلت الإبحار لشدة هياج البحر، وبرغم ذلك غامرت وصعدت على أول سفينة قادمة لعظمويل.

تجاهلت السيدة منجية حديث ميمون عن الطقس وقالت:

ـ اَرنِ ما لديك.

فكّ ميمون الأكبال من على أيدي عبيده ونزع عنهم عباءات جلد الماعز المهترئة لتظهر ملامحهم واجسادهم أشد وضوحا.

بدأت السيدة منجية فحص البضائع، الأول كان رجل أربعيني طويل أسود البشرة، تساءلت:

ـ ما اسمك وماذا تجيد؟

نطق الرجل:

ـ اسمي (...)، ونشأت عند تاجر خيول وأجيد كل شيء يتعلق بالدواب.

تجاوزته منجية إلى الفتاة القصيرة البدينة التي ترقد بجواره وتساءلت:

ـ ما اسمك وماذا تجيدي؟

أجابت الفتاة:

ـ أنا (...)، وأجيد الحياكة والطهو وكل الأمور المنزلية.

تجاوزتها منجية هي الأخرى وكررت السؤال عليه وهو أجابها:

ـ «جورشبيل» ولا أجيد أي شيء.

فقال ميمون:

ـ إنه حديث العهد يا سيدتي.

قالت منجية:

ـ أها، لم يولد عبدًا من الأساس.

وأردفت وهي تتحسس جسده الهزيل:

ـ ماذا كنت تعمل قبل أن تصير عبدا يا فتى؟

لما وصلت يدها إلى صدره أطلق جورشبيل أنّة ألم.

انتشلت منجية يدها بسرعة من على صدره وأمرت الخادم مرافقها أن يجرده من قميصه الرمادي العطن.

نفذ الخادم أمرها في الحال، وظهر صدره العاري مصابا في جزئه الأيمن، نزعت قطعة القماش البيضاء المتسخة المضمد بها جرحه، فوجدت جرحًا لم يكتمل التئامه بعد ويحيطه تقرحات.

جاءها صوت السيد ميمون مرتبكًا وهو يقول:

ـ إنه جرح سطحي سيدتي.

سألته السيدة منجية:

ـ أسير حرب؟!

أومأ برأسه إيجابا.

تابعت السيدة أسئلتها:

ـ ما حكايتك ومن أي أرض أنت أيها الأصهب؟

جورشبيل أصهب الهيئة، جسده هزيل متوسط الطول، ووجهه ناصع البياض نحيل، عظام وجهه بارزة، أنفه مدبب، وشعر رأسه أحمر مسترسل يصل حد الأكتاف، عيناه بنيتان ضيقتان وحليق الذقن.

بيمناه مسح شعره وأجابها بصوت خفيض:

ـ حكايتي طويلة وأرضي هي سمندا.

التفتت منجية إلى ميمون وقالت غاضبة:

ـ سمندي؟ حقا! هنا في عظمويل وفي قصر آل قروم؟!

رد ميمون:

ـ وما في ذلك سيدتي؟، ماأعرفه أن حروبكم مع السماندة انتهت قبل عقود، وأنكم الآن تعيشون مرحلة السلام الدافئ وأن أشرافكم تجمعهم علاقات قوية بهم.

قالت منجية:

ـ ولكن...

قاطعها جورشبيل:

ـ إن سمندا...

لم تمهله السيدة منجية فرصه للكلام وقالت:

ـ لعنة الله على سمندا.

فقال جورشبيل بحنق يشوبه الألم:

ـ اللعنة على سمندا وسحقا لملوك سمندا الجشعين، لم أكن إلا شابًا عابثًا ولد لأسرة ميسورة الحال، والدي إقطاعي يمتلك مساحات واسعة من الأراضي، طمع حكامنا على مر الزمان أوقعنا في الكثير من الحروب التي لا طائل منها.

أومأت السيدة منجية رأسها إيجابا مؤكدة على حديثه، بينما تكلف ميمون وأخذ يهز رأسه مدعيا التأثر.

أكمل جورشبيل بأسى:

ـ اعتقد ملك سمندا الجشع المتعجرف أنه سيكون من السهل هزيمة جيش لوكام والاستيلاء على أراضيهم، ولكن هذا لم يحدث، أيام وأسابيع وشهور ولم تنتهِ الحرب، سجال، تارة تتفوق سمندا وتارة أخري تميل الكفة ناحية لوكام، ومع موت الكثير من الجنود أعطى ملك سمندا الملعون أوامره لتجنيد كل بالغ ودفعه للحرب، نفوذ والدي وثروته أجلا تجنيدي كثيرًا، ولكني كنت متأكدًا من أن اليوم سيأتي لا محالة، وهذا ماحدث، شاب لا يفقه شيء عن أي شيء رُمى

في ساحات الدم، ولم يمر عليّ إلا أيام قلائل وكنت قد أصبت وأسرت، بعدها اشتراني السيد ميمون كعبد، وها أنا ذا بسبب ويلات الحرب تحولت من شاب حر إلى عبد ذليل يشمئز الناس منه.

برغم أن قصة جورشبيل مست قلب السيدة منجية ولكنها تسألت:

- تقول أن أبيك رجل ثري، لماذا إذن لم تعرض على السيد ميمون أن يأخذك إليه؟

أتاها الرد من السيد ميمون:

- عرض عليّ يا سيدتي ولكن كما تعرفين أنا رجل لوكامي أصيل.

صمت لثوان وأكمل:

- على العموم جورشبيل لك بنصف الثمن، رسوم البضائع على السفن أصبحت باهظة ومن الصعب إيجاد مشتري له في وطني.

فكرت السيدة منجية لوهلة ووجهت أوامرها إلى الخادم مرافقها:

- خذ الثلاثة إلى الداخل قدم الطعام لهم، وأحضر الطبيب ليفحص جرح زميلك الجديد جورشبيل الأصهب.

# 2

## حنان

قطفت زهرة ووقفت تتأمل النهر الأخضر الرائق، أكرمت الشمس على سلطنة عظمويل بأشعة دافئة هذا الصباح، بعد فصل شتاء منقطع الصقيع أخيرا جاء الربيع المنتظر.

شقشقات العصافير وهديل الطيور وعبير الورود أثاروا عاصفة من شجن داخل وجدانها.

تساءل قلبها، أين هو؟!

خلال شهور لاحقها، وكثيرًا ما حاول التقرب منها، منذ أن رأها خاض كل السبل ليظفر بها، تلاقت أعينهم أول مرة هنا على ضفاف النهر، كانت هي كعادتها تقف في هذا الجانب، الجانب الشرقي من النهر، حيث الفلاحين والصيادين والعامة، أما هو فبكل تأكيد، كان يقف على الجانب الأخر، معتليا صهوة جوادة ناصع البياض، وكيف لا يكون هناك؟! الجانب الغربي، حيث العرين الذهبي، هناك يسكن الأشراف وأصحاب المال والنفوذ وعلية القوم، وهو أعلى القوم، فهو من دم المستقل وولي عهد الأسود!

اليوم هي كعادتها هاربة من زوجة عمها «رحيمة»، منذ طفولتها وهي تهرب من جحيم «رحيمة»، رحيمة تثقل عليها في أعمال البيت، وتتعمد إهانتها، دائمًا ما تنعتها بابنة المتمرد والخائنة، لماذا تتفنن رحيمة في تعذيبها؟!، لم تجد إجابة ولا سبب لذلك قط.

منذ عامين وافقت على الزواج من ابن اللبان جارهم، ليس حبا في ذلك الأحمق بل راجية الخلاص من جحيم بيت عمها، ولكن «رحيمة» وقفت ضد إتمام الزواج بكل ما أوتيت من جبروت وبالتأكيد نجحت.

سبعة عشر يومًا مروا ولم تره، شعور بالحزن يعتريها برغم أنها تعرف في غياهب نفسها أن درب تلك الحكاية هو المستحيل، حتى إن رضخ الزيت وامتزج بالماء فلن تختلط أنفاسهم يومًا.

يتساءل قلبها، أين هو؟! ويرد عقلها، ليس هو!

ضفدع يتراقص بين قدميها الدقيقتين، وفراشة قرمزية تشعر بالوحدة تداعب وجهها الخلاب.

رفعت يدها وبسطت راحتها ملاذا للقرمزية الوحيدة وهمست:

ـ أنا «جنان»، وأنت هل لك اسم يا فراشتي الجميلة؟

«جنان» رقيقة الشكل لها وجه أبيض مستدير، طبع الماضي عليه مسحة حزن، فزاده حسنًا، واسعة الأعين أزرقها وأصفاها،وشعرها طويل أسود كليل لا نهاية له.

سمعت صهيل خيل خلفها وطارت الفراشة بعيدًا والنهر مازال رائقًا وهدير الطيور أضحى سرابًا، لم تلتفت وأيقنت لمن يكون الجواد، تسلل الفرح إلى قلبها ولكن عقلها رفض الانصياع، وبحركة لا إرادية وكالعادة حاولت الترجل للأمام والهرب، حاولت ولم تفلح، جسدها أثقل وقلبها

يخفق بعنف وعقلها عنيد ورافض، والجواد الأبيض واقف بقدميه الأماميتين على ذيل فستانها الأحمر الريفي.

وجهت نظرها للأسفل فلم تجد الضفدع الراقص، وبدا عشب الأرض المتمايل حائرا مثلها، وبصوت مرتبك متقطع قالت:

ـ ماذا يريد الأمير صلحان؟

جاءها صوته واثقا:

ـ أريدك!

ارتعشت أناملها وبلعت ريقها وقالت:

ـ لا أفهم مقصدك سيدي، كيف تريدني؟!

فطن صلحان الشكوك التي تدور في صدرها وبنبرة هادئة قال:

ـ أحبك يا جنان.

ألقى كلمات عشقه وشد لجام جواده ليتراجع للخلف محررا إياها.

تضاربت الأفكار في عقل جنان ولم تحاول الهرب، التفتت إليه وتقابلت عيونهم، صلحان أعلى جواده الأبيض ظهر كإله روماني يرتدي قميصًا أبيضًا مفتوح الصدر، وهو كأغلب آل قروم أشقر ذهبي المحيا.

تساءلت جنان:

ـ أتعرف من أنا؟!

أجاب صلحان:

ـ أنت جنان، وأنا أعشقك.

قالت:

ـ أنا فقيرة وأعيش مع عمي تاجر البقوليات.

قال:

- لا يهم.

قالت:

- لا أب لي ولا أم.

قال:

- لا يهم.

قالت:

- نهايتهم كانت القتل.

قال:

- لا يهم.

قالت:

- والديّ كانا من المتمردين على جدك أشبوب وماتا في أحداث الأنشودة السوداء.

عبس وجه الأمير صلحان وتوقف عقله وفقد النطق كصنم.

سالت الدموع من أعين جنان وانحنت وقالت:

- اعذرني سموك.

جرت أرجلها مهرولة والأمير صلحان لم يحاول منعها ومازال ساكنًا كصنم.

اخترقت الأزقة الطينية، الأكواخ الخشبية المطلية بالجير الشاحب متلازقة عشوائيا، رائحة الروث والقمامة لم تعد تزكم أنفها، يشتد بكاؤها، هناك مبنى حجري مكون من ثلاث طوابق يبدو كصرح عملاق في هذه المنطقة الفقيرة، نشاطه المعلن هو أنه مقهى وبيت شعر، ولكنها تعرف،

أن بداخله هناك حانة وهناك بيت للبغاء، وفكرت، لماذا الشرطة لا تقترب من ذلك الصرح العفن؟!، زادت من سرعتها حتى تعدته وبعد زقاقين وصلت لكوخ عمها، طرقت الباب ووجنتاها داميتان، فتحت رحيمة وسدت الباب بجسدها البدين المترهل، وقذفت جنان بوابل من التوبيخ والسباب، جنان ليست في حالة تسمح لها بتحمل كل ذلك، دفعت رحيمة ودلفت إلى صحن المنزل، الجدران الخشبية مطلية بجير أخضر باهت، هناك أريكة وبعض الأجولة المعبئة بالبقوليات، دلفت إلى حجرتها الضيقة، أوصدت الباب وارتمت على سريرها الذي بالكاد حوى جسدها، لم تتركها رحيمة لحال سبيلها، تبعتها وأخذت تدق الباب في قوة، وهي تصرخ توبيخًا.

دفنت جنان رأسها أسفل وسادتها القطنية وكلما تزايدت دقات رحيمة على الباب تعالي نحيبها، هدأت دقات رحيمة رويدا رويدا حتى توقفت تمامًا، وصوتها صار بعيدًا وصيحات التهديد والوعيد اختفت تدريجيًا، يبدو أنها ملت من الطرق على الباب الواهن المتداعي الذي كاد أن ينخلع، فكرت جنان أن رحيمة ذهبت للتسوق ربما.

لم ترَ جنان أباها أبدًا، مات قبل أن تولد، لم تحدثها أمها عنه قط، في طفولتها لم تعرف سبب العزلة التي فرضتها والدتها عليها، لم تنسَ أبدًا نظرات الهلع في أعين أمها عندما كانت دوريات خيالة الشرطة تطوف بالجوار، كانت أمها تحضنتها وقطرات الدمع تسيل من مقلتيها، لم تفهم وقتها لماذا كل ذلك الخوف، تذكر أنها في سن السادسة وفي إحدى المرات القليلة التي سمحت لها أمها فيها باللعب مع أقرانها تشاجرت مع إحداهن لأنها قالت لها يا ابنة المرتزق، لم تدرك حينها معنى تلك الكلمات ولكن نبرة الطفلة ولهجتها الساخرة أوحيا لها أنها تسبها، وكانت

هذه هي المرة الأخيرة التي تسمح لها أمها فيها باللعب مع أقرانها، في تلك الأوقات لم تفهم أي شيء مما يدور حولها، ولكنها بدأت في استيعاب الحقيقة بعد عام تقريبًا من تلك المشاجرة.

كانت ليلة شتوية باردة، دوي الرعد لم ينقطع عن السماء يومها، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل عندما سمعت وقع أقدام وصهيل خيول الشرطه المارة بالزقاق الذي يقبع فيه بيتهم، كالعادة احتضنتها والدتها، شعرت بحرارة دموع أمها التي انسابت على خدها، اقترب صوت وقع أقدام الأحصنة تدريجيًا حتى اختفى تماما، ثوان وانكسر باب البيت ورأتهم بزيهم الأسود وهم يخطون داخل بيتها، انتزعوا أمها منها وغطوا وجهها بكيس أسود وأخذوها ورحلوا، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها أحدهم يصف أمها بالمتمردة!

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي ترى فيها أمها التي أعدمت في اليوم التالي بتهمة أنها سمعت تنشد ترانيم الشيطان، أنشودة التمرد، السوداء.

# 3

## صلحان

الفرس ناصع البياض يعبر الجسر الحجري الحديدي مخلفًا ورائه الأكواخ الرديئة والروائح الكريهة ومقبلا على العرين بنهم وشوق كأنه عائد من الجحيم.

«أنت تذكرني كثيرًا بجدك أشبوب، إني أراه فيك»، هكذا حدثه والده السلطان ملكان مرارًا، عندما يكونا على خلاف.

«الشعر الأشقر، الفك العريض، الأعين الخضراء، المحيا الذهبي»، غالبا ماكانت تلك الصفات ما تميز آل قروم على مر التاريخ.

هناك مقولة سحيقة لا أحد يذكر من ابتدعها، «نادرًا ما توجد الأعين العسلية في الأسود، ولكن إذا وجدت فذلك يعني أن هناك سلطانًا عظيمًا، أمجاده ستخلدها الأزمان «

صلحان يؤمن بتلك الخرافة كثيرًا، فياقوت الأول المعروف بالمستقل كان عسليّ، وجده أشبوب الملقب بالبطل كان كذلك، وللمصادفة فإن ولي العهد صلحان عسليّ الأعين!

وليست تلك هي الخرافة الوحيدة التي يقدسها فهناك، نبوءة الليلة الأخيرة، وهي عبارة عن رؤيا جالت خاطر المستقل في ليلته الأخيرة «فاتح جندرة سيملك البر والبحر»، تلك كانت أخر كلمات يتفوه بها لسان ياقوت المستقل قبل اغتياله!

صلحان لا يجد في أباه سلطانًا عظيمًا، ويعتبر أن جده أشبوب يمثل المثل والقدوة، يهيم عشقًا بسيرة البطل ويقدسها، يرى أنه يشبه جده كثير ليس فقط في الملامح وإنما في الطموح والقوة والدماء الحارة، ويتمنى أن يجني المهابة والبطولة مستقبلًا.

وافت المنية السلطان أشبوب قبل أن يحقق طموحاته التوسعية، لولا التمرد والسنين التي قضاها في مطاردة الخونة المرتزقة، لأصبح صلحان مستقبلًا سلطانًا على إمبراطوية مترامية الأطراف، نبوءة الليلة الأخيرة هي الهدف والغاية الكبرى له، إذا كان أشبوب مات قبل أن يحول أحلامه لحقيقة، فهو عزم أمره أن لا شيء سيمنعه عن المسعى العظيم، فلقد قطع عهدا على نفسه أنه سيكون سلطانًا على البر والبحر.

شب صلحان على لعن الأنشودة السوداء ومقت المتمردون المرتزقة الذين باعوا بلادهم وأنفسهم بأبخس الأثمان للجنادرة ناقضي العهد وبائعي الدم، لعنهم الله.

أما الآن فالأمور اختلفت تمامًا، ذاق فؤاده رحيق العشق لأول مرة، غدر به قلبه وأوقعه في شباك الحسناء جنان ابنة الخونة، فكر أن هناك قرارًا يجب عليه اتخاذه أيا كانت العواقب، وفكر أيضًا أن جنان لا علاقة لها بالماضي الأسود لوالداها!

وجد العامة يفترشون ساحة ياقوت، منتظرين العطايا واللحم، في حلقات تناثروا، وهناك تقام الألعاب، بعض الشباب وبعض فرسان الهواة، يتبارزون بسيوف ورماح خشبية، وهناك شاعر يلقى قصيدة مبتذلة وله صوت يشبه النهيق، والحراس ينهرون الأطفال المحاولين تسلق تمثال المستقل، تذكر أن اليوم هو الثاني عشر من فصل الربيع وهو يوم ميلاد والده ملكان، القصر سيكون مكتظًا بالمدعوين لمأدبة السلطان إذا، هلل الفقراء لما أبصروه، شد لجام فرسه الأبيض ولم يرد تحياتهم وانطلق مباشرة نحو البوابة الحديدة المفتوحة على مصراعيها لاستقبال النبلاء والأشراف وعلية القوم، وفكر أن جسده مفتول العضلات والشعيرات الذهبية المنتصبة في صدره هيجوا مشاعر نساء العامة، وأن الفتيات سيبتن لياليهن يستمنين وهن يستحضرن صورته الأسدية.

دلف البوابة الحديدية وانعطف يمينا حيث الإصطبل، ولم يكن الدالف الوحيد في هذه الأثناء، سلم فرسه لعامل الإسطبل الأربعيني الأسود، وتوجه ناحية بوابة القصر وهو يتساءل «كيف سيخبر والده بأمر جنان؟!»

## قاعة العرش...

ارتصت الطاولات منتظمة ومتناغمة، وسطحت بالمفارش الحريرية والكؤوس الفضية والبرونزية، الجدران تتزين بلوحات مرسومة بإبداع لكل سلاطين آل قروم على مر التاريخ، الجدار الذي يخلف العرش، نقشت عليه بالطول والعرض، لوحة معركة الغابة الحاسمة منتزعة الاستقلال، هناك عسكر عظمويل معتلين الأشجار ويصطادون بسهامهم رجالا

متدرعين بالنحاس مفعمين بالهرع والخوف، وعلى الأرض ثمة جواد أشهب يقف على قدميه الخلفيتين فقط ويمتطيه رجل قصير عريض المنكبين يسراه مرفوعة وممسكة برمح أبيض، والرمح في وضع أفقي مائل للأعلى وفاتك، وذلك هو ياقوت المستقل، وتلك كانت اللحظة الأشد ملحمية في تاريخ آل قروم.

اكتظت القاعة الذهبية بالحضور من أمراء آل القروم ونبلاء الأشراف، وجميع أرباب المال والنفوذ في عظمويل، وهناك التجار المرموقين بعضهم من هنا والبعض الآخر أغراب من أراضي مجاورة، كفّ الحضور عن المسامرات والضحكات وعم الصمت وانتصبوا واقفين وأحنوا رقابهم في إجلال عندما أبصروا السلطان داخلا القاعة وبرفقته رجال مجلسه وحاشيته.

بتؤدة سار السلطان ملكان المتشح بثوب حريري أبيض مزركش بماء الذهب ومرصع بأجود الأحجار الكريمة، وعن يمينه زوجته السلطانة بدور بفستانها الأصفر اللامع وعن يساره قاضي القضاة عارف السردي بعبائته الرمادية وظهره المنحني وعصاه المطرقعة، وخلفه مباشرة الحارس الأعظم صخر السردي المتدرع البرونزي وهو رجل في منتصف عقده السادس وله جسد متين أقرب للقصر، وملقب بالأفعي.

في وسط القاعة هناك حوض ماء دائري وفي محيط الحوض ثمة مصطبة حجرية تحمل تمثالا لذئب أدهم ضخم، وبان كأنه يرسل عواءه للسماء، وذلك الذئب كما تقول الأساطير يرمز لعظمويل، الرجل الأول الذي خطت قدماه هذه الأرض وسميت نسبة له، وتحكي الأساطير أيضًا

أن عظمويل كان مهوسا بالذئاب وأنه لم يمتطي خيلا قط ولا إبل وإنما استطاع ترويض الذئاب وامتطاهم وبالأخص السوداء المفضلة لديه!

لما وصل السلطان إلى آخر القاعة حيث عرشه، التحق قاضي القضاة عارف السردي والسلطانة بدور بصلحان الجالس على منضدة تقع يمين العرش، وانضم الحارس الأعظم صخر الأفعى لأمين الخزانة وأكبر الشرطة، القاعدين شمالا.

صعد السلطان ملكان ثلاث درجات جرانيتية حتى صار فوق منصة مستطيلة فصعد اثنين للدائرية الأعلى وجلس على كرسي العرش، المصنوع من العاج والمطلي بماء الذهب، وضبط بيمناه وضع تاجه النصف ذهبي والنصف برونزي وأشار للحضور برفع الرؤوس والجلوس، وأسفل العرش ارتص بضع من حراس السلطان البرونزيين، جال ملكان بعينيه الخضراوين في أرجاء القاعة باحثًا عن القائد الأعظم نائل القرومي ولم يجده وعرف أنه لم يغادر جزيرة القرش الجدباء.

بعدما التهم الحضور المأدبة وقدموا هداياهم الثمينة للسلطان وتملقوه كثيرًا، أمست القاعة على وشك الخواء، الخدم مشغولون بتنظيف القاعة وترتيبها وحمل الهدايا إلى الخزائن ويشرف على ذلك أمين الخزانة صباحة الأدهم بذاته!

الطاولات فارغة وأسطحها مرتع للعشوائية، منضدة واحدة هي المأهولة الآن، تضم صلحان وأمه السلطانة وقاضي القضاة عارف السردي وجالسهم السلطان.

صلحان شارد الذهن متأهب يستجمع شتات قلبه، انتظر كثيرًا والقاضي عارف لم يستأذن الذهاب بعد ويبدو أن الليلة ستطول، ولكن الليلة أبت، فلقد انفجرت ثورته عندما سأله عارف:

ـ كيف حال أميرنا؟

«بخير، نويت الزواج» قذفها صلحان المتهور ولا مجال للتراجع.

ارتسمت ابتسامة محبة على وجه السلطانة بدور، ولم يعر صلحان تلك الابتسامة أي اهتمام، فإنه يهتم بالقادم بينه وبين السبع العجوز المقابل له والواضع تاجه فوق المنضدة.

تجاعيد هموم خمسة عشر عامًا من الحكم تركت ركامها واضحًا على وجه السلطان ولم تخفي وسامة قديمة ولكنها باتت شحيحة، ملكان له جسد نحيل وطوله فوق المتوسط مثل ولده، هو يظن أنه فعل أعمالا جليلة لهذه الأمة، فهو تقلد سدة الحكم في فترة شائكة، حيث كانت عظموليل خارجة من فترتين عصيبتين، أولهما سنين الحرب الدامية في البحر الأزرق مع السماندة والثانية أيام التمرد السوداء.

ارتشف ملكان رشفة ماء من كأس فضي وتساءل:

ـ من سعيدة الحظ التي تملكت من قلب ولي عهدي؟

أجاب صلحان:

ـ جنان.

فكر ملكان لوهله ونظر لزوجته وقال:

ـ لا يستحضر ذهني أي فتاة قرومية تدعى جنان.

فقالت بدور:

ـ ولا أنا!

قال صلحان:

ـ إنها لا تحمل دماء آل قروم.

فكر ملكان أنها ربما تكون من إحدى العائلات النبيلة وعلى أي حال هو رجل متساهل في بعض الأعراف، وله عقل راجح وليس متزمت كبقية الأسود وكزوجته بدور، سعل وقال:

ـ لأي عائلة تنتمي تلك الجنان!

وساخرًا أردف:

ـ وأنا سأجلبها لك الليلة.

أبعد صلحان نظره عن والده وقال:

ـ إنها تسكن الجانب الآخر من النهر، وتعيش مع عمها تاجر البقوليات.

عبس وجه السلطان وزوجته وتبادلا نظرات لا تنم عن شيء.

تنحنح القاضي عارف وحاول تدارك الأمر ومساعدة الأمير الولهان، نعم عارف استشف أن صلحان غارق في العشق وذلك بحكم التربية، وقال:

ـ بموجب خبرتي أقسم أنه هناك في الجانب الأخر، عائلات أشرف من عديد العائلات الشريفة، أخبرني يا صلحان ما اسم والدها؟

وقف صلحان وبصوت مبحوح قال:

ـ مات والداها في أحداث الأنشودة السوداء، كانا من المتمردين.

انتصب السلطان واقفا واعتلي وجهه سخط أسدي واقترب من وجه ولي عهده وتساءل:

ـ أتعي ماتقول يا فتى؟!

ذهب التوتر وعاد صلحان إلي عناده الفطري وبنبرة تحدي قال:

ـ أعي أني أحب جنان، وأعي أنها بريئة لا ذنب لها ولا علاقة لها بماضي عائلتها المشين.

دفع السطان ابنه في صدره وصرخ:

ـ اغرب عن وجهي أيها الأخرق.

وأشار إلى عرشه الذهبي وأردف وشراذم الغضب تتطاير من حلقه:

ـ لن أسمح لك أن توصم الأسود بالعار.

«سأتزوج جنان ولن يتمكن أحد من منعي أيا كان»، زعق بها صلحان وهو يخرج من قاعة العرش، صلحان الذي خال نفسه جبارا تُطوى الأرض من أسفله إذا بغى، ويبغاها.

# 4

## جورشبيل

ثلاثة أشهر تقريبا فاتوا على جورشبيل في القصر السلطاني، لم يتخيل قط أن يأنس حياته الجديدة كعبد، ولكن الود الذي وجده من رفقائه الجدد خفف عنه حدة الوضع القائم لا محالة، بالإضافة إلى أنه قرر التأقلم والتعايش، التئم جرحه بعدما تلقى العناية الطبية اللازمة، خفة ظله وروحه الجميلة وسخطه الظاهر على سمندا وملوكها مكنوه من أسر قلوب من حوله حتى أن السيدة منجية سيدة الخدم تناست كونه سمندي وشملته بعنايتها، ولقب الأصهب الذي أطلقته عليه أول ما رأته اقترن به وراقه كذلك، في إعادة توزيع مهام الخدم لا يعرف إذا كان من الجيد له أو السيء أنه كلف بخدمة الأمير الغاضب صلحان.

كان جورشبيل حاضرا في ذلك اليوم قبل أسبوعين يشارك زملائه تنظيف قاعة العرش وحمل الهدايا بعد انتهاء مأدبة السلطان، واسترق السمع لكل ما حدث وكان شاهدًا على شجار صلحان وملكان.

أسبوع الآن قضاه في خدمة الأمير المنعزل في جناحه ولم يجمعهم أي حديث يذكر، وفكر أنه يجب عليه أخذ زمام المبادرة.

دلف جورشبيل غرفة الأمير حاملا في يده طعام العشاء، لم يجد الأمير في الغرفة، السرير لا يبدو مهندمًا، الكثير من الكتب مبعثرة عليه وبجانبه بعشوائية، وضع جورشبيل الطعام على منضدة صغيرة بجوار السرير، وأخذ يتفحص بعينيه عناوين الكتب المبعثرة، انتبه عندما سمع صوت فتح باب الحمام المرفق بحجرة الأمير.

أزاح الأمير بعض الكتب واستلقي على السرير، ونظر إلى جورشبيل مستغربًا عدم رحيله بعدما قدم الطعام.

قال جورشبيل:

ـ عذرا سيدي... فأنا مغرم بالكتب.

في غير اهتمام قال صلحان:

ـ لا عليك.

فتساءل جورشبيل:

ـ هل يمكنني أن أستعير بعض الكتب يا سيدي؟

أجابه صلحان:

ـ يمكنك... واحذر أن تضيعهم يا...

ـ خادمك جورشبيل الأصهب.

فقال صلحان:

ـ حسنًا يا جورشبيل خذ ما تريد من الكتب.

انتقل جورشبيل إلى مكتبة خشبية مقابلة للسرير وأخذ يتفحص عناوين الكتب بسرعة لكي لا يصيب الضجر الأمير، وقعت عيناه على كتاب أسود نقش على غلافه الجلدي بخط أبيض «تاريخ عظمويل»

انتشله واستأذن صلحان الخروج وذهب إلى سكن الخدم.

سكن الخدم ينقسم إلى عنبرين يفصلهما فناء يجتمع الخدم فيه لتناول طعامهم والسمر، في عنبر الرجال ارتصت الأسرة متتالية وعلى السرير الأخير الملاصق لجدار العنبر ارتمى جورشبيل، دقائق التقط فيها أنفاسه ونقى ذهنه وأنار قنديل ولم يكترث بعبارات التأفف والسباب التي جائته خافته من شركاء العنبر الناعسين.

فتح كتاب «تاريخ عظمويل» وقرأ الإهداء المكتوب بخط يدوي في أولى صفحاته، إهداء من الكاتب.

«أهدى كتابي إلى الأمير الملهم صلحان، عافاه الله من كل سوء وأطال الله عمره»

تجاهل جورشبيل هذا الإهداء المتملق وقلب الصفحة لتقع عيناه على خريطة سلطنة عظمويل.

تتكون سلطنة عظمويل من ثلاثة أقاليم، الأول هو العاصمة «العرين الذهبي»، ويقع مباشرة على ساحل البحر الأزرق، ويمثل ٣٠٪ من مساحة البلاد، الثاني هو إقليم الوسط ويتكون من سبعة مدن ويساوي العاصمة مساحة، الثالث هو إقليم الجنوب ويتكون من خمسة مدن، وأكبر الأقاليم مساحة وأقلها سكانا لطبيعته الصحراوية الجافة.

الطرق التي تربط مدن الوسط ببعضها البعض وبالعاصمة سلسة، والأمر يختلف كليًا بالنسبة للجنوب، فهناك منطقة جبلية ذات طبيعة صخرية دروبها وعرة ويقطنها الصعاليك والهاربون من العدالة، تفصل الجنوب عن باقي السلطنة.

وعلى بعد نهارين في عمق البحر، تقبع جزيرة القرش وهي جزيرة مهمة ملاحيًا وماديًا بالنسبة لعظمويل فسقوطها مصيبة غير محمودة العواقب.

تأمل الخريطة لوهلة ثم أخذ يقلب صفحات التاريخ الحافلة، كان يبحث عن أحداث بعينها، أحداث فات عليها إثنان وعشرون عام تقريبًا، وعادت لتلقى بظلالها المريرة على العرين، وكانت سببًا في قطيعة السلطان وولي عهده، أحداث يخشى الجميع تبادل الهمسات عنها في أروقة قصر آل قروم، أحداث التمرد والأنشودة السوداء هي كل ما يشغل باله، عمد إلى سيرة السلطان أشبوب الذي امتدت فترة حكمه لتسع وعشرين عامًا، ووجد أن كل شيء بدأ وانتهي في الثماني سنوات الأخيرة لسلطنة البطل.

### التمرد... «الأنشودة السوداء».

بعد انضمام القراصنة لصفوف الأسطول السمندي وتدمير الأسطول العظمويلي ومحاصرة الآلاف الباقين في جزيرة القرش، ظن الكثير أن نهاية عظمويل باتت وشيكة وأن السماندة الوثنين عابدي إله النجم قد استساغ إليهم أمرنا، ولكن البطل أشبوب أبى الاستسلام والتفريط في

الأرض وبحنكة السياسي وذكاء العسكري رسم خطته الشهيرة والتي نفذها المحاربان الأسطوريان نائل القرومي وصخر السردي، وتم القضاء على عدو البحر العاتي وأملى شروط السلام على سمندا وتم توقيع الاتفاقية المجحفة للوثنين وبذلك انتهت سنوات الحرب الدامية في البحر، وسرعان ما أعطى السلطان أشبوب أوامره لنائل الليث وصخر الأفعى لإعادة هيكلة الجيش وبنائه من جديد ومنحهم عامان لذلك، وأعلن الزحف لفتح جندرة بعد تلك المدة، وذاع ذلك الخبر المبهج للشعب في خطبة عصماء في ساحة المستقل، تلك الخطبة التي أثارت الأفئدة وأشعلت الحماس وأعلن الشعب أنه سيتحمل مسئولياته كاملة تجاه المسعى العظيم من ضرائب وأبناء، وسارت الإعدادات كما تمنى البطل وأفضل ولكن قبل عام من تحرك الجيش، ومن حيث لا مكان ولد التمرد كزرع شيطاني خبيث، آلاف الملثمين الجبناء، لا وجه لهم ولا كنية عاثوا في البلاد فسادًا، تخريب وإحراق وسرقة واغتصاب، لم يتركوا أي عمل عزازيلي إلا وفعلوه، كانوا يتبعون رجل يدعى «السالم كارم بن عديل الحوراني»، بالتأكيد لم يكن ذلك اسم الرجل الحقيقي، فالخائن كان أجبن من أن يعلن عن كينونته الفعلية فلقد ظل مختبئا تحت ذلك القناع حتى النهاية.

لشهرين لم يكن المتمردين إلا عصابات ملثمة أقرب للصعاليك لا يبغون إلا النهب والتخريب، ولكن كل شيء تغير وانقلب رأسا على عقب لما أنشدت تلك الأنشوة الظلامية، ترانيمها أبدلت القلوب وسحرت العقول وسمّت النفوس، وغيرت المبادئ، وهدمت الثوابت، مائة ألف متمرد أضحوا بعدما كانوا بضعة آلاف، قوة مهولة وأطماع غير محدودة أمست مطالب أتباع «السالم كارم بن عديل الحوراني» غدروا بالشرطة واحتلوا

قلاعها، اعتصموا في ساحة المستقل وحاصروا القصر السلطاني وطالبوا البطل أشبوب بالتخلي عن عرشه وإلا رياح الدمار ستطيح بكل البلاد.

وكما انطلت الكذبة على الكثير من المواطنين الشرفاء خدع البطل كذلك وظن أنها حركة شعبية نقية بالفعل، ونوى إنقاذ عظمويل من نار الفوضى، وفي ذاك اليوم أعلن أنه سيخطب في الشعب غدا والجميع اعتقدوا أن خاتمة آل قروم قد حلت ـ معاذ الله ـ وأن البطل سيتنحى عن عرشه وبالفعل التنحي كان هدف خطاب البطل في اليوم التالي، ولكن الرب أزاح الستار عن الباطل تلك الليلة وحمى عظمويل وأهلها من ذلك الفخ النجس، فبعد أن علم المعتصمون نية البطل الصادقة للتنحي؛ عادوا إلى بيوتهم ولم يبقَ في ساحة المستقل إلا القلة القليلة وتلك كما عرفنا بعد ذلك هي القلة البريئة المغرر بها، فقبل الفجر هجمت فرقة عسكرية تتدرع النحاس على ساحة ياقوت وأبادت كل من فيها ومتدرعي النحاس كما نعرف هم فرسان «غولية جندرة»، وتمكن الجنادرة أيضًا من القضاء على فرقة عسكرية كانت مكلفة بتأمين المعتصمين وكادوا ينجحوا في اقتحام القصر لولا تصدي الشجعان البواسل فرقة حراس السلطان لهم والتمكن من التغلب عليهم وإرجاعهم مهزومين إلى أرضهم الشيطانية.

كانت ليلة لا تقدر الكلمات على وصف مدى دنائتها وفظاعتها مجزرة بشعة حلت بالأبرياء المغرر بهم، غطت الأشلاء تمثال المستقل والساحة بدت كأنها بحيرة حمراء، ارتفاع الدماء وصل لنصف متر، مذبحة شنيعة راح ضحيتها عشرون ألفًا من الأرواح، لن تنسى البلاد أبدًا تلك الليلة المشهورة بالحمراء.

.

في صباح اليوم التالي للمذبحة الحمراء ألقى السلطان أشبوب خطبة في ساحة المستقل، أزال فيها قناع التمرد وكشف عورات السوداء وكان مفادها. «خدعت كما خدع الشعب وظننت أنها حركة شعبية صادقة واعتزمت التنحي عن العرش ولكن ذلك لم يعجب الأعداء الطامعين في خيراتنا وما حدث في الليلة السابقة كشف الوجه الحقيقي للملثمين أتباع السالم، فبعدما أعلنت عن نيتي في التنحي عاد أغلب المعتصمين إلى منازلهم واعتقدت مثلكم أن سبب عودتهم هو أنهم نالوا مبتغاهم ولكن الساعات المتأخرة من الليل حملت لنا الغمة والحقيقة، هجم الجنادرة على المعتصمين المتبقين وكانت مجزرة يشيب لها الوجدان، حاولوا اقتحام القصر، تصدت لهم فرقة من الفرسان كنت قد استدعيها لحماية أسوار القصر والمعتصمين، بعد مقاومة عتيدة ارتقت أرواح فرساني البواسل إلى الخالق، شهداء، كان الجنادرة على شفى احتلال القصر ولكن الشجعان حراسي تصدوا لهم؛ حتى فروا هاربين كالضباع، وبعد التحقيقات اكتشفنا الآتي، روح التمرد الشريرة خلقها الجنادرة، استأجروا الكثير من المرتزقة والخونة حتى يشعلوها، البارحة اعتقد الجنادرة أننا انتهينا، أرسلوا رسلهم للخونة المرتزقة وأعلموهم بالخطة الخبيثة، ذهب الخونة والمرتزقة عن الساحة وتركوا وراءهم الأبرياء المغرر بهم، وحدث ما حدث، أنا ما زلت عند نيتي بالتنحي إلا إذا كان لشعبي رأي أخر.

أنهى السلطان أشبوب خطبته المجيدة وهتف بعض الشرفاء في الحضور، لن يرضى الشعب أبدًا أن يرحل السلطان ويترك عظمويل للفوضى، وهتف الجميع، يحيا السلطان البطل أشبوب هازم التمرد.

بعد ذلك توالت القرارت السلطانية تباعا وكان أهمها، مضاعفة ميزانية الشرطة لتستعيد عافيتها، يعدم قصلًا أو يصلب حتى الموت، أي شخص يشك أن له علاقة بالتمرد من قريب أو بعيد، يقتل في الحال أي شاعر أو حكّاء أو ساحر يعترف أنه شارك في تأليف الأنشودة الملعونة، وشمل هذا القرار أيضًا أي شخص يحفظ الأنشودة أو يتلوها أو يخطها، عشرون قطعة ذهبية لأي مواطن شريف يبلغ عن متمرد متخفي، وتكريما للجهود التي بذلوها في مقاومة الجنادرة والخونة تم تكريم فرقة حراس السلطان وأعطى السلطان أوامره أن يستبدلوا دروعهم الفضية بدروع برونزية تشبة دروع ياقوت المستقل.

رُفعت المصالب ونُصبت المقاصل في ساحة ياقوت، وعليهم لاقى الخائنون عاقبتهم، ليكونوا بذلك عبرة لمن تسول له نفسه التمرد والعصيان حتى يوم البعث.

وبذلك عادت الشرطة إلى قلاعها أقوى، وفي خلال السنوات التالية تم القضاء تمامًا على التمرد، واندثرت كلمات الأنشودة السوداء للأبد ولم يتم العثور على السالم كارم إلى الأن».

أطفأ جورشبيل نور القنديل وأغلق الكتاب ودسه أسفل وسادته وشد الغطاء على جسده وأغلق عينيه لينام، ثوان وانفتحت عيناه واتسعت عندما جال بخاطره سؤال: ماذا لو كان والداي جنان...؟!

# 5

## صلصان

«التاريخ يقدسه العامة ويصيغه القادة» عن قاضي القضاة عارف السردي.

العزلة والتفكير، شبح جنان يراوده دومًا، ولا سبيل لفؤاده للتخلص من هذا المأزق، الأيام رتيبة وثقيلة والغرفة تضيق وروحه تختنق، حاول أن يكسر حدة الليالي الطويلة بالاطلاع، ولكنه لم يفلح فهو لم يحب القراءة يومًا، فأغلب ما جاء في الكتب من سير وحكايات يحفظه عن ظهر قلب، علم أن زواجه بجنان هو أمر أقرب للمستحيل وعلم أيضًا أن لا مستحيل سيحول بينه وبين محبوبته.

بعد سويعات من نوم غير منتظم استشعر حركة في غرفته، في ضيق تفقد المصدر فوجده خادمه جورشبيل.

بدون مقدمات وفي حماس فاتح عظيم قال جورشبيل:

ـ سيدي كيف مات والدي جنان؟!

نظرة ساخطة من صلحان كانت كفيلة للرد على ذلك المتطفل.

أردف جورشبيل:

ـ عذرًا سيدي، كنت أنظف القاعة يوم تشاجرت مع سمو السلطان وبالصدفة سمعت ما دار بينكم.

هم صلحان لينهره ويكيل عليه وابلًا من السباب، لولا أن جورشبيل أسرع وفتح كتاب تاريخ عظمويل وقلب صفحاته بسرعة وتوتر حتى وصل إلى الجزء المنشود وطلب من الأمير الاطلاع، وعلى مضض اطلع صلحان على المكتوب وباستنكار قال:

ماذا هناك؟!، هل أغرمت أنت الآخر بسيرة البطل أيها المعتوه؟

مط جورشبيل شفتيه وقال:

ـ أجل أغرمت، ولكن ليس ذلك هو المقصد.

رنا بالكتاب أكثر لأعين الأمير النارية وأشار إلى كلمات معينة وأكمل:

ـ المقصد هنا يا سيدي، ماذا لو قُتل والدي جنان تلك الليلة على أيدي الجنادرة، ماذا لو كانوا من الأبرياء المغرر بهم ولاقوا حتفهم في ساحة ياقوت؟!

## جنان...

علي الجانب الشرقي من النهر كانت تعاني الويلات بسبب رحيمة زوجة عمها جزاء لما فعلته ذلك اليوم، عم جنان بعكس زوجته كان يحسن معاملتها وكان حنونا عليها، عم جنان يعمل تاجر بقوليات، متجول كثير

الترحال بين مدن عظمويل الثلاثة عشر؛ ولهذا تقضي جنان أغلب أيامها بين فكيّ رحيمة التي لا يحمل قلبها أي ذرة رحمة، أخبرت رحيمة زوجها بما حدث ذلك اليوم مع إضافة الكثير من البهارات، هولت الأحداث وإدعت أن جنان كثيرة الخروج والتسكع عندما يغيب وأضافت أنها لما سألت جنان ذلك اليوم أين كانت؟

دفعتها جنان وأسقطتها أرضا ولزمت حجرتها ولم تخرج لتساعدها في الأعمال المنزلية، وإدعت أيضًا أن جنان على علاقة بصياد شاب تذهب لتقابله يوميًا عند النهر، وعرفت ذلك لما أنصتت لحديث دار بين بعض الشباب في السوق، وبسبب هذا نهرها عمها ووبخها كثيرًا وحرمها من الخروج من المنزل، خوفًا على شرف العائلة!

...

من الأعمال المنزلية إلى تنظيف الحظيرة وخدمة الحيوانات، قضت جنان أيامها، عمها ساخط عليها ورحيمة قاسية ولم يسعها من الفعل إلا البكاء ليلا وهي محتضنة وسادتها الحزينة، مضت الأيام عليها كأنها الدهر كله، صلحان ذهب، تمنت أن يوقفها ذلك الصباح ويتمسك بها ولكنه لم يفعل، طوال حياتها تمنت أشياء كثيرة ولم تحدث، في أحد الأيام وبعد أن عاد عمها من رحلة تجارية قصيرة حدثها ببشاشة افتقدتها في الأونة الأخيرة.

عمها عبدون ضئيل الجسد ورفيع الوجه، ومن تلك النوعية التي تبدو لك جاءت الدنيا لتكد فقط وبدون مقابل.

ـ لقد تكلم إليّ وسيتقدم لخطبتك قريبًا.

تساءلت جنان:

- من يا عمي؟

بنظرة رجل يفطن ما يبطنه مكلمه قال عبدون:

- راشد الصياد.

لم تستغرب جنان ظن عمها أن خبر راشد سيسعدها، لأنها تذكرت القصة الملفقة لرحيمة عن تسكعها مع صياد شاب، ولم تعترض ربما يكون راشد هو منتشلها من ضياعها، ربما يكون هو مخلصها من هذا العالم الكريه.

أشرقت الشمس الثلاثون، عمها بدأ رحلة جديدة، ورحيمة ذهبت لزيارة أختها، وبرغم أنها عاهدت نفسها أنها لن تعاود الكرة ولن تذهب للمكان الوحيد الذي تجد فيه مسلاها أبدًا، ولكن الحنين قد غلبها وقررت اقتناص الفرصة والذهاب للنهر ولتكن هذه هي الأخيرة.

شمس البكور جاءت حانية وشاطئ النهر كان خاويًا كعادته في الساعات الأولى من الصباح، فردت ذراعيها كيمامة ترجو الحرية، رأت شابًا ممدد الجسد على العشب على بعد أمتار منها «ماذا يفعل ذلك الأحمق في مكاني؟!» تساءلت وفكرت أنها تحسد الشبان الذين يستطيعون الاستمتاع والاستلقاء في أي مكان يريدون، بعد نظرة خاطفة منها قررت تجاهله، ولكنه لم يفعل، فبمجرد أن انتبه لها اعتدل في جلسته وأخذ يرمقها بفجاجه.

انشغلت بملاعبة بضع من صغار القطط وملاطفة الفراشات، تجاهلها لم يئد حماسة الشاب ولم يبعد ناظريه عنها، ارتابت منه ومن نظراته الوقحة، فشلت كل محاولاتها لتفادي عينيه، وارتابت أكثر لما تذكرت لمن يكون ذلك الزي الذي يرتديه الشاب، بنطال أخضر وقميص طويل يصل حد الركبة له نفس اللون وحزام أبيض عريض شد بإتقان حول خصره.

ولّت النهر أدبارها قاصدة العودة.

ـ جنان؟

أوقفها صوت الشاب.

التفتت له وتسلل القلق إلى نفسها وقالت:

ـ ماذا تريد ياهذا؟!

بتؤدة اقترب منها وقال:

ـ إذن أنت جنان، حسناء كملاك خلق من خمر الجنة، كما وصفك تمامًا.

بتلعثم تساءلت:

ـ هل أنت مجنون ياهذا؟!

وهمت مغادرة، فقال الشاب:

ـ أنا جورشبيل، الخادم الخاص للأمير صلحان، أرجوك انتظري إنه في الجوار، سأناديه في الحال.

وبسرعة ورشاقة تنم عن الاستعجال والظفر ارتقى جورشبيل فوق بغلة حمراء وانطلق حيث الأمير.

لم يمض من الدقائق إلا عشرين، حتى لاح الجواد الأبيض قادمًا مهرولًا كأنه يسابق الريح، ومن ورائه بغلة جورشبيل تحاول باستماتة اللحاق به، بحركة واحدة راقت جنان، قفز صلحان من على صهوة جوادة، وبنبرة تجلت فيها لهفة المشتاق قال:

ـ انتظرتك طويلًا، أين كنتي ياجنان؟!

احمرت وجنتا جنان من الخجل وقالت:

ـ كنت أُعاقب.

تساءل صلحان:

ـ علام تُعاقبين يا حبيبتي؟!

تجاهلت جنان الكلمة الأخيرة كأنها لم تقال وأجابت:

ـ لا أعلم، هذه هي حياتي، منذ طفولتي وأنا أعاقب على أشياء لا أعرفها.

اقترب صلحان منها وقال:

ـ أعدك لن أسمح بذلك أبدًا.

وبرفق أزاح خصلة من شعرها كانت قد استقرت على وجهها البراق وأكمل:

ـ لقد صرحت لكي بعشقي يا جنان.

قالت:

ـ وهل مَن مثلي لها حق التمنع عنك يا سيدي؟

لم يمهلها الوقت لتنهي كلمة «سيدي» ووضع يده بلين على ثغرها الجذاب وقال:

ـ أنت حرة، لك الحق فيما يمليه عليك قلبك.

بنبره خافتة قالت:

ـ أحبك.

خفقت القلوب وتقاربت الشفائف وتخالطت الأنفاس وقبل أن يختم على ميثاق العشق، تنحنح جورشبيل ففاق الحبيبان من سكرات الهوى.

نطق جورشبيل:

ـ أنسيت ما جئنا من أجله سيدي؟

هز الأمير رأسه في عدم فهم.

وجه جورشبيل حديثه لجنان الغارقة في الخجل:

ـ سيدتي جنان، أخبريني كيف مات والداك؟

تبدلت ملامح جنان للحزن، أدرك جورشبيل أنه قتل روعة اللحظة بتصرفه الدخيل ولكنه أردف:

ـ أعلم أنهما ماتا في أحداث التمرد، ولكن كيف ومتى؟!

أجابت جنان وهي تنظر في أعين صلحان المتأهبة:

ـ والدي مات في ساحة ياقوت في تلك المجزرة، وأمي أعدمت بعد ذلك بسبع سنوات.

قال جورشبيل:

ـ هذه ليست إجابة كافية، لماذا أعدمت أمك.

قالت جنان:

ـ لم أصدق أبدًا الإشاعات عن أنها رددت بضع كلمات من تلك الأنشودة السوداء.

في تؤدة سار حصان الأمير عائدا إلى القصر، كان صلحان شاردا غارقا في تفكير عميق، فإجابة جنان لم تكن وافية ولا كافية ولكنها زادته حيرة.

قطع جورشبيل شروده حيث تكلم وقال:

ـ سيدي.. إلى أي مدى أنت عازم المسير في هذه القصة.

أجابه الأمير:

ـ حد السماء إذا لزم الأمر.

فقال جورشبيل:

ـ أتعرف؟ لو كنت مكانك لما أخبرت السلطان بأمر والدي جنان أصلًا... كان عليك دفن الحقيقة.

في سخرية تساءل صلحان:

ـ وكيف هذا ياحكيم عصرك؟!

فتساءل جورشبيل بمكر:

ـ هل السلطان يحفظ أسماء المتمردين بالنفر؟!

قال صلحان:

ـ بالطبع لا ولكن كل شيء مدون في السجلات.

قال جورشبيل وهو يغمز بإحدى عينيه:

ـ أظن أن الأمير صلحان لن يمنعه شيء من حرق سجلات عظمويل كلها إذا أراد.

بعد وهلة من التفكير وبعدما استوعب الأمير ما يرمي إليه خادمه، لمعت عيناه وقال وهو يرمق جورشبيل بنظرة إعجاب:

ـ سمندي!

يكاد يجزم السلطان ملكان أن والده حفظ أسماء المتمردين بالنفر، ألف باحث عينهم السلطان السابق أشبوب لدراسة دفاتر سجلات التمرد، مهمتهم الوحيدة هي تفتيت كل شخص شارك في الأحداث السوداء، من أهله ومن أصدقائه ومن يمكن أن يكون قد دفعه للترنيم، وشبكة علاقاته من منهم يميل للعصيان ومن منهم قد يميل مستقبلًا، وأشياء كثيرة مشابهة أرّقت خلد السلطان أشبوب ولم يترك أي شيء للصدفة. ولكن الأمر اختلف مع اعتلاء ملكان العرش فلقد سرح كل الباحثين ولم يشغل باله بالتمرد، على أي حال البطل تمكن قبل وفاته من القضاء على جذور السوداء للأبد.

ولذلك لم يجد الأمير صلحان صعوبة في التلاعب بسجلات التمرد، حذف اسم أم جنان من سجلات المعدومين وأضافه إلى سجلات المقتولين في الليلة الحمراء، وبهذا غدت أم جنان من الأبرياء المغرر بهم، تمنى صلحان لو أنه لم يخبر والده بالأمر لكان بسهولة أزال اسم والدي جنان من السجلات واشترى صمت من يعرف بالأمر وانتهت الحكاية.

وبعد أن فعل صلحان ذلك، ذهب إلى الرجل المقرب إلى السطان وأكثرهم ثقة بالنسبة إليه، قاضي القضاة عارف السردي الرجل الثاني في عظمويل بعد السلطان.

وعلى غير المعهود ترجاه صلحان ليتوسط له عند والده صعب المراس، وبعد الكثير من التهرب وافق القاضي عارف في الأخير أن يفعل ذلك مع وعد بعدم التفاؤل.

# 6

## يامن...

حبيبات الرمال المنسلة من الغطاء الصوفي إلى فروة رأسه ضايقت نومه، على العموم إنه الموعد المناسب لاستيقاظه، يبدو أن الساعة تخطت منتصف الليل بساعة، إنها الليلة الثالثة له في هذا الوادي، أزاح غطاءه جانبًا واعتدل جالسًا، تأفف وهو يزيح بيديه حبات الرمال من على دروعه الفضية رديئة الصنع ووجهه الأبيض الخامل، ثلاثة أيام حتى الآن ولم ينزع دروعه عن جسده ولو لمرة واحدة، ففرقة «فرسان الجبل» يسري عليها القانون كباقي فرق الجيش العظمويلي، يحظر عليها نزع دروعها الفضية في أثناء أي مهمة، وفرقة فرسان الجبل هي فرقة استحدثها السلطان الراحل أشبوب لمطاردة اللصوص والصعاليك والهاربين من العدالة، وهي تعد من الفرق الدنيا في الجيش.

نفض يامن الحبيبات المزعجة من على دروعه وكذلك شعره المجعد القصير، بعيون ناعسة أدار ناظره في جوانب الوادي فاطمئن لما وجد رفقاءه الخمسين يغطون في سبات عميق.

استغرب عندما أمر قائد الفرقة خمسين فارسًا فقط للخروج لهذه المهمة، فهو يعلم أن عصبة الصعاليك الرابضة في سفح جبل مجاور لهذا الوادي عددهم يفوق المائة بكثير، ثلاث ليال وهم منتظرين مرور عصبة الصعاليك من مدق مجاور، الوادي كان خير مكان للتخفي فالتلال العالية التي تحيطه تمنع رؤيتهم على أي مار، إلا إذا أشعلت نارا في بطن الوداي، وأحدهم يبدو أن الأرق قد أصابه هو الآخر وجمع بعض قطع الخشب والحطب وأشعل نارا في وسط الوادي، تأمل يامن قسمات من أشعل النار واضطجع أمامها وبسط كفيه أعلاها للتدفئة، كان فارسا فارع الطول قوي الجثة، حليق الذقن ولون عيناه كلون شاربه البنى الكث، وعلى ضوء النيران المتلاعبة عرف يامن أن لون بشرته حنطي وأنه مشط شعره البنى متوسط الطول على جانب واحد وعرف أيضًا أنه حديث العهد في فرقة الجبل، وأن هذه هي المهمة الأولى له ولكنه لم يعرف اسمه فلم يجمعهما أي حديث من قبل.

ترجل يامن وجلس بمقابل الفارس الجديد وبسط راحتيه بالقرب من النار، فليالي الربيع في هذا الوادي باردة مثل كل ليالي العام.

قال يامن وهو يرمق النار بنظرة أمِلة:

ـ هل تشعر بالخوف؟!

أجابه الآخر بنبرة واثقة:

ـ أنا لا أخاف.

فقال يامن:

ـ ما الذي أرق نومك إذن؟

قال الفارس الآخر:

ـ ما الذي أرق نومك أنت؟!

فأجابه يامن وهو يتعمد ملاطفة الأجواء مع هذا الفارس جامد الكلام:

ـ أفتقد دفء زوجتي... وأنت هل هذا أيضًا هو ما أطار النوم من عينيك أيضًا يا... ما اسمك؟

قال الفارس:

ـ اسمي آسر بن جواد الحق وأنا لم أتزوج بعد.

قال يامن:

ـ وأنا يامن، من أي مدينة أنت يا آسر جواد الحق؟!

فأجابه آسر وهو يرمي بعض أعواد الحطب في النار:

ـ من «وكر الذئب».

قال يامن:

ـ إممم، الجنوبية، ديارك بالجوار إذن.

أومأ آسر بايجاب وعم الصمت.

توهجت النار وعلا صوت طقطقات الحطب المشتعل وبان في الأعالي على ضوء القمر سرب من الطيور المهاجرة واشتد صوت الضواري القادم من قمم الجبال.

قال آسر وهو ينظر صوب القمر المكتمل بدرا:

ـ سيمرون الليلة.

قبض يامن أصابعه محاولًا إخفاء رجفاتها، وسرت رعشة باردة في جسده متوسط الطول وقال:

ـ لا أظن.

مغيرًا دفة الحديث قال آسر بنبرة ساخطة مستهجنة، تجلى فيها الألم:

ـ مطاردة الصعاليك في الأساس كانت مهمة الشرطة ولكن الآن الشرطة نائمة في قلاعها تحكم المدن ونحن نجوب الصحراء بدلا عنها لنقوم بمهمتها الرئيسية.

نفخ يامن في راحتيه وقال:

ـ أراك تكن الكره للشرطة.

أضاف آسر:

ـ الشرطة جبناء، هربوا وهجروا قلاعهم ليستولي عليها المرتزقة أيام التمرد الأسود.

فرد يامن ظهره على رمل الوادي وقال وهو يتنقل ببصره بين النجوم الساكنة كسكون رمال الوادي:

ـ تلك أيام وهذه أيام مختلفة يا رفيقي، لقد ذهب التمرد للأبد.

قال آسر وهو يتفقد الحزام الجلدي المشدود حول خصره:

ـ ذهب التمرد ولم تذهب جراحه يا يامن، لو لم تهجر الشرطة قلاعها لما وصل السالم الملعون إلى ساحة ياقوت.

مشط شاربه بأصابعه وأكمل بصوت خافت امتلأ بجراح الماضي:

ـ ولما قتل الجنادرة أبي تلك الليلة.

اعتدل يامن وتسأل:

ـ أبوك قتل في التمرد؟!

قال آسر وهو يغرس قطعة حطب في الأرض:

ـ أبي هو الفارس جواد الحق، استشهد يوم هجم الجنادرة على ساحة ياقوت، لقد كان من الفرقة المكلفة من قبل البطل أشبوب بحماية السور.

فكر يامن أن برودة الصحراء وجفائها وقسوة جوف الليل قد أثارا مشاعر الفتى الجديد، وبعد هنيهة من صمت نطق متسائلا:

ـ أنت تمقت الشرطة وتبجل السلطان أشبوب رحمه الله برغم أنه هو من أصدر أمر بقاء الشرطة في القلاع لحكم المدن وتكوين فرقتنا لتقوم بمهمة المطاردة.

قال آسر وهو ينقش عشوائيا على الرمال بعود الحطب ويتحسس الرمال ببصره:

ـ أشبوب اقتصّ لأبي من المرتزقة، والجنادرة سأقتص أنا منهم يوما، ولن يقتل الحوراني غيري.

يشاع أن «السالم كارم بن عديل الحوراني» هرب في الليلة الحمراء بعد فشل الجنادرة في الاستيلاء على القصر السلطاني، ولجأ إلى غول جندرة وهو يعيش الآن في كنفه، ولكن تبقى تلك واحدة من الإشاعات العديدة حول تلك الشخصية الغامضة، أما أكثرهم تصديقا بالنسبة للعامة فهي إشاعة أنه كان شيخ قبيلة بني صقر المنقرضة الفانية.

قبل أن ينهي آسر حديثه، انتفض يامن واقفًا من المفاجأة، رفع آسر عيناه من على الرمال، ليجد أن فرقة الجبل حوصرت في أرض الوداي من قبل الصعاليك.

وقف آسر في هدوء غير متوقع وهمس في أذن يامن:

ـ أهوى الحديث مع الموتى!

لم يفهم يامن مغزى تلك الكلمات ولكن قلبه إنقبض رعبا وخفق رهبة.

مائة وسبعون صعلوكا اختلفت أعمارهم وأجسادهم وملامح وجوههم وتنوعت ملابسهم، بعضهم يرتدي الجلابيب، وبعضهم يكتسي معاطف جلدية مهترئة، وبعضهم ارتدى سراويل وقمصان اختلفت ألوانها وبعضهم لا يلبسون إلا السراويل فقط، والبعض الآخر عراة الجسد لا يرتدون شيئا على الإطلاق.

أفاق فرسان الجبل الخمسون على سباب الصعاليك لهم، في ثوان أشهروا سيوفهم، ووقفوا في وضع دائري يجيدوه ينظرون صوب الصعاليك الهابطين بتؤدة وتشفي من أعلى التلال المحاصرة للوادي، احتلت نظرات الانتصار وجوه الصعاليك، تقدم يامن بخطوات بطيئة محسوبة مع رفقائه مقابلين الصعاليك واندهش عندما لم يتقدم معهم آسر الذي بقى مرابطا بجوار النار كأنها أمه، هبط الصعاليك إلى الوادي وزعق قائدهم:

- امحوهم، ولا تخلفوا ورائكم درعا أو سيفا أو لقمة، فنحن أولى.

الصعاليك يجرون ناحية فرسان الجبل، ويصرخون في نشوة، تهتك صمت الصحراء الجليل، وقبل أن يتم الاشتباك، كانت السهام قد اصطادتهم كالكلاب.

ربعمائة وخمسون فارسًا، نقش في قلب دروعهم «فرسان الجبل»، ظهروا من العدم، يقفون أعلى قمم التلال، ويقذفون سهامهم بإتقان نحو أهدافهم.

حاول الجزء الباقي من الصعاليك الفرار ولكن لم يفلح أحد منهم في النجاة من الذبح لقد كان كمينا محكم التخطيط.

الشمس الناعسة بدأت في الفوقان، خيط الصبح الأول بان في الأفق راضيا مستريحا، رمال الوداي تلونت بالأحمر ودروع الفرسان تخضبت بالدماء، والصعاليك ليلًا أصبحوا فجرًا جثثا مشوهة ويامن يلهث تعبا وقلقا.

وقف الخمسمائة فارس في بطن الوادي حول قائدهم العجوز الذي خطب فيهم والعرق يتصبب من جسده ودروعه الفضية تناثرت عليها دماء قتلاه:

ـ تحصنا في هذا الوادي منتظرين مرور المجرمين، علمت من البداية أنه فخ وجررنا إليه بحرفية.

أنين جاء خافتا من تحت الأشلاء أوقف قائد الجبليين عن الكلام، كان صعلوكا يمسك بأمعائه ويئن ولم يعد يلتصق بجسمه غير ساق واحدة والثانية ضاعت وسط العشرات من المبتورين مثلها، بضربة سيف مغتاظة أنهى يامن معاناة الصعلوك المتألم، وارتاب عندما وجد آسر يتحرك بإتجاهه وقد ظهرت علامات التوتر على وجهه الصلد لأول مرة، آسر دروعه نظيفة وشعره مازال محتفظا برونقه كما كان، فكر يامن أن هذا الآسر لم يسحب سيفه من غمده أبدًا وغمغم في نفسه «ابن جواد الحق لم يشارك في القتال، ابن جواد الحق أشعل نارا في بطن الوادي، آسر يتحرك نحوي، هل يعقل؟!»

ـ «بيننا خائن»

صاح القائد الجبلي، واستطرد:

ـ يدفع له اللصوص وهو من نصب هذا الفخ لنا.

أنهى القائد حديثه ونظر بصرامة نحو آسر المتوتر، وعلت الهمهمات المتسائلة والمستنكرة بين الفرسان الخمسمائة وتعلقت أعينهم بآسر بن جواد الحق.

اتسعتا حدقتا يامن واحمر وجهه الأبيض، وطرش جوفه دمًا، وأطلق صرخة تردد صداها في الجبال الشاهدة، ونظر إلى حيث كبده فوجد خنجرا ملطخا بالدم مستقرًا هناك، ويد آسر المحملة بدمائه قابضة على الخنجر فبدا كأنه جزءا منها.

سحب آسر خنجره من الكبد وغرسه مجددًا في عنق يامن.

وقع جسد يامن المنتفض على رمال الوادي الباردة، شعر أن جسده أبرد من الرمال، شعر أن جسده أضحى قطعة ثلج كبيرة نازفة، ورأى نظرات الاشمئزاز تشيعه بصمت مهيب.

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة عرف يامن، لماذا لم يشارك آسر في القتل، ولماذا همس في أذنه وعرف معنى همساته، وعرف لماذا كان صامدا من البداية، وتيقن أن آسر أوكل بمهمة أخرى وهي مهمة قتل الخائن.

وكان يامن هو الخائن!

# 7

## حمزة...

«نحن نعيش في فرج مومس يضاجعها في اليوم الواحد ما يزيد عن الألف فحل»؛ صرح بها يومًا وهو غريق تحت تأثير الخمر، ولحسن حظه أن جميع من جالسوه يومها كانوا سكارى، ولم يتذكرها أحدهم بعد مغادرة الحانة، حتى هو نفسه لم يتذكرها بعد ذلك، وهذا لحسن حظه أيضًا!

على قمة ثلجية لجبل غير معلوم المكان ولا الاسم، خضعت لبؤة ذهبية المحيا لذئب أدهم حيث كان الذئب يضاجعها بعنف وكأنها المرة الأخيرة، اختلط زئير اللبؤة المنكوحة بصوت دخيل على هذا العالم، صوت دقات، طرقات على باب خشبي متهالك، أصحته من نومه.

تمتم:

ـ ما بالك يا حمزة تحتلم على لبؤة؟!

ولكنه تذكر شيئًا قبض قلبه لوهلة، ذئب يضاجع لبؤة، إنها نبوءة قديمة جاءت في مخطوطة محرمة، كتاب ممنوع نادر الوجود، لا يذكر إذ كان لعرافة أو ساحرة لا يستحضر اسمها، كان قد حصل عليه بطريقة ما من سنوات تائه عن عقله عددها بالضبط، على أي حال هو لم يفهم

شيئا مما جاء في تلك المخطوطة وأحرقها في وقتها خشية أن يصيبه مس شيطاني كما يثرثر الناس برغم أنه لا يؤمن بتلك الهرطقات، والعجيب أن كثيرين يدعونه بالمهرطق أو المهرج.

اشتدت الدقات فقام من على مرتبته القطنية ليلبي نداء الطارق، وتعثر في كومة كتب خاضعة بجانب مرتبته وبالكاد تفادي السقوط، مشى في ممر ضيق يفصل حجرته عن فناء المنزل الغير مسطح، بحذر فتح الباب الخشبي المتهالك تجنبًا لصريره المزعج، فوجد زيد ابن الأربعة عشر ربيعا يرمقه بنظرة مستنكرة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، أدرك مغزى النظرة لما لفح هواء الربيع المستكين صدره العاري، لقد كان عارى الجسد لا يستر عورته إلا سروال قصير، فهو اعتاد النوم على تلك الحالة دومًا.

تثاءب وقال وهو يفرك عينيه السوداوين:

ـ ماذا هناك يا زيد؟

قال زيد وهو يطير:

ـ صاحبك آسر ينتظرك في مقهى عقبة يا راوي.

تمتم:

ـ إنه موعد عطلته.

اسمه حمزة وكنيته المكتسبة الراوي؛ وذلك لعمله قاص وحكاء في مقهى عقبة، حمزة أشعث الشعر وأشعث اللحية وأشعث العيشة كذلك، هو كمعظم أهل الجنوب غامق البشرة، أسمر ذو وجه بيضاوي وله عينان ضيقتان كعيني ذئب أبله، ومثل عامة الجنوب يسكن حمزة في بيت مبنى من الطوب الأبيض الكبير معرش بالصاج بخلاف فنائه، ولا ينوي حمزة

رصف أرضيته في المستقبل القريب، لا يمتلك من الأثاث إلا أساسياته، مرتبة قطنية، وبعض أدوات الطعام وفأس وشوال رمادي ومئات الكتب، حمزة يهوى الاطلاع والمعرفة ويحرص على اقتناء الكتب المتنوعة فغبار الكتب يفعل الأفاعيل في وجدانه كفعل دخان التبغ تمامًا!

ستر جسده الطويل الممشوق بجلباب أسود ولف عنقه بشال لا تعرف إذا كان أبيض أو أصفر لقدمه وبهوته وانتعل مركوبًا بنيًا، وخرج قاصدًا مقهى عقبة المجاور لبيته البسيط.

أشعل غليونه وأخذ نفسا عميقا وترجل في شارع رملي لا يزيد عرضه عن الستة أمتار، كانت الشمس ذاهبة لمخدعها والقمر يستعد للاستيقاظ، بدأت الحوانيت في إغلاق أبوابها، والبشر راجعين من أشغالهم، وهو يمشي مختالًا يرد السلامات بابتسامة بلهاء، هناك كهل يسحب بقرتين وطفلان يطاردان بضع غنيمات، وصبية حسناء تقود عربة يجرها حمار ومملوءة بالفواكه الطازجة، نهق الحمار، وهطلت رغوة بيضاء من فاه ناقة عائدة من رحلة تجارية للتو، وغلام يسأله:

ـ ماذا ستحكي الليلة يا راوي.

وحمزة يجيب:

ـ أتود أن يقطع الشيخ رزقي يا ابن الغانية.

ابتسم بسخرية لما لاح له «الشيخ عقبة» جالسًا على ناصية المقهى كعادته، شاردًا يرمق الفراغ بعين واحدة سارح في الملكوت.

مقهى عقبة هو عبارة عن بيت واسع لم يكتمل بناؤه، ثلاثة جدران حجرية لا رابع لهم، عرشت بأغصان الشجر وأحمال القش والتبن، الواجهة باب خشبي كبير لا يوصد في الغالب، كان عقبة قد اشترى ذلك المبنى الذي لم يستغل لغرضه الأساسي عندما قدم لمدينة «وكر الذئب» الجنوبية قبل خمسة عشر عاما تقريبا.

«أقسم أنك واقع في الغرام يا شيخ»؛ قالها حمزة وهو يتخطى عقبة الشارد الذي اكتفى بنظرة متقززة.

كان آسر يجلس حول طاولة خوصية مجاورة للشيخ وأمامه كوب فخاري مملوء لنصفه بمشروب النعناع الساخن؛ تعانق الصديقان بمودة وجلسا، وفي الحال بدأ صبي المقهى معد المشروبات في تجهيز كوب القهوة الخاص بالراوي.

قال حمزة:

ـ أهلا بأشرس فرسان عظمويل.

مبتسما قال آسر:

ـ لم أنضم لحراس السلطان بعد.

وضع صبي المقهى كوب القهوة وزود المشاعل بالجمر، استفتح بالثلاثة الممتدين في عمق المقهى ثم أنار المشعلتان الرابضتان أمام واجهته وبصوت منفر أخذ يدندن كلمات لا معنى لها تشبه أغنية مبتورة الأطراف، نامت الشمس وبدأ توافد الزبائن، وجوه كثيرة أعياها جفاء النهار أطلت باغية سويعات قليلة من المرح، المقاهي هنا تشبه آبار الصحاري المكفهرة، تقضي نهارك في مطاردة السراب ومع حلول المساء تأوي إلي البئر لتتزود منه بمقويات تجعلك قادرًا على مجابهة نهار أثِم؟

جديد لا شيء فيه غير سراب، تعالت الضحكات وتعالت طرقعات النرد وكذلك إيرادات عقبة، من الواضح أن الليلة سيتضاعف رواد المقهى لأن الليلة ليلة عزف وحكي، مائة شخص على الأقل سيقضون سهرتهم في مقهى الشيخ الكريه عقبة.

..

ارتشف حمزة رشفة قهوة وقال:

ـ المهم أنك ارتقيت من فرسان الرديف وانضممت لفرقة، على العموم هذه خطوة جيدة.

لمعت عينا آسر وقال:

ـ أقسم أني سأتشح البرونزي يومًا.

انطفأ بريقه وصمت، وشرد بنظرة إلى شجرة الصفصاف التي تقابل مقهى عقبة على الجانب الآخر من الشارع.

فطن حمزة لصديقه وتساءل:

ـ ما بك ياصاحبي؟!

بأنامل خاملة مشط آسر شاربه البني وأجاب:

ـ لقد قتلت رجلا.

قال حمزة:

ـ لص أم هارب من عدالة آل قروم؟

قال آسر:

ـ لا هذا ولا ذاك، كان جبلي مثلي يدعى يامن، باعنا للصعاليك وأوكلني القائد بمهمة قتله ليختبر قدرتي على المضي قدما.

قال حمزة:

ـ حسنًا، لقد نجحت في الاختبار يا جواد الحق.

قال آسر وهو مازال يحدق في شجرة الصفصاف:

ـ كنت ثابتا في البداية، لما اقتربت اللحظة توترت، وبعدما أنهيت المهمة انتشيت، وكانت نشوة خاطفة لم تستمر طويلا!

قال حمزة:

ـ أنت الذي ابتغيت الفروسية يا صاحبي، تحمل مرارة سلب الحيوات إذن.

نظر آسر إلى صاحبه وقال وهو يبتسم بفتور:

ـ فعلت كما يفعل أبطال قصصك، همست في أذنه تهديدا، لقد جعلت الأمر دراميا.

«حقًا، جيد» قال حمزة وأردف متهكما وهو ينظر ناحية البيت المقابل الذي امتدت جذور الصفصافة أسفله:

ـ ها قد أتى عمارة الزمار!

بساقيه القصيرتين هبط عمارة ثلاث درجات خشبية مترنحًا لبدانة جسده، حف شعره الأسود الناعم في أوراق غصن متدلي من الصفصافة، أسرع الخطى لما رأى آسر يجلس على ناصية المقهى، فهو لم يره منذ مدة ليست هينه على صديق وفي، عمارة في منتصف عقده الثالث وهذا نفس عمر حمزة وآسر، يعمل عازف ناي في مقهى عقبة، والمال الذي يوفره له عمله بالكاد يكفي احتياجاته الأساسية هو وأمه الأرملة.

.

سلام حار جمع عمارة بآسر، وبعينيه الطيبتين المرحتين تفحص عمارة زي آسر الجديد والذي كان عبارة عن بنطال جلدي أسود وقميص جبلي يبرز جسد آسر المعضل القوي وقال وهو يضع عود الناي على الطاولة:

ـ فرقة الجبل، مبارك يا أخي.

وشد كرسي خشبي ورفع طرف جلبابه وجلس والتفت لحمزة ورسم على وجهه ملامح جدية لم تتماشَ مع الملامح البشوشة لوجهه القمحي المدور وعلى مضض تساءل:

ـ كيف حالك يا بائع الكلام؟

أجاب حمزة:

ـ أفضل من حالك يا زمار.

مغتاظًا قال عمارة:

ـ زمار!، اسمها عازف ناي يا جاهل.

قهقه آسر وقال:

ـ ها قد بدأنا، أظن لو كففتما عن التناقر يومًا تهلكان.

غمغم عمارة:

ـ اللعنة على الذئاب!

وتمتم حمزة:

ـ تبا لأمك.

فتدخل آسر وقال:

ـ لن تكبرا أبدًا!

أبصروا «سنبل» المهرب قادما صوبهم وعلى وجهه ابتسامة انتصار حمقاء، وراحت الابتسامة عندما رأى سنبل الفارس آسر يجالس حمزة، وعاد أدراجه، عشر خطوات متسارعة ثم انزلق في زقاق ضيق، ووقف ملصقا ظهره بجدار طيني كان يمثل ركنا من أربعة أركان لحانة قديمًا، والآن هو الوحيد الباقي من ذلك البناء المدنس.

وأنفاسه تتسارع قال سنبل:

ـ أخاطر بحياتي لأجل تلبية رغباتك وأنت تسلمني علانية.

قال حمزة وقد ارتسمت على وجهه نصف ابتسامة:

أسلمك!، آسر صاحبي، وأي رغبات التي تتحدث عنها يا سنبل.

لقم غليونه وأردف في مكر:

ـ هذا عملك يا أخي، أنت مهرب!

قال سنبل:

ـ أعرف أنه صاحبك ولذلك انتظرتك هنا.

قال حمزة:

ـ لم الضجة إذن؟!، ارنِ ماذا أحضرت من أجلي.

مشط سنبل الزقاق بعينيه الجاحظتين، كان هناك فأر يراقب المشهد من أعلي الجدار الطيني، وارتسمت نفس الابتسامة المنتصرة الحمقاء على وجه سنبل الأصفر الشاحب وأخرج شيئا كان قد أخفاه تحت قميصه الكتاني وقال:

ـ أحضرته من جندرة، عانيت الويلات في سبيل ذلك، لقد أحدث هذا الديوان بلبلة في جندرة حتى أنه منع.

انتزع حمزة الكتاب من أيدي سنبل وبحماسة تفحص عنوانه، وسرعان ما انطفأت حماسته وبخيبة أمل قال:

ـ بالفعل يجب أن يثير الجدل ديوان «الفرج الدامع»، ثكلتك أمك يا سنبل، لن أدفع قطعة فضية في هذا العبث، خذ أعده إلى جندرة.

مثل جحر النمل تكدس المقهى بالرواد، وبعد قليل من الغياب عاد حمزة إلى صحبته الصغيرة، بعد أن أتم صفقة رابحة مع سنبل المهرب، فسنبل رفض استرجاع الكتاب الجندري وبعد مفاوضات إتفقا، أخذ حمزة الكتاب وأجّل الدفع إلى أن يجيئه سنبل بكتاب يستحق، وعلى أي حال ما كان حمزة ليخسر خدمات سنبل أبدًا فتلك الكتب الجندرية ممنوعة ومحرمة في سلطنة عظمويل وعاقبة من توجد عنده هي الإعدام في ميدان الذئاب.

بادر آسر وقال بحس خفيض:

ـ تتعامل مع المهربين ياحمزة!، هل عدت للخمر ثانية أيها الهالك؟

قال حمزة:

ـ لم أحتسِ كأسا منذ أكثر من عام، أنا الآن لا أتجرع إلا رحيق الكَتب.

أضاف عمارة مستهجنا:

ـ أنت لا تحتاج للخمر، لقد نفضك أبوك سكرانا أصلًا.

فرد حمزة:

ـ وأنت نفضك أبوك حمارا.

وقبل أن يزيد أحدهما على الآخر، قام الشيخ عقبة وفرك الرقعة الجلدية السوداء التي تغطي جوف عينه المنقلعة وبجفائه المعهود وجه أوامره لحمزة وعمارة:

ـ حان وقت العمل.

وعلى نغم ناي العازف قص الراوي حكاية، وقرب منتصف الليل انفض الجمع كل إلى مسكنه في انتظار نهار أثِم؟ جديد!

أنار حمزة قنديلا وأغلق النافذة الخشبية وأوى إلى مرتبته القطنية بعدما حصلت معدته على قليل من الزاد، اقتصر على قطعتي خبز وقطعة من الجبن، لقد أمّنت أسرته هذا البيت ليتزوج به ولكنه انتقل له قبل أن ينعم بشريكة، وذلك بعدما احتدمت الخلافات بينه وبين والده لشدة عبثه ولعدم رضاه عن حال القبيلة الخانعة التي كانت في زمن ولّى عريقة، ومؤخرًا تحسنت علاقته بوالده نسبيًا، ومن المعروف عن حمزة أنه ينفق معظم ما يتقاضاه من عقبة على الكتب والتبغ والقليل على الطعام، هوسه بالمعرفة جعله لا يكتفي بالكتب المشروع تداولها في عظمويل كتلك الكومة الراكدة بجواره، وعدم اكتفائه ذلك قد يكلفه الكثير مستقبلًا ولكنه على كلٍ حذِر ويبرع في إخفاء المحرمات المكتوبة.

حمزة كمصاص دماء عتيق لا ينام ليلًا ولا يحكي نهارًا ولهذا عمد إلى كتاب الفرج الدامع عساه يجد فيه شيئًا مثيرا، فتح الكتاب وبدأ القراءة.

«دمع الفرج دما شوقا لمريحه ومريحه عندك وتبخل»

لم يكد يكمل البيت الأول من الديوان حتى أغلقه وبصق ودس «الفرج الدامع» تحت مرتبته وتمتم:

ـ تبا لفرج أمك.

حمل القنديل وانتقل للحجرة المجاورة، وكانت فارغة لا تحتوي إلا على فأس، علق القنديل على خطاف مدقوق في أحد الجدران، وأمسك الفأس وحفر حتى انزاح الرمل وبان الشوال الرمادي الذي يحوي الكتب المحرمة وأخذ يقلب فيه عساه يجد صديقًا يؤنس وحشة ليله، حتى وقعت عيناه على مخطوطة تحكي سيرة محارب لا يعرف في أي عصر كان ولا في أي أرض سفك الدماء، في النهاية قرر أن يقضي ليلته برفقة «ساكني الكهوف»!

# 8

## مجلس السلطان...

ترتيب الرجال كما جاء في المواثيق الرسمية لسلطنة عظمويل.

الأول: السلطان، يشغله حاليًا «ملكان بن أشبوب من دم المستقل سليل آل القروم»

الثاني: قاضي القضاة، يشغله حاليًا «عارف بن مكروم السردي».

الثالث: القائد الأعظم، قائد كل القادة، يشغله حاليًا «نائل بن نوار القرومي».

الرابع: أمين الخزانة، يشغله حاليًا «صباحة بن خالد الأدهم».

الخامس: أكبر الشرطة، أكبر كل الكبراء، يشغله حاليًا «مارد بن زيد العنتبي».

السادس: شيخ الصالحين، يشغله حاليًا «أمين بن ناجي القيرواني».

السابع: الحارس الأعظم، قائد حراس السلطان، يشغله حاليًا «صخر بن مكروم السردي».

له أعين ثاقبة حاصدة لا تفوت أي أنملة، وعقل مسجل مستقصي لا يغفل أي تفصيلة، محض هراء تلك الوثيقة هكذا وجدها جورشبيل بحكم ما عايشه في القصر وخارجه، في سمندا سمع الكثير من عبارات التعظيم والبغض عن نائل القرومي، أين المحارب المقتدر الذي تتجلى سيرته في البر والبحر كأسطورة إغريقية، نائل هناك بعيدا يقطن جزيرة القرش الجدباء، مضمون الوثيقة يفصح أن الليث من أقوى ثلاثة رجال على الإطلاق في عظمويل، ولكن الليث قابع لا يفارق القرش، منعزل عن الناس والسلطة، نائل لا كلمة له في إدارة شئون البلاد.

قاضي القضاة، المستشار الأول للسلطان وأكثر الرجال حكمة وعلمًا في عظمويل وأقربهم إلى السلطان، يظن جورشبيل أن ترتيبه الأصح هو الثالث سيطرة لا الثاني.

أما عن أمين الخزانة وأكبر الشرطة فهما حليفين أكثر منهما مواليان للعرش والشعب، صباحة رجل المال ومارد رجل الأمن ارتآهم جورشبيل ضبعان وضيعان لا يهتمان إلا بمصالحهم الشخصية وليذهب الجميع إلى الجحيم.

ولا يعلم جورشبيل ما السبب وراء منح شيخ الصالحين مقعدًا في مجلس السلطان فهو يجد أمين القيرواني رجل لاحول له ولا كلمة ولا يجيد غير قول كلمة «أمين».

ولكن يبقى ثمة رجلٍ يمثل المعادلة الصعبة في عظمويل، ملك العالم السفلي وقاضيه ومسيرِه، الأفعى رجل يمتلك نفس الصيت المبجل لليث نائل فهو الآخر محارب أسطوري ذائع الصيت في العالم أجمع

وزيادة على ذلك تفاجأ جورشبيل بحنكة صخر السردي السياسية، فهو الرجل الذي يهابه النبلاء ويخشاه العامة، الرجل الذي أخضع ربيبا المال والأمن لصولجانه، الرجل الذي يراه البشر العاديون الرجل الثاني في البلاد والذي يراه جورشبيل ينازع السلطان في سلطته وربما يفوقه، ودوما ما تساءل «هل يعلم ملكان مدى خطورة صخر الأفعى على عرشه؟!»

كان جورشبيل لا يكتسي إلا سروالًا أخضر وقميصًا خفيفًا لا أكمام له ويجلس في فناء مسكن الخدم على أريكة متواضعة، خرج للفناء لما تأفف منه زملائه في عنبر الرجال فهذا ليس وقت إضاءة القنديل، والحقيقة أنه أراد إيهامهم بذلك لأن سبب خروجه كان شيئًا آخر، «كندة»، تلك الجارية التي جذبته بجمالها، فبعد أيام من الغزل والتقرب تجرأ أخيرا وترك لها رسالة أسفل وسادتها في عنبر النساء، فهو بارع في التسلل، أعصابه تتأكل ويبدوا أن انتظاره سيطول، ويتمني أن تلبي «كنده» نداء فؤاده، وفكر أن يقضي وقت الانتظار في المطالعة، فعمد إلى كتاب «تاريخ عظمويل» وقرر أن يبدأ من بداية البداية.

## سيرة عظمويل وهندرة.

التاريخ لم يدون إلا بعد الاستقلال، عصر التدوين بدأ في عهد السلطان الأول ياقوت القروم، أما ما قبل ذلك فأغلبه اجتهادات وجمع العديد من الأخبار الغالب صحتها.

«عظمويل وجندرة» هما اسمين لحبيبين زوجين، خرجا مع الكثير من القبائل والعشائر من أرضهم الأم بعد عقمها باحثين عن وطن جديد، لا تتفق الأخبار على الموطن الأصلي لهذه القبائل والبعض يقول أنها قبائل اعتادت الترحال والتجوال وأنهم في الأصل كانوا رعاة أغنام وماشية.

امتزجت هذه القبائل بالمزيد من العروق الأخري التي تركت أوطانها لأسباب مختلفة وكذلك ببعض فرق الغجر وسميت تلك القافلة الضخمة المترحلة «قافلة الجوالة» نسبة إلى كثرة تجوالهم في الأرض بحثا عن الرزق.

بعد سنين من الاندماج وكثرة الترحال حطت «قافلة الجوالة» رحالها في سهل منبسط حفر به بئر منذ زمن، ربما حفره أحد الأخيار مساعدة منه للقوافل المسافرة، دُقت الأوتاد ورفعت الأعمدة ونصبت الخيام واحتفل الرجال والنساء بأرضهم الجديدة المؤقتة.

عام من استقرارهم في السهل اليانع، قضت فيهم أنعام قافلة الجوالة على حشائش السهل التي لم تنبت من جديد لأن البئر نضبت مياهه أبدا.

وكالمعهود قررت القافلة الرحيل عن السهل بحثا عن مكان آخر يقضون به أيامًا أخرى قبل أن يعيدوا الكرة مجددًا.

في الليلة الأخيرة لقافلة الجوالة في السهل نزعت الأوتاد وأسقطت الأعمدة وطويت الخام استعدادا للرحيل، وغط الجميع في النوم آملين في غد أفضل وأرض أكرم.

عظمويل وزوجته المحبة جندرة أصابهم الأرق ونداء العشق ملك ذرات أجسادهم، خرجا للخلاء ليحظيا بقليلا من الدفء، يقال أن تلك الليلة ليلة لم يظهر فيها شعاع قمر، ابتعد العاشقان كثيرا عن السهل حتى أن التيه أصابهم ولم يعرفوا في أي الاتجاهات تجرهم أقدامهم، بعد مسيرة

أكثر من ست ساعات ليلًا تملكهم فيها الإنهاك غلبهم النعاس وناموا ولم يعرفوا في أي أرض ينامون.

مع بزوغ الصبح وعلى صوت شقشقة العصافير استيقظت جندرة وهالها ما رأت وأخذت تصرخ وهي تستكشف بعينيها الأرض التي غلبهم النوم فيها: أرض حبلى، أرض حبلى، اصحَ يا عظمويل وأبصر عظمة ربك، أرض حبلى يا عظمويل.

اختلفت الآراء داخل قافلة الجوالة، البعض أراد بدء الترحال والبعض الآخر أقسم أنهم لن يذهبوا لأي مكان قبل إيجاد عظمويل وجندرة وفي الأخير توصلوا لإتفاق أرضى الطرفين على مضض وهو المكوث في السهل العقيم يوم آخر انتظارا لعودة المفقودين وإن عادا أم لم يعودا ستنطلق القافلة في صباح اليوم التالي.

لم يكد يمر من النهار إلا نصفه وكان عظمويل وجندرة عادا للقافلة حاملين بشرة الأرض الحبلي.

نهر أخضر يشق أرضًا طينية نسجها طمية، لقد أكرم الله على الجوالة الرحل أخيرًا بوطن يسكنون إليه بعد سنين طويلة من المشقة والترحال، بعد أيام من الفرح والمباركة بدأت جميع القبائل متعاونة في العمل على قدم وساق لأجل إعمار أرضهم الجديدة وجعلوا من عظمويل وزوجته جندرة زعماء عليهم لكثرة علمهم ورجاحة عقلهم وبالطبع عرفانًا لجميل الاكتشاف، وبدأت حضارة جديدة في البزوغ على تلك الأرض الحبلى، حضارة كان أساسها الزراعة.

انتهى العام الأول في الأرض الحبلى بحصاد وفير، ورغم ذاك فعظمويل كان يأمل أن يكتشف ماذا يوجد وراء الغابة التي تحف الحبلى من الشمال، الكل رفض فكرة ولوج الغابة خوفا مما قد يواجهوه في

الأدغال من وحوش ضارية ومخاطر قاتلة، ولكن الفضول هزم عظمويل في النهاية وقرر كطبيعته المغامرة الولوج إلى الغابة ورفض أن ترافقه زوجته في تلك الرحلة وكذلك لم يتبرع أي شخص آخر ليرافق عظمويل في مغامرته الخطرة.

يقال أن عظمويل دلف إلى الغابة مترجلا لا يركب أي دابة، أسبوع من ذلك وكان القلق تسلل إلى قلوب الناس عن مصير المغامر عظمويل، مضى شهر ولم يظهر عظمويل وتمكن القلق من قلوب الناس واعتزلت جندرة الجميع وغرقت في حزن مرير، شهر آخر وأجزم الكل أن عظمويل فُقد للأبد، حملت الأيام الأخيرة من الشهر الثالث أخبارًا سعيدة لقبائل الأرض الحبلى، عاد عظمويل ولم يعد على قدميه مثلما ذهب ولكنه شوهد يمتطي ذئبا أسودا ضخما أقسم البعض أن حجمه يضاهي حجم بغل شديد.

ويومها حدث عظمويل شعبه أنه اكتشف أرضا تفوق الحبلى خصوبة وخيرا، مساحتها أوسع وبها نهر أخضر هي الأخرى ويحفها شمالا بحر أزرق، صفاء مائه كصفاء سماء الربيع.

وهكذا انقسم عقد القبائل، البعض قرر أن يبقى مع جندرة في الأرض الحبلى جنوب الغابة والبعض الآخر ذهب مع عظمويل إلى أرض شمال الغابة، مع تعاقب الفصول اندثر مسمى الأرض الحبلى وحل محله مسمى أرض جندرة جنوب الغابة وأرض عظمويل شمال الغابة.

يقال وقتها أنه إذا سألت رجلا أو إمرأة عن مكان ذهابهم يجيب، أنا ذاهب إلى أرض عظمويل أو أرض جندرة.

حلم البناء والتعمير فرق الزوجين عظمويل وجندرة ولكن أمل اللقاء لم يفعل، وفي الأخير جاءت الرياح بما لا تشتهي أفئدة المغرمين.

فتح باب عنبر النساء فألقى جورشبيل بالتاريخ جانبا، وأطلت «كندة»، سمراء ذات قسمات بريئة وجسد ممتلئ بعض الشيء، لبت كندة همسات شهوته وتعالت دقاته، قام وبخطوات خجولة سار في إتجاهها، ولكنها جرت عندما دق الباب وعادت أدراجها.

وشرارت الغيظ تتطاير من عينيه فتح الباب فوجد الأمير صلحان أمامه، وبدا كشبل حَرُون.

قال صلحان:

ـ جيد أنك مستيقظ، لقد جائني القاضي عارف بالرد، لم تغير البراءة من الأمر شيئا، لقد رتب أبي خطبتي لأخرى قرومية، في الخريف!

تساءل جورشبيل في نفسه، لماذا أنا؟!

# 9

## وكر الذئب...

«الجحيم للخونة، اللعنة على أتباع السالم الشيطاني»، زعق الشيخ عقبة لما أنصت لصبيان يتمازحان حول فتاة، وأحدهم يهدد الآخر أنه إذا مسها سيبلغ عنه بتهمة ترنيم السوداء، الشيخ لا يطيق التمرد ولا سيرته، البشرة الفاتحة لعقبة غريبة على الجنوب، هو رجل جاف شديد النحالة يشارف على الخمسين، ولا توحي لك هيئته الكالحة ولا شعيراته البيضاء المنتصبة بذلك، صعب في معاملاته وقليل في كلامه، البعض يرونه رجل لا يأبه لشيء غير المال والبعض يرون أنه رجل عانى الأمرين في حياته وألمت به مصائب من المستحيل أن يتحملها آدمي ولكنه تحمل ونجى وفهم كيف تدار اللعبة، كان من سكان العاصمة، نعم بحياة هادئة إلى حد ما، ورث دكان عطور عن والده وتزوج من فتاه متوسطة الأسرة، انقلبت حياته رأسا على عقب عندما رنمت السوداء قبل اثني وعشرين عاما، فلقد أحرق المتمردون دكانه وانتهكوا زوجته الحبلى حد القتل، في لمح البصر فقد تجارته وامرأته وطفله ودمرت حياته وببطء أدرك أنه لا مستقبل له في العاصمة المتكالبة العيشة، حمل مدخراته البسيطة وارتحل للجنوب،

ولتكتمل مأساته فقد إحدى عينيه في منطقة الجبال الوعرة لما هاجمه اللصوص هناك قبل أن يتمكن من الفرار منهم، ضحى بعينه ولم يضحي بمدخراته ووصل للجنوب واستقر في هذه المدينة «وكر الذئب» واشترى هذا البناء وحوله لمقهى وكان ذلك قبل خمسة عشر عاما، وتلك هي القصة التي رواها عقبة عندما حطت قدماه أول مرة هنا.

مدن إقليم الجنوب الخمسة لا ترتقي لكلمة مدن، بالتعبير السليم هي عبارة عن خمسة قرى واسعة شاسعة، أرضها صحراوية جافة ما يصلح منها للزراعة بالكاد يكفي سكانها، وبذكائه وخبثه استطاع عقبة تدبير مدخراته القليلة وتسييرها على النحو الصحيح ليغدو هذا المقهى من أهم مقاهي الجنوب وأعلاهم ربحا، الشيخ لم يتزوج ثانية ويعيش في حجرة ملحقة بالمقهى من الخلف ولا يحمل في قلبه ذرة ود واحدة لأي مخلوق والعكس صحيح، هو كذئب كهل خانت الأزمان نسله!

«الجحيم للخونة «ردد حمزة كلمات عقبة متهكما، وجلس إلى عمارة المنتصي المقهى، وتمتم «واللعنة عليك ياشيخ»، وقال:

ـ أهلًا يا زمار.

فلم يجبه عمارة ولم ينظر له وأشاح بوجهه للجانب الآخر حيث وجد بصاص الشرطة يحملق في صديقه.

وبصوت خافت لا يكاد يسمعه عمارة أردف حمزة وهو يرنو منه:

ـ أتعرف يا زمار إذا كان ما أقرؤه في كتب الجنادرة حق، فهؤلاء القوم قد سبقونا بقرون، أظنك تود أن تعرف كيف يذكرون أسدك الذهبي؟!

صمت وخطف نظره قصيرة لصاحبه وتساءل:

ـ ما بك يا عمارة.

أجاب عمارة وهو يجاهد نفسه مانعا إياها من البكاء:

ـ أمي مريضة، ولا أملك المال لمعالجتها.

همس حمزة:

ـ استلف من الشيخ.

قال عمارة:

ـ مديون له بالكثير.

وجه حمزة ناظره إلى عقبة الشارد بجواره وقال:

ـ أريد نقودا يا شيخ.

وكما جرت العادة لم يجبه الشيخ واكتفى بنظرة متقززة فانتقل حمزة إلى طاولة عقبة وتبعه عمارة وأعاد طلبه، فقال عقبة:

ـ سدد ديونك الأول، أنت تشرب أكثر مما تحكي يا راوي.

أضاف حمزة:

ـ والدة عمارة مريضة ويجب أن نساعده.

على مضض قال عقبة:

ـ إذن ساعده ولا تطلب مني.

إذا كانت الحياة قد علمت عقبة العديد من العبر، فأفضلهم قيمة بالنسبه له هو «لكي تنجو في وكر الذئاب يجب أن تعيش ذئبا»، اغرورقت عينا عمارة بالدموع وعز عليه الطلب، وفرك عقبة الرقعة الجلدية السوداء التي تغطي جوف عينه المنقلعة وقال:

ـ تثاقلت ديونكم وأنتم بالكاد تعملان يومين في الأسبوع، حسنًا، إذا وافقتم على العمل كل ليلة سوف أقرضكم المال.

كغريق وجد نجده قال عمارة مندفعا:

ـ موافقون، اتفقنا يا شيخ.

«كل يوم، حقًا؟!، ذلك مستحيل» قال حمزة مستنكرا ثم هوى بيمناه على الطاولة الخوصية، فقام عقبة قاصدا الدلوف للمقهى وقال وهو يضع يده في جيب جلبابه البنى الشاحب:

ـ هذا شرطي.

ودلف بطن المقهى، وعندها انتصب حمزة واقفا فأمسك عمارة معصمه وتساءل:

ـ علام تنوي يا حمزة؟!

حك حمزة لحيته الشعثاء وأجاب:

ـ قصة يوميًا، أمامي عمل كبير، يجب أن أشرع في التأليف الآن يا صاحبي، تبا لأمك يا عمارة.

كان يجلس متربعا على مرتبته القطنية وعشرات الأوراق متناثرة حوله، يمسك واحدة يراجعها بسرعه عشوائية وينتقل لثانية يفعل معها المثل، شبه عارى يرتدي سروالا فقط، قضى الليل بطوله في الكتابة، أنهى خمس قصص، ارتأى أن ثلاث فقط هن الصالحات للحكي في المقهى، أكال كثير السباب للشيخ الجشع عقبة، حمزة كغيره كان يتساءل لماذا يهتم مثل ذلك الشيخ للإبداع ولكنه علم الجواب لما التحق بالعمل عنده،

عقبة لم يهتم أبدًا بالفنون ولا يهواها، إنما هو يهوى المال ويهتم بمطامعه الربحية فقط لا غير، والناس هنا متذوقي خيال!

من شروخ النافذة الخشبية انسلت شعيعات الشمس الأولى فأرقت خاطره ونسفت الشعرة الباقية من تركيزه، وضع أوراقه وريشته جانبا وشد الغطاء الرقيق على جسمه كلية وترك عقله للنوم.

وهو في حالة لا هي سبات ولا هي فوقان، جاءته دقات الباب عنيفة، فزع وهمّ بالقيام لتوبيخ الطارق المتطفل، ولكن يبدو أن الطارق في عجلة من أمره فلقد انكسر الباب ودلف المتطفل عنوة.

لم يسعفه الوقت لارتداء ملابسه ولا القيام من مكانه حتى، حمزة وجدهم يقفون فوق رأسه مثل غربان يتصيدون عصفورا، حوله خمسة من رجال الشرطة في لباسهم الأسود ويتقدمهم الكبير «معلول»، ومن هول الصدمة فقد النطق.

الغربان، هكذا يطلق العامة على رجال الشرطة في همهمات غير مسموعة طبعًا؛ اقترب معلول القصير القامة من حمزة حتى منعت بطنه المتدلية حمزة من رؤية وجهه، انحنى فظهر شاربه الرفيع الخفيف المشابه لشارب صبي بالكاد بلغ وزعق في رجاله:

ـ فتشوا الكوخ.

في ثوان انتشرت الغربان، اثنان يفتشان في الفناء وثالث يبحث في الحجرة المجاورة، والآخران ينقبان في كومة الكتب القابعة جوار المرتبة القطنية.

الأشعة المنسلة سطعت على صلعة كبير الشرطة فبانت كأنها بيضة فيل عملاقة ولا إراديا رفع إحدى يداه ومسح حبيبات العرق من على وجهه المفطر وديع الانحاءات وتسائل:

ـ ما علاقتك بالمهرب سنبل؟

أجاب حمزة الراقد:

ـ لا علاقة.

قال معلول:

ـ لقد اعترف عليك، يقول أنك دفعت له لأجل أشياء محرمة.

قال حمزة:

ـ لم يحدث.

بلهجة تهديد أضاف معلول وهو يدهس بضع كتب متناثرة كان قد انتهى رجاله من تمحيصها:

ـ أظنك تعلم عاقبتك لو ثبتت تلك الاتهامات.

انتشل حمزة الكتب المدهوسة ووضعها في حجره وقال:

ـ ما الغرض من هذه المسرحية؟!، الكل يعرف أن لديك جميع الصلاحيات للتعامل الغاشم مع الذئاب، إذا كنت تريد ذبحي، افعل وكفاك مراوغة.

قهقه معلول حتى غطى ماء ريقه وجه حمزة وقال:

ـ الذئاااااب!، أين تلك العاويات؟!

قال حمزة:

ـ أنا ذئب!

تجهم وجه معلول وسحب سيفه وأراح نصله على رقبة الراوي وقال:

ـ أنت جرو، وأنا لا أذبح الكلاب، والحقيقة أني لا أود ذبحك، المهرجون أمثالك يضفون المرح في الأجواء، نباحك طرب يا ولد.

لم يجد المنقبان في الكومة إلا كتب عادية مشروعة ولم يجد الثلاثة الآخرين إلا فأسًا في الغرفة الثانية الخاوية.

تساءل معلول وهو يعيد سيفه إلى غمده:

ـ ماذا يفعل الفأس هنا؟!

أجاب حمزة وقد إرتاح خلده:

ـ سيدي كبير القلعة يعرف أن والدي فلاح.

لف الغربان وجوههم وهموا عائدين وتمدد الراوي متنهدا، وألقى عليه الكبير نظرة أخيرة، وطالت النظرة فارتاب حمزة فابتسم معلول نصف ابتسامة وزعق في رجاله:

ـ أزيحوا المرتبة.

في الحال رفع الغربان المرتبة وانقلب حمزة وأعطوا كبيرهم ما وجدوه أسفل القطنية.

«كتاب جندري، إممم، هاتوا الجرو» قال معلول.

وتمتم حمزة، «تبا للفرج الدامع»

# 10

## صعود ياقوت...

بعد عقدين من استيطان القبائل في الأرض الجديدة والعمل على تعميرها وانشغال جندره وزوجها عظمويل بالبناء كل في جانبه يقود بطريقته، جاءت السفن من الشط الآخر للبحر الأزرق حاملة عروق مختلفة من الأغراب، لتنبهر أعينهم بالحضارة البازغة حديثًا، وتم توقيع العديد من الاتفاقيات التجارية مع الأغراب، وكان أبرزهم لوكام وسمندا، لم يرتح شيوخ القبائل للوكاميين الجامدين الذين يسعون وراء مصالحهم والخروج بأفضل المكاسب الممكنة من كل الصفقات، اللوكاميون كانوا جشع لا يبغون إلا المال والحبوب، وعلى النقيض تمامًا كان السماندة فهم ليني المعاملة لا يبدون أي مطامع، وربما يتنازلون عن بعض الحقوق لإرضاء شيوخ القبائل، وتقوت العلاقات معهم، وأكثر ما إمتاز به السماندة الألسنة المعسولة، فكان لحديثهم أثر يشبه التخدير كهديل كوبرا، ولا يؤمنون بالواحد الأحد ولكن لهم رب يدعى إله النجم يبالغون في تقديسه وتقديم القرابين له، على أي حال لم تعنِ معتقداتهم لشيوخ القبائل شيئًا وكذلك عظمويل وجندرة.

في إحدى الليالي رست إحدى السفن السمندية الرافعة رايات سماوية على شاطئنا وكان في استقبالها عظمويل، طال الانتظار ولم يهبط نفر من السفينة ولا صوت ارتفع فوق صوت السكون، قلق عظمويل وتخيل أن معتليها ربما أصابهم سقم ما في البحر، فصعد السفينة ممتطيا ذئبه العملاق، ولكن الأمر كان غير ما ظن الأول والأخير، السفينة السمندية فاحت منها رائحة الخيانة وظهر الوجه الغادر للوثنيين عابدي النجم لأول مرة، لم تكن سفينة تجارية وإنما كانت سفينة حربية وكانت تلك أول حربية تطأ شواطئ بلادنا وبالتأكيد لم تكن الأخيرة، لقى عظمويل حتفه تلك الليلة، يقال أنه حارب بضراوة ونال أطيب ميتة وأشرف، بمساعدة ذئبه وباستخدام سوطه تمكن من قتل حوالي مائة سمندي متسلح، هكذا تروي أغلب الأساطير وأقواها سندا.

ونتج عن ما سبق إنشاء أول جيش في البلاد لمقاومة المعتدي الآثم، جيش سمندا كان أكثر تنظيما وخبرة اكتسح الكل واحتل نصف أرض عظمويل في خلال خمس سنوات، وظن الجميع أن أرضنا قد ضاعت للأبد، وأنّ مسألة استيلاء سمندا على كل شبر في البلاد مسألة وقت لا أكثر، ولكن اختلف كل شيء وانقلبت الموازين عندما زأر الأسود وكشروا عن أنيابهم الذهبية الباطشة لأي معتدي بلا هوادة، في تلك الفترة آل قروم تلألأ صيتهم كعسكر مقتدرين لا يجاريهم أحدٌ في ساحات الوغى، انتزعوا النصر للقبائل واقتصوا لدم عظمويل ومنحوا جندرة انتقامها الخاص ووصموا السماندة بعار الهزيمة النكراء، تلك الحروب أهدت بلادنا قوم آل قروم البواسل، الأسود النبيلة حمت الأرض وحفظت العرض.

انتهت الحرب الأولى ضد النجم، جندرة لم تستطع تخطي مرارة فقدنا العظيم، في شبه عزلة أكملت حياتها ولم تعد تعر أي اهتمام لشئون البلاد، فدعت شيوخ القبائل لاجتماع ليتم تحديد نظام القيادة بعد موت الأول والأخير، وبعد العديد من الاقتراحات والتشاورات تم اتخاذ القرار، تكريما لتضحيات بني غول في مجابهة السماندة وتخليدا لذكراهم بعدما هلكت قبيلتهم في الحرب، ولم يبقَ منها أي نفر يتنفس، تقرر، سيطلق على حاكم أرض عظمويل لقب غول وكذلك حاكم أرض جندرة وذلك لصعوبة جمع فرد واحد إدارة جانبي الغاب، والغول لن يعرف باسم أو كنية، وتحت كل غول سيكون هناك مجلسا للحكماء يتكون من سبعة رجال ويضم الأكثر حكمة وعلمًا ويتم انتخابه عن طريق شيوخ القبائل أجمع، أما منصب الغول فيشغله شيخ كل قبيلة لمدة عشر أعوام فقط لا غير، وبذلك دخلت البلاد حقبة جديدة أكثر إشراقا ونهضة، حقبة الغيلان.

تحت حكم الغيلان ازدهرت الأمة وقوت شوكتها وسبقت العالم علما وحضارة، تسيد الغيلان الأرض وأخضعوا رقاب المارقين، الجزر الماريكية سلمت سلطتها للغيلان، وهناك وراء الأزرق يدفع السماندة الجزية راجين الرحمة والمغفرة عما أثمت أيديهم، ولوكام لم تعد جامدة ولا طامعة فلقد استكانت هي الأخرى لأسياد الأرض الجدد، لربعمائة سنة تقريبًا خضع العالم لغوليّ عظمويل وجندرة، كان العدل شعارهم والتطور منهجهم والكبرياء صفتهم، لا يهم ما الاسم ولا الكنية، المهم أن هناك غيلان تقود بعهد الأول والأخير وحكماء يدعمون خطاهم الرشيدة ويصوبون ذلاتهم الغير مقصودة.

أربع قرون انقضت ونحن أسياد العالم ومحرري الأراضين وناصري المظلومين، وبدأ القرن الخامس وبدأت الخلافات تطفوا على السطح مريرة، الغيلان لم يعودوا غيلان والحكماء أصبحوا منتفعي سلطة ومال!

تخلت الماريكية عن سلطة الغيلان، وكف السماندة عن دفع الجزية، وكذلك اللوكاميين، دبت النزاعات القبلية والعرقية بين القبائل التي تزعم أنها الأعلى شأنا من غيرها، والغول اللا معرف أضحى يحارب لأجل اسمه وكنيته وقبيلته، وهكذا شتت الفرقة الحمقاء شمل المتآخين على عهد عظمويل أول الاسم وآخره.

مع بداية العقدين الأخيرين للقرن الخامس السوداوي، أعلن غول جندرة الخائن أنه بصدد توقيع اتفاقية عودة علاقات مع سمندا، كان من المشاع أيامها أن سمندا تعافت وقررت استغلال حالة الوهن التي ألمت بنا وجهزت حملة عسكرية ضخمة للانقضاض على أراضينا وسلب خيراتنا، تحت مسمى «النجم مبحر لاسترجاع مقدساته»!.

ومن المعروف عن سكان غولية جندرة أن لا همّ لهم سوى ملئ بطونهم ومضاجعة إناثهم، فهم رعاة أغنام ومزارعون لا يفقهون شيئًا عن الحروب والتضحيات، فبينما كان الشمال حيث غولية عظمويل يدفع أبناؤه أرواحهم في الحروب، اقتصر دور الجنادرة على مدهم بالطعام فقط لا غير، ولذلك فضلوا الركوع للنجم ودفع الضرائب له وشتان الفارق بين جنوب الغابة وشمالها.

وتعقيبا على نوايا غول جندرة الخانع قال غول عظمويل في ذاك التوقيت ياقوت من آل قروم عبارته العظيمة الخالدة «اللعنة على الجنادرة بائعي الدم وناقضي العهد، والمجد لعظمويل الأول والأخير»، وكانت تلك هي الشرارة الأولى لحرب الاستقلال التي استمرت لأربع أعوام والتي

حسمها ياقوت برمحه في معركة الغابة وسمي ذلك العام بعام الاستقلال ومن بعده بدأ التقويم في بلادنا بنظامه الجديد.

اجتمع شيوخ قبائل عظمويل في العام الثالث من الاستقلال، لما انتهت غولية ياقوت المستقل، واتفقوا على إعلان السلطنة القرومية، فلم يجدوا أفضل من الأسود الذهبية أحدا ليقودهم وامتثل ياقوت لرغبة الشعب وأصبح أول سلاطين آل قروم، واعترض على ذلك القرار قبيلة بني صقر وساندها في ذلك قبيلتي بني ذئب وبني مراس، شيخ الصقور كان عليه الدور في تقلد الغولية ولكن عصر الغيلان انقضى وولى فالإرادة الشعبية تبغي الأسود ولا غير؛ القبائل أجمع تصدوا للثلاثة المرتدين وتم تنفيذ الجزاء المناسب المقر من قبل الشعب في حق الصقور والمراسي والذئاب، كل على قدر خطيئته، وبدأت الحقبة الذهبية لبلادنا المحروسة عظمويل.

مرارًا وتكرارًا حاول الجنادرة الاستحواذ على خيراتنا والعبث في مقداراتنا، ولكن الأسود تصدوا لهم بشراسة دومًا وألحقوا بهم هزائم عديدة لا تحصى ولعل آخرها ما حدث في التمرد من أحداث سوداء، وكذلك كثيرًا ما أعلن السماندة الغزو على بلادنا وأعدوا العديد من الحملات في سبيل تمزيقنا وكثيرًا ما تصدت لهم فرقة البحرية العظمويلية «الزرقاء» المرابضة في جزيرة القرش إلى يومنا هذا، ولعل أشرسهم وأدماهم وأخرهم تلك «الحرب الدامية».

أغلق جورشبيل كتاب تاريخ عظمويل وغمغم «ترعرت في سمندا على اعتبار أن هذه الأرض من مقدساتنا المنهوبة، وأن قافلة الجوالة ما هم إلا محتلين معتدين، وهنا يحكون العكس، سحقًا للتاريخ»!.

# 11

آســـر...

تكبدت الشمس السماء وتوهجت حرارتها منذرة بقرب انتهاء الربيع وإيشاك الصيف على البزوغ، وكان هو يسير متوجها للمقهى وعبارات تقدير المارين تطارده وبأكثر تقدير كان يردها إلى أربابها، متواضع هو ودمث الخلق والخصال، ملتزم بمبادئ راسخة لا يتعداها، هكذا يراه معاشروه.

نشأ يتيمًا وشب على مقت الجنادرة، خائني دم عظمويل وبائعي دم المدافعين عن الأرض والعرض، أهدروا دم والده الفارس «جواد الحق»، وحرموه أمان الأبوة وحرموا والدته دفء الزوج وانتزعوا حنان الأب من شقيقته.

في عمر الثامنة عشر التحق بالجيش وبالأخص فرسان الرديف بعدما تخطي الاختبارات الأولية والتي لم تكن عسيرة بالنسبة لفتى صلب اشتد عوده في الجنوب القحط، وأيضًا ما سهل من انضمامه للرديف هو مولده لفارس سابق وشهيد محتسب.

فرسان الرديف هم شباب الفرسان ووقود الجيوش، فبعد ثلاث سنوات من التدريب المكثف أصبح فارسًا مؤهلًا يمكنه الانضمام لفرقة وذلك طبعا يتطلب مجهودًا مضنيًا، لأن لو لم يقع الاختيار على المؤهل للانضمام لفرقة فإنه يظل رديفا حد الثلاثين، فلو تخطاها ولم يكتسِ فضي الفرق؛ يُطرد من الجيش وكأنه لم يمسك سيفا على الإطلاق، ولحسن حظ آسر فلقد ارتقى مؤخرا والتحق بفرقة الجبل المستحدثة، وعلى الرغم من أنها لا تعد من الفرق العليا في الجيش فيبقى أمرا جيدا أنه اكتسى الفضي قبل إتمام عقده الثالث بنصف عقد، فبهذا سيعيش فارسًا وسيموت فارسًا إلا لو حدثت في الأمور أمور!

فرقتان هما أكثر ما يتمنى أي فارس وما دونهم سراب بالمقارنة بهم، الأولى هي «الزرقاء» التي تمثل البحرية العظمويلية، عريقة، التواريخ شاهدة على ماضيها الجسور وتفانيها منقطع النظير، تقطن جزيرة القرش وتدافع عن حدود عظمويل البحرية والمادية، الزرقاء فقدت الكثير من وهجها الماضي ولكنها لم تفقد كينونتها التاريخية وأهميتها الجغرافية، ويكفي أن الليث «نائل القرومي»، القائد الأعظم لجيوش عظمويل الجرارة يقودها بنفسه في مناوشاتها اللا متناهية مع قراصنة المالح.

الثانية هي فرقة حراس السلطان، البرونزيون يمثلون الحاضر والمستقبل، كانت حراس السلطان فرقة عادية واحدة من تسع يتدرعون الفضي ويخضع قائدها مباشرة لإشراف القائد الأعظم ولكن دورها في ضحض التمرد جعل الراحل أشبوب يشرفها باتشاح برونزي المستقل، ويُرقي قائدها الأفعى «صخر السردي» لمنصب الحارس الأعظم، ويعفيه من الخضوع للقائد الأعظم وزاد على ذلك ومنحه مقعدا في مجلسه، وهذه الفرقة تتمركز العرين الذهبي وأشاوسها يخدمون في بلاط قصر آل قروم.

يمكنك استشفاف أن حلم أي فارس هو الخدمة تحت لواء أسطورتي عظمويل، فهما معدودين من أعظم عشر محاربين في العالم وأشرسهم على الإطلاق، الليث والأفعى هم أقصى شرف يطمح إليه فارس، ولكن آسر يطمح لأن يصنع أسطورته الخاصة، ربما يتغنى العالم ببطولات الجواد الجامح يومًا.

آسر يحظى بتقدير بالغ من أهل «وكر الذئب»، ليس فقط لأنه فارس ولكن لأنه لم يرحل عن المدينة كما فعل الفضيون أشباهه.

نادرًا ما يلتحق أبناء الجنوب بالجيش، فالإقليم ليس حسن التاريخ ولا الجغرافية ولا الموارد، القادة يتمتمون دائمًا أن شيطان التمرد ساكن الجنوب، لم ينصفوا ياقوت قديمًا وثاروا على آل قروم كثيرًا، حتى أنهم أيدوا تمرد «السالم كارم بن عديل الحوراني»، على أي حال الجنوب لم يعد بتلك الخطورة، فالسلطان» راكان الثاني «أهلك الذئاب وأخصاهم؛ ولكن ليس ذلك هو السبب الوحيد في نفور السلطة من الجنوب، فالجبال تخنق الإقليم من كل الاتجاهات وتعزله عن بقية عظمويل، والأرض بخيلة قليلة الحصاد وجوفها فارغ لا خير يرجى منه، وكثيرًا ما ثرثر المتعصبون لمبدأ التنقية أن الجنوب سرطان يجب استئصاله، إنه يضر البلاد أكثر مما ينفعها!

«السماء فوق والأرض تحت، المالح في البحر والعذب في النهر والرمح الذهبي شامخ أبد الدهر». دندن آسر واحتسى أخر رشفة من كوب النعناع.

عمارة متعجب، آسر يغني وهو قلق، ووجهه متجهم وقلبه مقبوض على صاحبه السجين، متوجس، قاطع دندنات آسر، وقال:

ـ الشيخ النجس رأى الغربان وهم في طريقهم لحمزة ومنع صبيه من تحذيره.

قال آسر:

ـ لا أتوقع غير ذلك من عقبة.

قال عمارة وساقه تهتز توترا:

ـ يجب أن تتوسط لحمزة، فقضيته يسيرة، ولن ندع معلول يذبحه، أليس كذلك؟

بعدم اكتراث قال آسر:

ـ لن أتوسط للراوي.

مشيحا ببيسراه في عدم تصديق قال عمارة:

ـ كلا، كلا، كلا، لم أعهدك نذلا قط ياصديقي.

إبتسم آسر وأومأ برأسه للقادم من آخر الشارع، فانفرجت أسارير عمارة وقفز من مكانه فرحًا وأردف آسر:

ـ لأني توسطت له مسبقًا!

وأقبل حمزة متسخًا، غائم الأعين، عفن الرائحة، مختالا في مشيته حافيا!

آسر ليس كأمثاله، لم يترك «وكر الذئب»، ويرتحل للشمال حيث الوسط بمروجه النضرة وأرضه المكتنزة بالثروات والحياة المترفة، أو العاصمة حيث العرين والقرب من مركز الأحداث وتسلق أرفع المراتب، هو يريد أن يكون فعالا هنا، يرتقي بالجنوب ويحسن سمعته المشوهة، ويساهم في صنع مستقبل أفضل لأبنائه.

أكثر ما يؤلم آسر ويزعجه هو عتاب أعيان الجنوب المتكرر له، فكيف لفارس أن يرافق مهرجين، هنا يعتبر علية القوم أن الراوي والعازف ما هما سوى مهرجين بهلولين، وآسر لا يراهم كذلك، إنما يرى فيهم طفولته وصباه ولحظات الألم والسعادة إنهم النشوة والدموع، هم رجال مخلصون غير متملقون، هو يراهم مبدعين، نغم عمارة البسيط أعذب ألف مرة من عزف مبهرجي الشمال المرفهين، وحمزة بعيدا عن كونه راوي ماهر وبعيدا عن عقله الراشد المتستر تحت قناع من الهزلية، فكيف لأُناس يسكنون مدينة سميت تيمنًا بقبيلته أن يحتكرونه ويدعونه بالمهرطق والماجن؟!،

ذكرياته هنا وماضيه هنا ويبتغى بناء مستقبله على أساسات الماضي لا فوق ركامه، رحلات الصيد في البراري، وليالي السمر المرحة، لا يمكنه نسيان كل ذلك ولا يمكنه أن يتركه ويرحل للوسط حيث مقرات الجيش ومعسكراته؛ الجدير بالذكر أن جيش عظمويل ينقسم إلى تسع فرق ويضم حوالي سبعين ألف من الفرسان بخلاف الجنود، الفرقة الزرقاء تتمركز جزيرة القرش الجدباء وتحوي عشرين ألفًا من الفرسان وكذلك حراس السلطان متمركزي العرين الذهبي، وهناك عشرون ألفًا يتمركزون إقليم الوسط ويشكلون سبع فرق تتفاوت أعدادها بتفاوت أهميتها، وآخر عشرة يكونون الرديف وطبقا للمواثيق فإنه من المفترض تمركز الرديف في الجنوب ولكن ذلك لا يحدث فهم يفضلون الوسط، ولن يعيب أحد على آسر إذا انتقل للإقليم الأخضر.

بسخرية قال آسر:

- يجب عليك الزواج يا حمزة.

قال حمزة:

ـ تزوج أنت الأول.

قهقه آسر وبنبرة عالية تعمد أن تكون مسموعة قال:

ـ لست أنا من أحتفظ بكتاب «الفرج الدامع» تحت وسادتي.

وانفجرت القهقهات تهز أرجاء المقهى، والنظرات التهكمية هطلت على حمزة، حتى أن الشيخ عقبة نادر الابتسام خانه ثغره وضحك وقال:

ـ اللعنة عليكم.

«السماء فوق، والأرض تحت، والمالح في البحر والعذب في النهر والرمح الذهبي شامخ أبد الدهر»، دندن آسر، فتسائل عمارة:

ـ ما هذا؟

أجاب آسر:

ـ هذه أغنية «حراس السلطان»، يرتلونها كل صباح، يقولون أنها ترسخ الولاء في العقول.

تمتم حمزة وهو يلقم غليونه:

ـ لا، إنها تلغي العقول وتجعل ولائك كلابي بلا تفكير أو تشكيك.

مالت الشمس عن كبد السماء ولم تمِل حرارتها، مسح حمزة حبيبات العرق الناضحة من جبينه وقال:

ـ أفكر في السفر شمالا من أجل فرصة أفضل.

قال آسر:

ـ برغم أن هذا ضد قناعاتي ولكني أنصحك بذلك، فأنت تستحق منزلة أعلى، ما رأيك أنت ترافقه ياعمارة؟

قال عمارة:

- لن أدع أمي بمفردها، هي تحتاجني الآن أكثر من أي وقت مضى.

نظر آسر لأعلى صوب الشمس المتوهجة وهمهم:

- انتهى الربيع وانتهت عطلتي.

# 12

## صلحان...

الستائر المزركشة المذهبة بدت حزينة، ولا صوت يعلو فوق صوت الرياح العاتية في الخارج، الليلة ظلماء موحشة، والسبع العجوز أهلكه السقم ويرقد في فراشه متألما، يأبى احتساء حليب الخشخاش وباءت جميع محاولات الطبيب بالفشل، الغرفة السلطانية مليئة بالهرج والمرج، أنبل النبلاء يبغون الاطمئنان على صحة السبع المريض ولا أمل للشفاء يلوح على الوجوه المكفهرة، بدور تقاوم رغبة البكاء الملحة، وعارف يبث الأمل في قلوب الزائرين بدعباته، وصلحان شريد يراقب المنظر بأعين ضبابية.

انتهى الربيع بتقلباته وحل الصيف نضرت أوراق الشجر وتزهزهت حقول الوسط، ونضر عشق جنان في فؤاده واستفحل وتمكن؛ ذاك اليوم لم يستطع تجنب نظرات الخيبة التي أغمرته بها عندما حدثها عن رفض والده لعلاقتهم وبرغم التلاعب بالسجلات لم ينصاع ملكان لهرتلات عشق ولي عهده وعزم على تزويجه بأخرى قرومية ووقع الإختيار على

ابنة أخت السلطانة بدور؛ ذاك اليوم ظنت جنان أن تلك هي نهاية القصة، ولكن قلب صلحان أبى الفراق، لم يعلم كيف ستسدل الستائر على هذه الحكاية ولكنه لم يرضخ لنداءات الاستسلام؛ وهكذا استمرت علاقة الحبيبان في المضي قدما وتعددت اللقاءات المختلسة على ضفاف النهر.

مع انتصاف الصيف اتسعت الفجوة بين صلحان والسلطان لما رفض الانصياع لفرمان الزواج المدبر بقريبته، وزادت المتاعب عندما تقدم صياد شاب يدعى راشد للزواج بمحبوبته، الأمر الذي لاقى ترحيبًا كبيرًا من عبدون عم جنان، وعن طريق خادمه الخاص جورشبيل حاول صلحان إثناء راشد بعديد المغريات مالا كان أو ذهبا، ولكن الصياد تمادى في حمقه ولم يتراجع، فما كان من صلحان إلا إصدار أمره للأصهب، وبمنتهى البراعة أتم جورشبيل الأمر وأوقف تلك الزيجة للأبد، بحرفية غير معهودة بخادم، جورشبيل الأصهب قتل راشد وأخفى جثته ولم يترك أي أثر وراءه!

بعد ذلك حكى جورشبيل له أنه لم يعد يستطيع النوم وأن وجه الصياد يطارده في أوقات اليقظة وفي خطفات النوم العابرة، وتوسله أن لا يجبره على شيء مماثل مستقبلًا، فوعده صلحان بما أراد، وعاهد نفسه أن لا يلجأ لتلك الدرب ثانية في إزاحة خصومه، وعزّاه قليلًا أن راشد كان ذا سيرة سيئة.

أواخر الصيف أحدثت السيدة منجية، سيدة الخدم، حركة إعادة تسكين ومن المؤكد أن صلحان تمسك بخادمه البار جورشبيل، وحينها أتاه السؤال الذي تأخر كثيرًا من الأصهب:

ـ لماذا أنا؟!!

فأجابه صلحان بإقتضاب:

ـ أنت أرقت الدماء لأجلي!

ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد في توطيد علاقة الأمير بخادمه، فصلحان لم يجد جورشبيل عبدا تقليديا ولكنه وجده سليل أسرة مرموقة في سمندا، وتقلبات الدهر ومصائبه هي من رمت به على شواطئ عظمويل، وكذلك فطن على قدر كبير من العلم ورجاحة العقل، بالإضافة إلى أن كون صلحان أمير يقتضي عليه مصادقة أمراء آل قروم وأبناء الأشراف وعلية القوم والذين لن يتوانى أحدهم عن فضح سره مع جنان بغية نفوذ أو ذهب أو ابتزاز أو على سبيل السخرية حتى، فصلحان لم يتعمق مع أي رفيق قبلا.

جورشبيل سمندي!، سمندي ما أفظع ذلك اتهامًا وعارًا، هذا يعني أنه متملق وثني ثعبان خائن لا أمان له، ربما لو أنه حضر إلى هنا قبل عشرين عاما، أي قبل توقيع الاتفاقية الشهيرة وبداية مرحلة السلام لأحرقه الناس، ولكن صلحان لم يكن من تلك النوعية التي تحكم على البشر حسب عرقهم وطينتهم، فهو يؤمن أن كل أرض فيها الطيب والخبيث، وإن كان الشائع عن سمندا الشر والسوء، فهو يعتقد أن جورشبيل ليس شريرًا أو سيئًا، الأصهب ماكر ذو دهاء ولكنه ليس غدارًا أو خائنًا، إنه وفي مخلص وأثبت ذلك في مواقف عديدة.

ولى الصيف وحل الخريف، اصفرت الغابة الفاصلة عظمويل عن جندرة وشحبت أغصان الأشجار وتساقطت أوراقها، والتحمت روحه بروح جنان، جسدان بروح واحدة أضحوا، لم يعد التواصل بالألسنة له أهمية، فتواصل القلوب والأعين أسمى، الهمزات واللمزات كافية ليفهم

كل منهما الأخر، بنظرة يعلم ما يبطن لبها، وبلا شيء تستشعر تقلبات الصراع الدائر في غياهب نفسه، هكذا هم الهائمون في دنيا الهوى عندما تلتحم أرواحهم فتنغم أنشودة شجن لا نشاز فيها.

وفي بدايات الأسبوع الثالث من الخريف، استعار جورشبيل كتاب آخر حمل عنوان «نبوءات سيلينا»، وسيلينا هي عرافة مشعوذة خطت ذلك الكتاب قبل مائة عام تقريبًا، وأحرقها السلطان «صلحان الثاني» وقتها، جراء ممارستها الشعوذة والسحر الأسود وحرم ذلك الكتاب ومنعه، لا يذكر صلحان كيف وجدت تلك النسخة دربها لمكتبته، فنادرًا ما شوهدت نسخة من ذلك الكتاب في هذا العصر وربما تلك هي النسخة الوحيدة المتبقية من «نبوءات سيلينا»، عامة جورشبيل أخبره أنه إطلع على بضع صفحات من الكتاب الأقرب لمخطوطة سحيقة مهترئة ولم يفهم منه كلمة واحدة، ولكنه لم يرجعه للمكتبة وكذلك لم يعد كتاب تاريخ عظمويل، يقول أنه لم ينتهي منه بعد، ولم يدقق صلحان في ذلك.

مع خاتمة الخريف استفتح صلحان عامه الثالث والثلاثون ولم يكن هناك احتفال رسمي بإتمامه الثانية والثلاثين، وبسرية وفي حفل بسيط لم يضم سوى محبوبته وخادمه احتفل بعيد ميلاده، وكان ذلك الحفل أَقيَم ألف مرة من كل ما فات من احتفالات مبهرجة في القاعة الذهبية.

وهكذا انقضت أيام الخريف هادئة وجاء الشتاء وغامت السماء وخفتت الشمس وتهاوت حرارتها وذهب توهجها، جاء الشتاء ولم يكن هذا العام شديد الصقيع كسابقه، ولكنه كان عاصفًا على العرين الذهبي، فلقد أصيب جسد السلطان بعلة احتار الأطباء في مداواتها، وسقط السبع العجوز طريح فراش المرض.

مرض والده أزال بعض الحواجز التي نشأت في الأشهر الماضية، عادا ليتبادلا أطراف الحديث بكلمات مقتضبة، حزن صلحان لما ألمّ بأباه واستدعى أفضل أطباء البلاد والبلاد المجاورة ولكن لا تحسن لاح في طيات الليالي الباردة، طالت الليالي وحلكت ظلمتها وحالة السلطان تدهور يوما بعد يوم والشعب يترقب.

ما زالت رياح الخارج عاتية وما زالت الستائر المزركشة المذهبة حزينة، وفشل الطبيب في إقناع السبع الصريع باحتساء حليب الخشخاش، وبنظرة من ملكان فهم عارف، وأخلى الغرفة من الزائرين والأطباء، ولكن ملكان طلب من زوجته والقاضي مغادرة الغرفة أيضًا وبإشارة استوقف صلحان ضبابي الأعين.

بتثاقل اقترب صلحان من مخدع والده، فهذه أول مرة يجمعهم حديث منفرد منذ زمن، وجلس بجوار والده على طرف السرير، حاول ملكان الاعتدال قاعدًا ولم يقدر؛ فأخذ ولي عهده بيده، وأسنده ظهر السرير، كان صلحان يتجنب النظر في أعين السلطان وأخذ يجول بعينيه بين الستائر الحزينة ورهبة تعتريه.

تشنجت حنجرة ملكان وكسر حدة الصمت وبصوت متحشرج تساءل:

ـ يا ترى، موتي سيؤلم ولدي أم سيسعد ولي عهدي؟!

مندهشا متألما رد صلحان:

ـ ماذا تقول يا أبي، هل تظن في ذلك حقًا؟!

قاطعه ملكان وأردف:

- أظن أن موتي سيسهل عليك الزواج من تلك الفتاه التي خسرتني لأجلها.

قال صلحان:

- أقسم يا أبي أني لم أفكر في ذلك مسبقًا، وأقسم أني لم أقصد إيصالك لهذه الدرجة من التشكيك في حبي لك.

لوهلة صمت وبصوت مبحوح أكمل:

- لا أرى زوجة لي غير جنان.

جسد ملكان نحف ووهن وضاعت وسامة وجهه الشحيحة، أمسى هيكلا عظميا يكتسي جلدا مجعدا، سعل مرتين وقال:

- يا ولدي أنا لست من أولئك الذين يأخذون بظواهر الأمور ويتغاضون عن بواطنها، أنا لا أعيب على تلك الفتاة في شيء، ولن أحكم عليها بناءً على ماضي لا تعيه، أريدك أن تتذكر يا بني أن بينك وبينها دم، لا تنطق، أعرف أنك تلاعبت بالسجلات وأعرف أنك ما زلت تقابلها، ويجب عليك أن تعرف أن جدك هو من أعطى أمر إعدام أمها، أخاف أن ينهض شبح الانتقام الراقد تحت ركام الأزمان، تذكر، الدم لا يموت يا ولدي.

تلاقت أعين صلحان بوالده ومندفعا قال:

- كلا يا أبي جنان ليست كذلك، أقسم، هي تعلم أن ما حدث قد حدث وانتهى.

كان هناك كلام كثير في صدر ملكان ليفيض به ولكنه فكر أن لا شيء مما سيقول سيغير في الأمر شيئا، فغشاوة الهوى أعمت بصيرة الفتى، فقرر أن يخوض في الأهم فلقد تعب من الكلام، نهاية قال:

- اسمع يا ولدي، إن منّ الرب عليَّ بمزيد من الوقت، ففي اليوم الثاني عشر من الربيع القادم ستتزوج في حفل زفاف رسمي، وأيا كانت العروس التي تختارها سواء ابنة خالتك الحاملة لدمنا أو تلك التي بينها وبينك دم فأنا سأبارك ذاك الرباط.

# 13

## معيوف...

«نحن حافظو التاج، نحن حماة العرش، نحن حراس السلطان، نقسم برب السماء أن نحافظ على رمح المستقل، ياقوت» أول الاسم»، شامخًا، وأن نحفظ عهد عظمويل، «أول الاسم وآخره» بدمنا و أن نفدي السلطان ملكان، «ثاني الاسم»، بأرواحنا

وقف «السندالي» أمام المرآة يتأمل دروعه البرونزية، وأمسك موس الحلاقة وبدأ في إزالة بضع شعيرات طالت عن المألوف في رأسه الغامق، وشذب لحيته الخفيفة التي اختلط شيبها بشبابها، كان يستعد للزفاف الميمون.

معيوف السندالي نال الشرف العسكري الأعظم في البلاد قبل ثلاثة أعوام حين انضم لفرقة حراس السلطان، تلك الفرقة التي ولدت عظمتها من رحم التمرد، حينما رفض الجيش التدخل واختار نائل القرومي الحياد! أوانها انقسم الجيش ولم يحمِ العرش إلا رجال «صخر السردي»، فلولاهم

لركعت عظمويل لجندرة، إنه يعتقد في قرارة نفسه أن الأفعى هو أقوى ثان رأس في البلاد وأحق، على الرغم من أن ميثاق الرجال يصنفه سابع.

«حذاءك يا أبي»، قالت صفية.

احتضن معيوف ابنته الصغرى وبشفتيه الغليظتين وضع قبلة أعلى جبينها، وأخذ منها حذاءه الجلدي طويل الرقبة وجلس على طرف السرير المعطر وشرع في ارتدائه.

بصوتها الناعم قالت صفية:

ـ خذني معك.

قال معيوف بنرة حانية لا تليق بمن مثله:

ـ للأسف يا صغيرتي، القواعد تمنعنا، يا ليت يحق لنا ذلك.

أنت صفية بدلال وتساءلت:

ـ هل ما تقوله صديقتي زهرة صحيح؟

فتساءل معيوف وقد فرغ من حذائه:

ـ وماذا قالت زهرة؟

انطلقت الكلمات مهرولة من حلق صفية:

ـ تقول أنك قتلت مائة شخص حتى يتثنى لك الالتحاق بحراس السلطان، ولكني نهرتها وقلت لها أبي لم يقتل أحدًا، أبي يحمي السلطان.

توقف معيوف واتجه ناحية رمحه المعلق على خطافين مدقوقين في الجدار البرتقالي، وأمسكه ونظر له مليا وغمغم:

ـ بل ثلاثمائة، ثلاثمائة محارب.

هناك دربان فقط ينهلهم الفارس لكي يحظى بشرف البرونزي.

الأول، الحصول على الختم السلطاني وينضم مباشرة للفرقة، بالطبع بعد النجاة من المعسكر الإعدادي القاسي.

والثاني، أن يتمكن من قتل ثلاثمائة محارب من العدو، وهذا ما فعله السندالي قبل خمسة أعوام.

في الأصل ولد معيوف لقروي، فلاح، يسكن الجانب الشرقي للنهر، ولهذا لم يأمل قط أن يحصل على ختم السلطان، إنما سعى للثانية، وبالتأكيد لم تكن أيسر عليه من الأولى، لأن عظمويل لم تخض حربا تذكر في العقدين الأخيرين، ولكن جاءته الفرصة مواتية لما التحق بالفرقة الزرقاء حيث المعارك ضد القراصنة اللا منتهية في البحر، وفي أقل من أربع سنوات نجح معيوف في قتل ستمائة قرصانا، وحسب مواثيق عظمويل فالقرصان ليس سوى نصف محارب عدو، وهكذا رنا كثيرًا من اتشاح البرونزي فلم يعد أمامه غير تخطي المعسكر القاسي، الاختبار الأخير.

المعسكر الإعدادي هو فكرة ابتدعها صخر الأفعى ليحتال بها على بند الختم السلطاني فهو يريد أقوى الفرسان في فرقته لا مُرفهي الأشراف.

خضع معيوف لفترة الإعداد والتي كانت عبارة عن قضاء فصل شتوي كامل في المنطقة الجبلية الفاصلة جنوب البلاد عن بقيتها، وهكذا قضى شتاءً كاملًا في العراء برفقة تسعة وتسعون رجلا وصلوا لذلك المكان بفضل الختم السلطاني وكان هو الوحيد الذي وصله بدرب الدم، هو الوحيد الذي حارب أهوال الأزرق ليصل هناك، لأنه ولد لقروي، فلاح، يقطن الجانب الشرقي من الأخضر.

ولكن ليالي الشتاء الحالكة أظهرت معادن الرجال وألمعتها، فالمعكسر بلا مباني ولا خيام، إنه في الخلاء، التحصن في الكهوف والغذاء صيد، والصعاليك متربصون، والضواري لا ترحم؛ أقسم السندالي لزوجته ذات يوم، أنه في إحدى الليالي لم يجد ما يصطاده من المحللات وعندما اشتد عليه جوعه، إضطر لاصطياد ضبع بالغ وسلخه وأكله، ولم تكن تلك المرة هي الأخيرة له مع الضباع والثعالب والثعابين.

ولما انتهى ذاك الشتاء الحالك، أحصى القائد الإعدادي رجاله، فلم يجد غير ستة فقط، أما الباقين فمنهم من هلك ومنهم من هرب، وكان جزاء الهاربين، التجريد من الدروع أبدا، والإحالة لمحاكمة عسكرية فورًا، وهكذا حقق معيوف غايته المنشودة واتّشح البرونزي وزيادة على ذلك، وفي فترة وجيزة وبفضل تفانيه تم تصنيفه من الأشاوس المكلفين بحراسة قصر الأسود، وأكثر ما يتفاخر به معيوف هو أنه من القلائل الذين ابتسمت لهم الحياة، وخدموا تحت إمرة الأعظمان، أقوى فارسان في البلاد، الليث والأفعى.

بتؤدة تمختر الجواد الحربي الضخم، وطرقعات حدواته الأشبه بأنغام دف، جعلت العامة المفترشون ساحة ياقوت ينتبهون إلى راكبه السندالي، وأهالوا عليه الكثير من عبارات الإطراء والثناء، وما كان من معيوف إلا توزيع الإيماءات بمقادير كما تدرب.

تهادت أشعة صبح الربيع المسالمة على دروعه فأبرقتها، فبدى كليث لا يرد له حكم، على الرغم من أنه لم يفكر أن يصدر أمرا قبل، فقسمه لا يمنحه تلك الهبة.

تداخلت على مسامعه أصوات عديدة هناك على المنابر الخطباء يدعون بشفاء السلطان وحفظ ولي عهده ومباركة الزواج الميمون، وهنا ارتص العامة في حلقات يشاهدون الألعاب، صليل السيوف والرماح الخشبية التي يتبارز بها شباب العامة وفرسان الهواة جاءه هزليا، وبالجوار شاعر له صوت بشع يلقي قصيدة متهلهلة القوافي، ها هو يعظم فيها ملكان ويبجل صلحان ويشكر آل سرد ولكن هناك اسم أضيف مؤخرًا على المتهلهلة، اسم غير مألوف، دخيل على القافية، اسم الحسناء جنان.

لكز الفرس الألقط فانطلق باغيا البوابة الحديدية تاركًا خلفه العامة منتظرين اللحم والعطايا كخراف تنشد مولاها العلف.

بمجرد عبوره البوابة انعطف يمينا ناحية الإصطبل وسلم جواده إلى عامل الإصطبل الأربيعني الأسود ولمح السيدة منجية سيدة الخدم تقف مع غريب في الاتجاه الآخر فظن أنه مورد خدم جديد، فلقد انقضى الشتاء والسيد ميمون لم يحضر، يبدو أن تاجر العبيد ميمون قد اكتفى نقودا وشبع، مع أنه لم يبدو كرجل قد يرضى يومًا.

كانت الباحة الخارجية للقصر مليئة بالطبقة الأقل شرفا من الأشراف، وكان الخدم لا يتوانون عن إطعامهم وإرضائهم بكل ما لذ وطاب، كلمات الغزل الفجة من شباب الأشراف المقذوفة ناحية حسنوات الخدم، أثارت غضب السندالي وضايقته، فكر في إيقافهم ولكنه لا يملك أمرا بتأديب عابثي الأشراف، فكظم غيظه وهم بالتوجه للقصر لمباشرة عمله، وعندما أبصر من يقف على بعد أمتار منه غير رأيه، إنه الشاب الأصهب الذي كان هو أول من قابله لما أحضره السيد ميمون هنا قبل ما يقارب العام وربع حيث الشتاء قبل الماضي.

وقف جورشبيل أمام أبواب حديدية صدئة لحجرة يتيمة، لا تلائم روعة محيط القصر الفاره، حجرة لا تزيد مساحتها عن ثلاثين متر، مكتئبة، مبنية بحجارة جبلية سوداء، أردأ من أن تكون جزءا من هذا الصرح العظيم.

«مجلس الرمح» قالها معيوف فالتفت إليه جورشبيل، ثم أردف:

ـ شيده المستقل ليكون مجلسا للحرب.

«أعلم» قال جورشبيل وأشار للمتاريس الصدئة المتعاشقة وأكمل:

ـ لم أرها تفتح من قبل.

قال معيوف:

ـ لا يفتح إلا أوقات الحرب، هنا فقط يحق للسلطان إعلان الغزو، لم يفتح لعقود ولن يفتح لعقود، أظن.

قضب جورشبيل حاجبيه الكثين وتساءل:

ـ هل رمح ياقوت محفوظ بالداخل.

أجاب معيوف:

ـ يقولون.

ثانية تساءل جورشبيل:

ـ لما مجلس الرمح أبخس من بقية القصر؟!

قال معيوف:

ـ أعمال البناء في القصر لم تبدأ إلا بعد اغتيال المستقل بمائة عام.

وقبل أن يزيد جورشبيل أضاف معيوف وهو يشير إلى الإصطبل المجاور:

ـ ذلك كان قصر ياقوت.

وتعلق نظره بالبوابة الحديدية، فهناك حالة غير طبيعية من الهرج والمرج، هودج يوقفه زملائه البرونزيون، أمعن معيوف مستقل الهودج وأيقن من تكون، ومندهشا تهامس:

ـ الأميرة رومان؟!

وهمس جورشبيل:

ـ ماذا! سحقًا.

## الزفاف...

امتزجت أنغم القيثارة ومزامير العازفين بقهقهات الحضور وغمغماتهم، فكونوا معزوفة شاذة المعالم، السلطان جالس أعلى عرشه الذهبي والإعياء يبدو عليه، وواضحا للجميع، كانت هذه هي المرة الأولى التي يسبق فيها المدعوين للقاعة. أمعن «ملكان» النظر فوجد أن بعض الأمراء من أبناء عمومته لم يحضروا، وآخرين بعثوا بأعذار واهية، عرف أن أمر تقبلهم الريفية «جنان» سيأخذ وقتا وتمنى أن لا يؤثر ذلك على سلطنة ولده القريبة.

أسفل العرش جلس شيخ الصالحين «أمين القيرواني» المرتدي زيه الرسمي والذي اقتصر على جلباب أبيض وعمامة منسابة على كتفيه، وتيمَّنه صلحان في أبهى حلهةله، فالثوب الذهبي أضفى لمحياه الأسدي بريقا خلابا، وعلى الشمال كانت جنان في فستانها الأبيض المرصع بأثمن الجواهر، سعيدة، مبتسمة، متوهجة كأنها البدر في اكتماله المنير.

وهناك في آخر القاعة قعدت الأميرة رومان، وحيدة، تلاحقها نظرات التعجب المستهجنة، وهمهمات أمراء آل قروم، شعرت أنها ليست مرحبًا بها، والغريب أنها لم تكن تتوقع أن يأذن السلطان ملكان لها بدخول القصر أصلًا، ولكن الرجل لم يود تعكير الأجواء أكثر، ورومان تعتبر أن الأجواء معكرة حد الظلام مسبقًا، فهي أميرة آل قروم الساخطة على آل قروم والمنبوذة من آل قروم.

«يومًا ما في المستقبل سيحكمنا ابن فلاحة، أتوسل الرب أن لا أعيش لذاك اليوم»؛ غمغم أكبر الشرطة «مارد».

فرد أمين الخزانة» صباحة»:

ـ أظنها جاءت من نفس المكان الذي أتيت أنت منه.

ونظرة صارمة من ـ متوسطهم على الطاولة متيمنة العرش ـ الأعظم» صخر «، أجبرتهم على السكوت.

وفي الاتجاه المقابل كانت السلطانة» بدور» متجهمة الوجه كأنها غير راضية على هذه الزيجة وفشلت كل دعابات قاضي القضاة «عارف» في تليين مزاجها، أما الأعظم «نائل» فكان ما يشغل تفكيره، متى سينتهي هذا ليتثني له العودة لجزيرة القرش.

وقف شيخ الصالحين، فعم السكوت، وأمسك بأيدي العروسين وحدّث الحضور:

ـ لم يبقى إلا مباركة السلطان، وليبارك الله هذه الزيجة ويجعلها فتحا على أمتنا.

والتفت هو والعروسان إلى العرش وكذلك الجميع.

سحب ملكان ناظريه من على الأميرة رومان، واستند بساعديه جانبي الكرسي العاجي، وبصعوبة وقف، سعل، وسعل، وتحشرجت حنجرته وبصوت مبحوح متقطع قال:

- أنا ملكان الثاني، بن أشبوب، من دم المستقل ياقوت الأول، وسليل آل قروم، حامي الأقاليم الثلاثة وعاهل المدن الثلاثة عشر، سلطان عظمويل، الحاكم بعهد أول الاسم وآخره، أبارك زواج ولي عهدي صلحان الثالث بجنان ابنة عوف، وليحفظهما رب السموات والأراضين.

ثم جلس وتنهد، وألبس صلحان عروسه قلادة ذهبية تحمل وجه أسد زائر، وتعانقا، فهلل الحضور، وبفرح أمر القاضي عارف الخدم بجلب الولائم، وانفرج وجه «بدور» لأول مرة وكانت ابتسامة ناقصة.

في ساحة ياقوت كان العامة يدندنون الأغاني الرخيصة، وفوق رؤوسهم ترفرف أحبال الزينة، وفي داخل الحلقات تمايلت أجساد الغانيات وهن يتغنين بمروءة الأشراف وشهامة الخدم، ناشدات الطعام، بينما ينهر الحرس بضع أطفال يحاولون تسلق التمثال البرونزي، وتعالت التكبيرات لما خرج الخدم وحدفوا المفترشين ببقايا مأدبة الأشراف.

«أولئك نحن في كل زمان، نهلل عندما يمن علينا الأشراف بفضلاتهم»؛ تمتم بها شاب أشعث، يبدو جنوبيا، وهو يلتهم قطعة لحم!

انتهت المأدبة، وحلت الفقرة الأخيرة للحفل، و بها كل صاحب مال ونفوذ، تاجرا كان أو بحارا، سيتقدم ليهدي أجود ما لديه من كنوز للسلطان وبدأ العرض المثير.

معيوف يمشط القاعة وبإعجاب يخطف نظرات إلى ما يقدم للسلطان من كنوز ونوادر، لفت انتباهه رجل في نهاية الثلاثين، يقف على بعد أمتار أمام الذئب الراقد مصطبة الحوض المائي، الرجل مضفر الشعر، يلبس بنطالا جلديا أسود ومعطف رمادي جلدي الصياغة أيضًا، بحكم خبرته يعرف السندالي أن ذلك زي علوة البحارة في الجزر الماريكية، ولكن ريش الصقر المجدل به ضفائر البحار لا يمت بأي صلة للماريكية، دنا معيوف من البحار فإذا به يشتم تلك الرائحة النتنة، التي سفك دماء ستمائة حامل لها من قبل، مستحيل أن تكون رائحة بحار عالي الشأن، إنها رائحة قرصان على الأرجح، من الصعب أن يلاحظها أحد، ولكنه ليس أي أحد، هو أزرق سابق، يستطيع تمييز نتناء البحر عن أنباله بلا عسر.

وقف أمام البحار، وحاول النتن تفاديه، فوضع رمحه أمامه ومنعه العبور.

«أوراقك يارجل»؛ قال معيوف، وابتسم الرجل بسماجة وقد بانت سنة فضية تزين فكه المتهالك متسوس الأسنان، وقال:

ـ مبالغون أنتم يا حراس السلطان!

لم ينطق معيوف واكتفي بنظرة متشككة فظة، فرضخ البحار وأخرج أوراقه، تفحص الأوراق ووجدها تبدو سليمة، وهمس:

ـ عبد الصقر، اسم غريب!

اتسعت الابتسامة السمجة لعبد الصقر وقال:

ـ لن يكون غريبًا عما قريب، أعدك.

ومد يده ليأخذ أوراقه ولم يناوله معيوف إياها، فلقد كان منشغلا بما يدور عند العرش.

اعتدل «أساميس» من انحناءت التبجيل وأشار لتابعَين له فوضعا صندوقًا يحتوي بعض الجواهر الثمينة، أساميس هو بحار ماريكي سبعيني العمر بدين، هو ربان شائع الصيت في البحار، يخضع لإمرته تسع سفن تجارية، ودوما ما حرص المحافظة على العلاقة الجيدة مع آل قروم؛ حان الوقت لكي يفسح المجال لآخر مُهدي ولكنه لم يفعل واستأذن السلطان مهله للحديث فأذن له، فقال:

- للتو وصلتني أخبار لا أعلم مدى أهميتها بالنسبة لك سمو السلطان، لقد انتهت الحرب بين سمندا ولوكام، حسمها السماندة بعدما استعملوا سلاحهم، حديث الاختراع الذي سيغير شكل الحروب للأبد إن أتيح، السماندة تمادوا في طغيانهم واستخدموا «رحيق جهنم»، وحتى لا أطيل فأنا أعرف أن الظرف غير مواتي لمثل هذا الحديث، فلنخض في المهم، ملك سمندا أصابه السعار ولن يكتفي عند ذلك، أؤكد لسموك أن العالم على وشك الهاوية وبلادنا في خطر، وليس هذا هو الخطر الوحيد، فالقراصنة اختفوا من البحر، وهناك شائعات أنهم توحدوا تحت راية واحدة لأول مرة منذ أزل، ولا أحد يعرف أين قد يكونون، الأقاويل شحيحة في هذا الصدد، ولكن غالبها يؤكد أن هناك صقرا يحكم كإله ويتبعه القراصنة كعبيد.

انتهى من جملته الأخيرة ونظر إلى نائل الليث الذي اكتفى بإيماءة إيجابية.

«صقر؟!»؛ غمغم معيوف السندالي، والتفت حوله ولم يجد «عبد الصقر»، الرجل ذهب وترك أوراقه، خرج معيوف من القاعة ومشط كل شبر في القصر، فلم يجد أي أثر لذاك النتن، عبد الصقر ذاب وكأنه لم يوجد.

# 14

## الليلة الأخيرة...

أوشكت شمس الربيع على الرحيل، وأوشكت شمسه على الأفول، كف «ملكان» عن المعافرة، تيقن أنها الخاتمة وقد أزفت، حان الوقت ليعتلي العرش سلطان آخر برؤية جديدة، بطموح متطور تمنى ألا يكون أشبوبيا!

ها هو يفترش السرير المعطر بماء الورد الذي توارى عطره خلف رائحة المرض، وأعينه غائمة، لم يعد قادرًا على الجلوس ولا الاعتدال حتى، وها هي أمامه تجتلس مقعدًا مبطنًا بإسفنج مكسو جلدا، وترمقه بنظرات دامعة.

قال لها:

- قوّميه يا جنان، زوجك من طينة طيبة ولكنها متهورة، زوجك من طينة طيبة ولكنها عنيدة، إنه يحبك وستجد كلماتك لعقله سبيلًا دائمًا، قوميه ياجنان، واحميه من شر نفسه الجامحة.

ضاعت الكلمات من حلق جنان وزرفت عيناها بضع قطرات حارة، ولم تجد غير الإيماء لترد به على السلطان المحتضر.

دخل أحد الخدم وأخبر السلطان أن قاضي القضاة «عارف السردي» منتظر بالخارج فأذن السلطان للقاضي بالدخول وأذن لجنان بالانصراف.

متئدا دلف «عارف» متكأ على عصاه ويقاوم انحناء ظهره، وهناك أعلى رأسه الرفيع ما زالت القليل من الشعيرات البيضاء فقط متمسكه بمنبتها،كانت علامات النباهة والحكمة تشع من وجهه البنى الهادئ الثابت كجبل أثقلته السنين، وكيف لا؟، وهو المتقلد للمنصب الثاني في السلطنة، تلك المرتبة التي لا يرتقيها إلا أميز القضاة معرفة ونبوغا وتفانيا؛ قعد مطرح جنان وحيا السلطان وابتسم راضيا.

ونفس ابتسامة الرضا إرتسمت على الوجه الواهن لملكان الذي قال بصوت شحيح متحشرج:

ـ انتهت الرحلة.

هز عارف رأسه مؤكدا وبنبرته العميقة قال:

ـ رحلة شاقة.

لم يكن عارف أحد أولئك الذين يعزون ملكان في محنته ويغمرونه بعبارات الأمل والتفاؤل، بالفعل أمطر عارف الآخرين بمثل تلك الأمال، ولكنه يعلم أنها النهاية، على أي حال هو أكثر من يعرف السلطان وأكثر من يعرف أن ملكان لا ينصت لتلك الهراءات، لا وقت للمجاملة إذن، إنهما يظنان أنه الوداع لا محالة، فالأقدار قالت كلمتها ولا راد لقضاء الله.

سعل ملكان واسترسل:

- أحمد الرب أنه وهبني مستشار راجح العقل حسن المشورة وصديق صريح صادق النية والقول ولا يخاف لومة لائم حتى لو كان هذا اللائم هو أنا.

توقف واستجمع أنفاسه وأضاف وهو يجول بعينيه جنبات الغرفة:

- كانت عظمويل ذاهبة إلى التهلكة لولانا، وبدونك ما استطعت فعل ما فعلت.

تساءل عارف:

- فعلنا الصواب، أليس كذلك؟!

أجاب ملكان:

- فعلنا المتاح، لم يكن بالإمكان أفضل مما كان، وقد حان الوقت لأستريح.

فقال عارف:

- نستريح يا رفيقي.

فقال ملكان:

- لا يمكنك، أودك أن تقف في ظهر ولدي ناصحا مرشدا كما كنت معي أمينا، أعتقده يحبك ويحترمك وقد ينصت لمشورتك أكثر من الآخرين، والحقيقة أني لا أريده أن ينصت لغيرك.

هنيهة من صمت وتفكير أخذها عارف ونطق:

- لقد أنهكت ولا...

قاطعه ملكان:

- إسمع يا عارف، صلحان أهوج، وطباعه تشابه جده، إنه يتخذ أشبوب مثلا وقدوة، أتعي معنى ذلك؟!

متكلفا قال عارف:

- رحم الله البطل.

أطلق ملكان زفرة ساخرة ممتزجة بالغضب، ثم قال:

- بطل!، حقًا؟، أنت من تقول هذا يا عارف؟!، أنسيت الحقيقة أم تناسيت ها...؟!

تحاشى عارف أعين السلطان ولم يجد جوابا مرضيا، ففضل السكوت وأشغل نفسه بصب كوب ماء، ليبلل فاهه الجاف، بينما أخذ ملكان ينظر صوب اللوحة المعلقة أعلى الجدار المقابل له، حيث كان أشبوب ذو الوجه المربع الوسيم، والشعر الأبيض الممزوج بالذهبي المسترسل حد مؤخرة رأسه، وعيناه العسليتان اللامعتان اللتان توحيان للناظر من أول مرة بعبقرية منقطعة النظير وبأس شديد، ولكن كلما تعمق ملكان فيهما أكثر، ويتعمق، ويتعمق، يجدهما يشعان خبلا ليس إلا. وتلك ابتسامة جنون متأصلة!

ثم استطرد ملكان:

- أنا وأنت ياصديقي أكثر من يعروفون الحقيقة، والدي لم يكن بطلا قط، أشبوب كان خبلا خرفا مختل العقل، ما زلت أذكر أيام التمرد، كل ليلة كنت أسمع صراخه، يستيقظ بفزع ويصرخ أوقفوا الأنشودة، اذبحوا الخونة، أهرول لغرفته، فأراه هناك، يكتم أذنيه ويصرخ، إني أسمعها، ترانيم

الشيطان، إنها هنا، ويرج برأسه جدران القصر، ويكرر، اذبحوا الخونة، أوقفوا السوداء اللعينة، وهكذا، وهكذا، مرارًا وتكرارًا، كل ليلة، البلاد عاشت سنين من جحيم، الموارد كلها سخرت لمطاردة شبح واهي، مائة ألف روح أهدرت دمائها ظلما، لأن الشياطين توسوس في رأس شيب خرف مخبول يبغي امتلاك البر والبحر، بلادنا كانت ستغدو رمادا بسبب وسوسات شيب خرف تمكن جنون العظمة من حواسه، هل تناسيت كل ذلك يا عارف.

أنهى السبع السقيم كلماته وأخذ صدره يعلو ويهبط بعنف، فرفع عارف رأسه هنينه وأسقاه شربة ماء، دقيقة وهدأ خفقان أنفاسه وانتظمت نسبيًا، فأردف:

ـ أنشودة سيئة ذات كلمات مبتذلة لا تحمل أي قيمة جعلها والدي الأخرق أسطورة، وأضفى لها مسحة ملحمية وقتل لأجلها الكثير، هل تذكر كلمات تلك السوداء يا رفيقي؟

رد عارف وهو يرسم على وجهه ابتسامة باهتة:

ـ لو كنت أذكر لما كان زماني جالسا معك الآن، لكانت رأسي معلقة على رمح في ساحة المستقل قبل أزل.

أعاد ملكان عيناه إلي لوحة أشبوب وقال وهو يسعل قطرات دموية:

ـ أظنك تعرف حقيقة موت أشبوب!

وهنا تجهم وجه عارف وضاع ثباته الجبلي، فهذا السؤال هو آخر ما كان يتوقعه القاضي، ملكان ينقي صدره إذا، يزفر كل ما كتمه طوال

السنين الفائتة، الحقائق الدفينة التي دوما ما تحاشوا التلميح إليها، في هذه اللحظات قرر السبع تحريرها من محبسها، إذن هي اعترافات رجل ميت.

استجار عارف بالصمت بينما سعل ملكان أعنف هذه المرة، وأعاد السؤال:

ـ تعرف كيف مات أشبوب، أليس كذلك؟!

تعلقت أنظار عارف بالأسفل وأخيرًا نطق وهو يفرك أنفه:

ـ الكل يعرف أن البطل أشبوب ـ رحمه الله ـ كان شره التدخين، لا يفارق الغليون يده، ولا تفارق رائحة التبغ حلقه، والكل يعرف أنه مات أثر ذبحة صدرية حادة.

عادت تلك الابتسامة الراضية على وجه ملكان الذي نظر للأعلي وتنهد مرتاحا، ثم قال:

ـ ذلك ما يعتقده الناس، ولكنك دومًا ما عرفت الحقيقة، و...

قاطعه عارف وقبض على يده برفق وابتسم مطمئنا وقال:

ـ لقد فعلت ما توجب عليك فعله، ارتح يا صديقي.

وكانت تلك هي الليلة الأخيرة!

# 15

## جنان...

تجاهلت الطاولة المسطحة بالحرير وجلست أرضا بين وصيفاتها وأخذن يتبادلن الدعابات والضحكات، اتشحت الحرير المزركش بأثمن المعادن والمرصع بأنفس الأحجار، والقلادة الذهبية التي تزين عنقها، بينتها في تألقها الحاضر كأنها ولدت لأسد أصيل وليس لقروي متمرد.

انتصف النهار وكان التحام السحب في الأعالي يعلن وصول الشتاء وزوال الخريف، وفكرت أن الحديقة التي تجلس فيها، تحوي من النباتات الغالية ما يفوق محاصيل عشرات الفدادين نقودا. انقشعت ضحكاتها وقضبت عضلات وجهها المستدير الفاتن، لمّا خرج أمين الخزانة ومعه أكبر الشرطة من عند صلحان الملازم قاعة العرش، هي لا تحب هذين الرجلين وكذلك ترتاب من الحارس الأعظم، وتتساءل «يا ترى ما السر الذي يجمع زوجها السلطان صلحان بخادمه الخاص جورشبيل؟!».

«سيدتي ماذا تريدين على الغداء اليوم؟! «، تساءلت الطاهية السمينة، ففاقت جنان من شرودها وردت بعدم اهتمام:

ـ فطائر محشوة بلحم الأرانب.

انحنت الطاهية وقالت:

ـ أمرك سمو السلطانة جنان.

أضافت جنان حانقة:

ـ كم مرة أخبرتك ألا تنحني لمخلوق.

الأيام الأولى لها في القصر كانت ثقيلة غير مريحة، فهي لم تلق أي ترحيب ولا معاملة تجدر بأميرة، ويرجع ذلك لأن السلطانة بدور لم تستوعب أوانها أن ولدها تجاهل رغبتها وتزوج من ريفية لا حسب لها ولا نسب ولم تستطع تقبل ذلك بسهولة، وموقف السلطانة انعكس على الخدم والوصيفات الذين تحاشوا التقرب من جنان تجنبا لسخط بدور، ولكن ما هون عليها شعور النقص ذلك هو حب صلحان وسعادته الظاهرة للعنان بتلك الزيجة ورأفته بها وحنانه عليها، ولكن تلك السعادة شابها الألم، فمرض السلطان ملكان أضفى لحنا من الكآبة والشجن المرير على أروقة العرين، وأسرع من المتوقع ذاب الجليد بين جنان والآخرين، إنها طيبة الفؤاد ومرهفة المشاعر أرقها، وتجلى هذا في معاملتها المتواضعة مع الخدم والأقل منها شأنا الآن، لا سيما وأنه مع مرور الوقت لان قلب السلطانة بدور عليها، ورويدا رويدا تبادلا أطراف الكلمات والمجاملات، وذلك لو تعلم أمر عظيم في عالم النساء.

توفى السلطان ملكان وحزنت جنان أيما حزن لذلك برغم أنهما لم يجمعهما الكثير من الذكريات ولكن الأيام التي كانت تتردد فيها على جناحه وجدت منه حسن الخلق واللين وتكلف في تقديرها أمام الجميع، زوار نبلاء كانوا أو خدم، وأضفى موته نوعا من الرهبة اجتاحت دواخلها،

فخليفته هو زوجها المحب صلحان، مسئولية ثقيلة وحمل أثقل وما زالت كلمات السلطان الراحل التي أثقلها بها تتردد في رأسها «قوميه يا جنان».

شهدت العاصمة جنازة مهيبة لم تشهد عظمويل مثلها قط، منذ اغتيال المستقل ربما، النبلاء من كل الأراضي المجاورة حضروا بالتأكيد وكذلك كبار التجار والبحارة من جميع أنحاء المعمورة، أما ما أدهش صلحان هو حزن الشعب، فعشرات الآلاف من العامة خرجوا لتشيع ملكان لمثواه الأخير، استغرب من حب الناس لوالده وحدادهم الطويل عليه، صدقًا صلحان لم يكن يجد في أبيه ذلك السلطان العظيم صاحب الأمجاد ومسير التواريخ، لم ينبهر أبدًا به كما انبهر بسيرة ياقوت المستقل، وراكان خاصي الذئاب، وأشبوب هازم السماندة وقاهر الجنادرة، اؤلئك كانوا جبابرة بطولاتهم تتحدث عنهم ولم يجدوا الحفاوة الشعبية التي وجدها ملكان.

أما عن جنان فكان لها وجهة نظر أخرى، وجهة نظر فتاة تجرعت مآسي الحياة هناك على الضفة الأخرى للنهر، فتاة لم تتجرع الحياة في كأس مذهب بين جنبات قصر مفخم، بل تجرعتها هناك في الشرق حيث روائح الروث والفضلات، حيث رحيمة والعذاب، الذل والهوان، حيث المرض والظلم والموت بلا سبب.

عرفت ما لا يعلمه زوجها، لم يكن هناك صياح ولا عويل ولكن كان هناك تمتمات وهمهمات، إنها تدري كما يدري الكثير من العامة أن أشبوب لم يكن على الإطلاق بطلا، أشبوب كان طاغية مستبدا، كان على أتم الاستعداد لأن يحرق عظمويل عن بكرة أبيها لكي يحافظ على صولاجانه الذهبي وعرشه العاجي، تدري أيضًا أن سيرة سلاطين آل قروم المدفونة في غياهب السجون السحيقة داخل صدور العامة ليست بتلك

السيرة التي تربى صلحان على سماعها وحفظها وترديدها كبغبغان أرعن. كانت تعرف الحقيقة التي يعرفها الجميع ولا يعرفها صلحان الذي بلا شك تنامى إلى مسامعه جزء منها ولكنه كذبها ويعتبرها مجرد إرهاصات ضغينة، تعرف لماذا الناس أحبوا ملكان عن غيره، ملكان حاول الإصلاح، حاول سد الجوع وتأمين الحيوات، وارتقى بالكرامة إلى حد ما، ولكنه مات قبل أوانه، قبل أن ينهي ما شرع فيه، مات وترك صخر الأفعى يعيث في البلاد كأنه سلطانٌ ويعبث في مقدراتها كأنه ولي نعمتها الرازق، الكل يعرفون أن السلطان يحكم من أعلى العرش والأفعى يحكم من تحت الأرض.

رحل ملكان، وجاء اليوم وتحققت مخاوفها وانقلب حال صلحان وتغير، لا يمكن أن تنسى ذلك اليوم أبدا؛ اليوم الذي نصبت فيه منصة بجوار تمثال المستقل واعتلاها قاضي القضاة عارف السردي،،ووسط الكثير من التصفيق والتكبير صعد صلحان درج المنصة وفي ثقة وعزم تحدث إلى الشعب مقسما: أنا صلحان الثاني ابن ملكان من دم المستقل ياقوت وسليل آل قروم، أقسم برب السموات والأراضين أن أحمي الأقاليم الثلاثة، وأن تشمل رعايتي المدن الثلاثة عشر، وأن أحافظ على رمح المستقل شامخا وأن أحفظ بدمي عهد عظمويل الأول والأخير.

وضع القاضي التاج النصف ذهبي والنصف برونزي أعلى رأس السلطان الجديد وتعالت صيحات الهتاف، وركع رجال المجلس تباعا مقدمين ولائهم.

صلحان تغير، منذ أن ترك الإمارة وتقلد السلطنة أصبح شخصًا آخر، كيانا مختلفا، لا ينام إلا نادرا ولا يتحدث إليها إلا قليلا، شارد الذهن يفكر دائمًا، روحه تتأكل، ويهرتل كثيرًا عن نبوءة المستقل وحلم البطل

وإمبراطوريته المذعمة، الفكرة سيطرت على كل جوارحه حتى توحشت وتوحشت آماله معها، يقضي لياليه في قاعة العرش مجتمعا مع الحارس الأعظم وأمين الخزانة وأكبر الشرطة، استفحلت المخاوف في قلب جنان وعقلها مشتت، قرب الفجر يرحل رجال المجلس، ولا يعود صلحان إلى جناحه، بل يبقى حيث عرشه الذهبي وينضم إليه جورشبيل، تيقنت أن هناك أمرا عظيمًا يجمع ذلك الأصهب بزوجها، جورشبيل تعدى مرحلة كونه مجرد خادم أهل للثقة لشيء أكبر لم تعلمه بعد، على أي حال هي تثق في هذا الأصهب ولن تنسى أبدًا دوره في علاقتها مع صلحان وكذلك مساعدته لها على تخطي العثرات النفسية التي صاحبت أيامها الأولى هنا.

شقشقات العصافير وهدير الطيور وعبير الورود لم يعودوا يثيرون عواصف الشجن داخل وجدانها والنهر فقد رونقه وباءت محاولاتها لتقويم صلحان بالفشل على الرغم من أنها لا تعرف ما يخطط له ولكن الشكوك تساورها ولا يقين.

اليوم هناك حركة غير طبيعية في القصر فالسلطان لم يعد لمخدعه منذ البارحة وحتى الآن هو ملازم قاعة العرش وفي اجتماعات متواصلة مع نصف مجلسه، النصف الذي تبغضه هي، مر ساعة وعاد أكثر رجل تكرهه ثانية إلى القصر، أكبر الشرطة «مارد العنتبي» هو ابن الفقراء وجلادهم، ذلك الباطش يجعلها تؤمن أن الخير والشر لا يرتبط بالغنى والفقر فكم من فاسد تسلق على أشلاء أشقائه، وبالنسبة لها كان مارد هو الملهم لتلك النظرية، ولا تعرف لماذا زوجها ومن قبله صهرها تمسكوا بخدماته برغم علمهم مدى وضاعته!

وها هو شاب أشقر يخرج من قاعة الاجتماعات ويتشح تلك العباءة المرسوم على ظهرها صورة لفرخ حمام زاجل أبيض، هذه العباءة الزرقاء الخاصة بالرسل، وهذا الشاب يعمل رسولا وموكل برسائل الماء فحسب.

«جورشبيل، ما وجهة الرسول». أوقفت جورشبيل المهرول بحماسة إلى حيث الغرفة الرديئة المجاورة لمعقل الخيول.

فأجاب جورشبيل متعجلا:

ـ الرسول مبحر إلى جزيرة القرش.

وأكمل إلى الحجرة وأخذ يتفحص المتاريس الحديدية المتعاشقة.

«نائل الليث». تمتمت جنان وارتعشت أوصالها وانقبض قلبها ولم يعد هناك مجال للتقويم، وتمنت أن لا يكون الأمر كما ترمي توجساتها وظنونها.

# 16

## نائل...

أسدل الليل ستاره الدامس على الجزيرة التي تتخذ شكل قرش له نصف ذيل ورأسين أحدهما ثلث الأخرى مساحة، وتساقط بكر السماء المتقطر غاسلا القلاع الخشبية المتمسكة بسوادها المتأصل، الهيئة الكالحة لجزيرة القرش لا توحي أبدًا لمن لا يعلمها مدى أهميتها، فهي الحامية لحدود عظمويل البحرية وسقوطها يعني عراء سواحل البلاد وينذر بمصائب وخيمة، والتواريخ شاهدة على مدى استبسال فرسان الزرقاء في الدفاع عنها عبر الزمان، تحت مياهها تكتنز الكثير من الثروات والأحجار التي تمثل نسبة ليست بالهينة في اقتصاد عظمويل.

في السماء هناك ضوء هلالي باهت، وبين القلاع الخشبية المنطفئة الروح كان «العلوي» الخمسيني القصير ذو الشعر المفحم المجعد والوجه الرفيع الداكن يهرع والسرور يدق أبواب وجدانه، يتدرع الفضي ويلهث كليث على وشك الانقضاض على فريسة ثمينة، إنه عائد للتو من مهمة، سلم أسيره للرجال ليتم الاستجواب على النحو المطلوب، وسروره امتزج بالرهبة فهو على وشك مقابلة الليث الحقيقي «نائل القرومي».

صعد خمس درجات حديدية متهالكة، كانوا فيما مضى سبعة قبل أن يجور الزمن على اثنتين، طرق الباب الخشبي الأشبه بمسكن للسوس والحشرات، ثلاث طرقات وجاءه الصوت الزائر الحاد سامحا له بالدخول فدلف.

كان يجلس خلف مكتبه الصغير الذي لا يليق بمكانته كقائد أعظم لجيوش عظمويل الجرارة، وعلى أريكة جلدية مهترئة ترك دروعه الفضية وسيفه العملاق وفوقهم معطفه الثلجي، وبرغم برودة الجو لم يكن يرتدي إلا قميصًا أزرق وسروال فروسية أسود، هو الملقب بالليث، والكثير يصنفونه أشرس محاربين هذا العصر، هو بطل الحرب الدامية وحارق «هيبة سهم القدر»، هو الأسد الذي رود وحوش البحر، يقول رجاله أنه الرجل الذي لن يستريح إلا بالموت وأن ملك الموت لن يناله بسهولة، ربما تجمعهم منازلة ملحمية.

له جسد قوي متعملق ولم تدع تقلبات الدهر على محياه أي وسامة، كأنه دخيل على آل قروم، شعر فضي هائش، وملامح قاسية اعترتها الغلاظة، وجنتان بارزتان داميتان متشققتان من فعل الشمس والملح، في زمن ولى لم يكن وجهه بهذا الدكون ولكنها حياة القرش الجدباء صبغته بأسًا ويأسًا!

مدد ساقيه الضخمتين على سطح المكتب وأخذ نفسا خاطفا من غليونه وقال:

ـ تحدث يا علوي.

وبنبرة تغلبت فيها الرهبة على السعادة قال العلوي:

ـ لقد تمت المطاردة بنجاح وأسرت قرصان وسلمته للرجال ليستجوبوه.

فقال نائل مستنكرا:

ـ أسير واحد!، خرجت لمطاردة سفينة قراصنة، والآن تعود لي بواحد فقط؟!

مرتبكا قال العلوي:

ـ لم تكن سفينة، وإنما مركب صغير وكان على متنه تسعة قراصنة فقط.

زفر نائل نفسا مفعما بالتبغ في وجه العلوي وتبعه بنظرة ثاقبة صارمة، فانهار على إثرها العلوي واسترسل لسانه بكل ما في نفسه:

ـ الثمانية الأخرين قاوموا فقتلتهم، وبذلك أتممت عقد الستمائة قرصان أي ثلاثمائة محارب.

صمت لوهلة وتأمل رد فعل القائد الأعظم فلم يجد غير وجه لا يأبه، فتنحنح وقال مستعطفا:

ـ سيدي القائد الأعظم، لقد تعبت من كل هذا، كبرت ورحلتي في الحياة قاربت على الانتهاء، أريد أن أقضي سنيني القليلة الباقية بجانب أبنائي، لقد عزمت أمري سوف أنضم لحراس السلطان.

لهنيهه رمقه نائل بنظرة عميقة، ثم تناول مطوية جلدية من على سطح المكتب وتساءل:

ـ أتعرف ما هذا يا علوي؟!

انعقد لسان العلوي ولم ينطق ببنت شفة فأردف نائل:

ـ هذه رسالة من قائد الأسطول السمندي، ابن المومس يخبرني أنهم بصدد التحرك ناحية الجزر الماريكية، ويشدد على الالتزام باتفاقية السلام.

تساءل العلوي:

ـ وما في ذلك سيدي، إنه مجرد إجراء روتيني، ونحن ما لنا ومال الماريكية؟!

بنبرة هادئة قال نائل:

ـ لا شيء، لا شيء، إذهب وأشرف على استجواب القرصان، انتزع منه أي معلومة تخص الصقر.

تنحنح العلوي وهم السؤال ولكن نائل أجابه قبل أن ينطق:

ـ لا تقلق، قريبًا سأرسلك للأفعى، وأرجو أن تجد ضالتك في حياة النساء.

خرج العلوي وترك الليث محتارا، فرجاله يتململون ويظنون أنه لم يعد لوجودهم في القرش أي فائدة، في الأساس تكونت الزرقاء لمجابهة حملات السماندة ولم يعد هناك عداوة مع سمندا ولا مناوشات حتى منذ انتهاء الدامية، والقراصنة اختفوا كأن المالح ابتلعهم، أين ذهب آلاف القراصنة، لا أحد يملك الخبر اليقين، خرافات عديدة عن الصقر ولكن لا حقيقة ملموسة.

وكما نال الفراغ من فرسان الزرقاء وجد طريقه إلى لب الليث، نائل الذي أكمل عقده السادس قبل شهرين فقط، الآن هو حبيس تساؤلات لا إجابة لها؛ لا زوجة له أو ولد فيما أضاع حياته وفي سبيل ماذا أضاعها ولأجل من، ماذا يفعل هنا حقًا؟!

ذكريات كثيرة جابت خلده، حرقة ملأت صدره، تذكر الماضي كطيف بخيل الملح، ومضات عن شاب لم يعد يعرفه.

شاب كان مفعمًا بالحياة والأمل، نشأ مرفها وسط قصور آل قروم، أحب النساء والخمر واللهو، أبوه لم ترقه تلك الحياة المترفة المستهترة، فدفعه دفعا إلى الالتحاق بالجيش حتى يشتد عوده وتتصلب شخصيته، ولكن حدث ما حدث واندلعت الحرب الدامية في البحر، أسطول عظمويل يتصدى لأسطول سمندا الغازي المعتدي، نائل لم يتوقع قط أن يساق إلى الأزرق ومن ثم المشاركة في المعارك المتوالية الطاحنة ضد الوثنين، فهو ابن أخ السلطان أشبوب ووالده أحد أكبر أمراء آل قروم مكانة، لا يتذكر إذا كان لخطأ في السجلات أم للعجلة والتسرع من القادة، سيق مرغما إلى البحر، لم يدرك أحد حينها ماهيته، إنه ابن أخو السلطان وانضم للجيش للتأديب لا للحرب، والوقت لم يسعفه للاستنجاد بأقربائه أو معارفه، فلقد تم شحنه في سفينة ليلا ورمي كالآلاف مثله في البحر النازف؛ كانت زرقة البحر الصافية ضائعة وحلت محلها الحمرة الدامية.

ليس من الغريب أوانها أن ترى آلاف الجثث طافية على سطح المالح الجريح، في البداية كان نائل ورفقائه يسحبون الجثث ويقومون بتخزينها ممنين أنفسهم أنهم سيعودون للوطن قريبًا وسيدفنونها بالمقام اللائق بها، ولكن ذلك لم يحدث فلقد طالت الحرب وطالت حتى كفوا عن انتشال الجثث، وتدهور الحال أكثر فتخلصوا من الأخرى المخزنة.

امتدت الحرب لخمس سنوات سجال كانت بين عظمويل وسمندا، في النهاية استنزف الجيشان ووهنت البلدان ولم تتوقف إراقة الدماء رغم ذلك، ظن الجميع أن الأسطولان ينتهيان، ينهزمان، تكونت قناعة لدى الكل أن لا غالب في تلك الحرب رغم بذل الجانبان كثير العطاء من مؤن

وأرواح. وهنا حدثت المفاجأة وانقلبت الموازين فلقد إنضم القراصنة إلى الحرب، أغدقت سمندا عليهم بالذهب والوعود الزائفة بالجاه وعظيم العطايا، وخلال شهور قلائل تم حسم الحرب إكلنيكيا لصالح سمندا وظن المتابعين أن سلطنة عظمويل ستدفن بين طيات التاريخ وأن رياح الهلاك قد حصدت آل قروم ولا أمل في الازدهار أبدا.

لم يعرف نائل كيف ولا لماذا تمكن من البقاء والنجاة خلال السنوات الدامية، ولا يذكر كيف شاع صيته تلك الفترة، كل ما يذكره أنه كان مثل الآلة لا يفعل شيئًا سوى القتل والسفك، حتى أن مشاعر الخوف والرهبة وأحاسيس السخط على والده انقشعت بلا رجعة، في الواقع لم يكن هناك أي مشاعر ولا أحاسيس على الإطلاق، لقد ذهب ذاك الشاب المستهتر وحل محله هذا المقاتل الصلد الأقرب لوحش كاسر، والجدير بالذكر أنه بعد الكوارث التي حلت بجيش عظمويل أنذاك، لجأ البضع آلاف الذين تبقوا من الأسطول الهالك لجزيرة القرش متحصنين فيها، حامين لها ومحتمين بها، كانت هي الملاذ وكانوا آلافًا بلا قائد ولا كبير، فجميع القادة البارزين ذهبت ريحهم في الحرب وهلكوا تباعا خلال السنوات الفائتة، تعجب نائل لما وقع الاختيار عليه من الناجين وتنصيبهم له قائدا عليهم.

بداية، تخيل أنهم أقدموا على ذلك القرار لأنه الوحيد فيهم الحامل لدم الأسود ولقب آل قروم، ولكن زاد اندهاشه لما علم أن أكثريتهم لا يعلمون اسمه الحقيقي، فلقد كانوا ينادونه بألقاب عدة، مثل، شيطان الأزرق، الحوت المفترس، أسد البحار، الليث الذهبي.

وصدقا لقد أسقط نائل في الحرب الدامية آلاف القتلى، أحرق سفن بمفرده ربما، أظهر جرأة منقطعة النظير، وجد ذاته الحقيقية هنا في

البحر، تيقن من حبه للصيد، وعشق استنشاق رائحة الدم، شهوة الافتراس تملكت جوارح الليث.

بعد أيام قلائل من لجوء الشرازم العظمويلية إلى القرش، اكتشف نائل حقيقة من نجوا معه، فمعظمهم لم يكونوا إلا مجرد حفنة من الجبناء، فروا من قلب المعركة الأخيرة مبكرًا، وأن أقل القليل هم من استبسلوا للحظة الأخيرة، وكان أبرز المستبسلين، الشجاع «صخر السردي»، وصف أنه سريع وقاتل وماكر كثعبان غزير السموم، ولم يكن قد اكتسب كنية الأفعى بعد.

صخر من عائلة نبيلة هو الآخر وبالطبع أقل نبلا من آل قروم، عرفه نائل قبل خوض غمار الحرب ولكنهم لم تجمعهم أي صداقة بأي شكل من الأشكال؛ وجدا تفاجأ نائل لما سمع أن صخر أظهر وحشية لا مثيل لها في الحرب؛ «وحشية»، تلك الكلمة كانت منافية للصورة المتشكلة في عقله عن صخر، هو يذكر ذاك الصخر ضئيل الجسد، الخجول، الكتوم، المنطوي الغامض، الأشبه بعصفور كناري أبكم تائه عن السرب.

وعندما قابل صخر لأول مرة على الجزيرة جاش له بالصورة المتكونة في عقله، فما كان من صخر غير أن أعطاه ردا خبيثا حيث قال: «وأنا أيضًا أذكر أن أحدهم كان من سلالة الأسود وبدا كأنه لا يحمل جيناتهم، أظنه كان أقرب لأرنب أو هر، والآن صار هو الأمل الوحيد لأمة كاملة، إنها الأقدار يا صديقي ولا مغير».

وهكذا قاد نائل وعاونه صخر الناجين المحاصرين.

عمل نائل بجد على حفر الخنادق وإلقاء الخطب الحماسية وتدريب الرجال حتى يتثنى لهم المقاومة والموت بشرف عندما يهجم السماندة، فنصحه صخر بأنه: «لا داعي لإنهاك الرجال وتبديد المؤن، فالسماندة لن

يهجموا، لأن أسطولهم منهك ولن يغامروا ويخسرون المزيد من رجالهم، إنهم سيعتمدون على الحصار، حتى يتثنى لهم التعافي والتزود بمزيد من الرجال حتى تكون أراضي عظمويل لهم لقمة سائغة، ولا يجدون صعوبة في دحض المقاومة الشعبية التي قد تقابلهم لما تحط أقدامهم أرض البلاد، هذه هي مشورتي لك وهذا هو الأصح لهم والأسوأ لنا، يؤسفني أن أخبرك أيها الليث أننا في الغالب سنموت جوعا ولن نحظى بأي شرف يليق بمحارب»

فكر نائل ووجد أن صخر أصاب الرأي وقرر الامتثال لمشورته على أمل أن يسعفهم السلطان أشبوب بأي حيلة.

وحينها أدرك أن ما يميز صخر ليس الوحشية في القتال، بل الدهاء والذكاء والقدرة على استشفاف أدق التفاصيل من التفاصيل.

وأوكل صخر بمهمة توزيع المؤن وتقنينها لكي تكفيهم لأطول فترة ممكنة، بالإضافة إلى شحن عزيمة الرجال، حتى يجد أشبوب حيلة لتخليصهم.

اقتصد صخر واستمات في بث الحماس والتفاؤل داخل نفوس الرجال، ولكن الوقت طال ولا أمل في نجدة يلوح، تيقن الرجال أن الموت في الحرب كان أكرم وأشرف، فالجزيرة ليست إلا سجن كريه خسيس محفوف بالموت الوضيع، تيقنوا أنه سيموتون بدون أن يرفعوا سيوفهم، تيقنوا أن جثثهم ستكون مرتعا لعبث الجوارح.

على الرغم من اقتصاد صخر بشدة إلا أن المؤن نفذت في أقل من نصف عام، وهنا اضطر المحاصرون إلى ذبح الخيول وأكلها وشرب دمائها، ولم يكن ذلك أسوأ ما اضطروا إليه، فلقد أكلوا الكلاب ثم الثعابين

ثم القطط والجرذان، تغذوا على أوراق الشجر وعشب الأرض وجميع أنواع الحشرات، مر عام ولم يعد هناك أي شيء صالح للأكل، واندفن أي رجاء للغوث، لم ولن يسعى أحدٌ لإنقاذهم، هكذا عرفوا أخيرًا، فتساقطوا رجلا تلو الأخر، وعندها اضطر المتنفسين لفعل آخر شيء يمكن لآدمي الإقدام عليه، ما زال نائل يصنفه كأبشع وأقذر عمل سمح لرجاله بفعله، على أي حال، هم فعلوها بدون استشارته، لقد تغذوا على جثث أصحابهم الهالكين، ومن ثم تمكن الجنون من البعض فانتحروا، وفكر البعض أن يفعلوا المثل ولكنهم تراجعوا خشية أن يأكل زملائهم أحشائهم، والبعض الآخر اقترح أن يرفعوا سيوفهم ويهجموا على سفن سمندا لينالوا ميتة أكرم، ورجح نائل هذه الفكرة واعتبرها أفضل الممكن، ولكن صخر أوقفه وأجبره على التراجع عن تلك الخطوة، ولما سأله نائل «لماذا؟!»

أجابه صخر بنظرات خبل واختلال متفائلة «بدأ يتفشى في الرجال، إنها النجدة الإلهية، أرسل الله الطاعون نصرة لنا».

فظن نائل أن صاحبه قد جن، ومع مرور الأيام أصاب الطاعون أكثر من نصف الرجال، وعندها عرف نائل مقصد كلمات معاونه وعرف الخطة الشيطانية التي يعدها صخر.

صخر يثير عزيمة الرجال ويعبئهم في مراكب ويرسلهم إلى السفن السمندية، حملت المراكب الأولى النصف الحامل للطاعون وأمرهم صخر أن يتفرقوا وأن يموتوا فوق أسطح السفن، وأن تسفك دمائهم أعلى كل سفينة، لقد قسمهم وأرسلهم بحنكة أفعى، وبعدما ذهبت مراكب المصابين منع الأصحاء من اتباع رفقائهم، وبذلك طحن الطاعون أسطول سمندا، وعادت سفنهم محملة بالجثث والمحتضرين تجر ذيول الهزيمة والخيبة.

وتلك كانت حكاية الهر المستهتر الذي تحول إلى ليث متوحش وأصبح كيانا حربيا هائلا يناطح أسياد الحرب والدم؛ والكناري الخجول الذي أضحى أفعى شيطانية وأسقط أسطولا ببخة عقل، ولكن ليست هذه هي خاتمة الحكاية.

دق الباب ثانية فعاد نائل من رحلته في بطون الذكريات ومجددا كان العلوي هو الدالف وتحدث:

ـ لقد فعلنا كل ما في وسعنا، والقرصان يقسم أنه لا يعرف شيئًا عن الصقر، وأعتقده صادقًا.

لم ينطق نائل وانتصب جسده القوي المتعملق واقفا ووضع معطفه الثلجي على منكبية العريضين مكتنزي العضلات وغادر قلعته ليستنطق القرصان المأسور بنفسه.

ترجل بين القلاع الخشبية المسودة، كانت السماء قد توقفت عن إرسال قطراتها البكر، هناك حول موقد كان مجموعة من الزرق يجلسون على قطع حجارة منتظرين اكتمال عملية شواء سمكة تونة كبيرة، وبعضهم يحتسي مشروبات ساخنة لتخفف عنهم لسعة البرودة البينة في الجو، أبصروا القائد الأعظم مارا عليهم، فارتعدوا واقفين وأعطوه التحيات العسكرية ولم يبادلهم نائل التحية وإنما أكمل في طريقه شامخًا جامدًا ومن خلفه العلوي متوجسا خائفا.

بعد انتهاء الحرب الدامية وفك الحصار عن القرش وعودة السماندة إلى بلادهم موصمين بعار الخسارة ومدججين بصرعى الطاعون، رجع نائل وصخر وبقية الصامدين لوطنهم عظمويل، استقبلوا استقبال الفاتحين، وهالة من الأساطير والخرافات انتشرت عن الليث والأفعى قاهري إله النجم.

انزعج نائل لمّا وجد أن الفضل الأكبر لانتصارهم تم نسبه إلى السلطان أشبوب، وجد الشعراء في المقاهي والغواني في الحانات، وكبار رجال السلطنة يتغنون بحنكة أشبوب ودهائه وكيف أن خططه العظيمة نفذها الليث والأفعى بإتقان كما أمرهم، حتى أن البعض تمادوا في تلفيق الأكاذيب وزعموا أن أشبوب هو من وضع خطة الطاعون وأنه جمع كل مرضى الطاعون في البلاد وهو من سللهم خفية إلى جزيرة القرش ومن ثم إلى بوارج سمندا، والعجيب أن بضع الأسر صدقوا على تلك الأكذوبة وأقسموا أن أبنائهم الحاملين للطاعون شاركوا في خطة البطل أشبوب.

تلك الأكاذيب الملفقة لم توجع نائل مثلما أوجعه تخاذل عمه أشبوب في نجدتهم، ولهذا أقسم أشبوب له مرارًا وتكرارًا أنه أرسل الدعم الكثير، ولكن السماندة أحبطوا كل محاولاته في إسعاف المحاصرين.

بعد ذلك تنامت إلى مسامع نائل همسات مفادها أن أشبوب باعهم وتخلى عنهم، وأنه كان على وشك توقيع اتفاقية سرية مع السماندة، بموجبها تمنح القرش لسمندا، وتدفع عظمويل الجزية التي تقررها سمندا، مع ضمان بقاء أشبوب سلطانًا صوريا على عظمويل، ووقع هذه الهمسات على نائل كان عدم التصديق واستهجنها كثيرًا واعتبرها هرتلات حاقدين على آل قروم، على الرغم من أنه تفاجأ عندما وصل وفد سمندي إلى

البلاد ولاقى ترحيبا عظيمًا وحفاوة كبيرة من السلطان ومجلسه، وتم توقيع اتفاقية السلام التاريخية مع سمندا والتي بموجبها انتهت العداوة بين البلدين للأبد، وبدأ زمن التعاون، وقدمت سمندا قربانها لتثبت حسن نواياها، فلقد وعدت بدعم السلطان أشبوب في حربه المزعومة ضد جندرة.

إعلان الغزو على جندرة كان قرارا صادما للجميع، فالبلاد لتوها خارجة من حرب استنزفت قوتها البشرية والاقتصادية ولم تتعافَ بعد من ويلات الدامية، لقد عارض هذا القرار المفاجئ الكثيرون من أصحاب الكلمة في عظمويل، حتى أنه أشيع وقتها أن ولي العهد «ملكان» على خلاف عاتي مع والده السلطان «أشبوب»، وعلى الرغم من كل التحذيرات تمسك أشبوب بقراره وحلمه الإمبراطوري.

حسنًا، لم يعد هناك وقت للتكهمات والأسئلة، فلقد تم تنصيب نائل القرومي قائدا أعظم للجيش، وصخر السردي قائدا لفرقة حراس السلطان التي لم تكن إلا فرقة ذات مكانة مرموقة بين فرق الجيش فقط وليست كحالها البراق وسلطتها المطلقة الآن.

الليث أوانها كان يعتبر الأفعى بمثابة أخ وأكثر، وأشبوب أمر شقيقا الحرب بإعادة هيكلة الجيش المجهد ومنحهم عامان لذلك، ومن بعدهما سيبدأ التحرك والزحف ناحية جندرة.

ولم يكد يمر أكثر من عام وانفجر الغضب الشعبي، فالجوعى تمردوا وتلثموا وخرجوا إلى الشوارع ورنموا أنشودتهم مطالبين أشبوب بالتنحي والتنازل عن عرشه وحاولت الشرطة ردع المتمردين ولكن أساليبها الحمقاء لم تحقق أي نجاح، بل على العكس زادت الأمر سوءا،

فهربت من قلاعها ليستولي عليها الملثمين، فأعطى السلطان أوامره للقائد الأعظم «اقضِ على الخونة»، وما كان من نائل إلا الرفض والتزام الحياد ووقوفه مع مشورة بعض الأمراء العقلاء من آل قروم وهي تنازل أشبوب عن عرشه لولي عهده ملكان، ولكن أشبوب رفض وعزم أمره، وهنا انتهت أخوية الليث والأفعى وعمت بدلا عنها العداوة والاستحقار، فلم ينسَ نائل أبدًا ما فعله صخر تلك الليلة ولم يقدر على غفران تلك الخطيئة، وعرف أن ما حدث ليلتها من مؤامرة شيطانية ضد الأبرياء، لا تخرج إلا من جوف أفعى خبيثة، الأفعى خطط ونفذ ونال مكافأته وتم إعلانه حارسا أعظم.

قبل تلك الأحداث لم يكن القائد الأعظم للجيوش يقود أي فرقة معينة وإنما دوره ينحصر على الإشراف والتوجيه لجميع الفرق وكل القادة، ولكن أشبوب جعل نائل بالإضافة لكونه القائد الأعظم، قائدا للزرقاء، وكان ذلك بمثابة النفي المنمق جزاء لموقف الليث الحيادي في التمرد والذي اعتبره أشبوب خيانة له شخصيا ولم يكن بمقدوره غير ذلك حتى لا يتفاقم سخط العائلة على سياساته.

وفاتت سنوات ومات أشبوب ولم يأبه نائل بسبب موته سواء كان ذبحة صدرية كما أعلن أو...، لم يستطع الليث أن يصرح لنفسه بذاك الاحتمال أبدًا، الليث الذي أبى العودة لليابسة بعد صعود ملكان العرش، وعرف أن البحر هو المكان الوحيد الصالح لممارسة هوايته الوحيدة وعشقه الأبدي، أي سفك الدماء وسلب الحيوات، فالمناوشات مع القراصنة لا تنتهي، وعلى كل، يبدو أنها انتهت الآن!

تحت إحدى القلاع وفي قبو شبه مظلم لا يبث النور فيه إلا مشعلة في يد أزرق، وعلى العمود متوسط القبو، كان الأسير مصلوبا. رجل هزيل الجسد غزا الشيب شعره الأحمر المتسخ كبقيته، تنزف أنفه المهشمه بغزارة، وريق فاهه الممتزج بالدماء يسيل أرضا، وأرضا كان هناك ضرسان هالكان، وفي الأعلى كانت هناك عين منغلقة، وبالعين الأخرى الشبه صحيحة رأى الأسير جسدا متعملقا يقف أمامه ويحدق فيه بعينين خضراوتين عميقتين مخيفتين، فبكى لأنه ظن أن الليلة ستطول وهو ضجر من التعذيب والضرب المبرح، وظن أيضًا أن هذا الوحش الذي تظهره النيران الخافتة المتلاعبة جبل مشوه المعالم سيريه أسوأ كوابيسه برغم أن الثلاثة الآخرين لم يقصروا في إيلامه؛ فبكى الأسير وبادر أزرق:

ـ إنه لا يعرف شيئًا أيها الأعظم.

فقال نائل:

ـ هات المقص.

فذهب العلوي إلى زاوية القبو ونقب في كومة من الأدوات، يزيح سوطا ثم يزيح خنجرا وتحت حفنة مسامير وجد المقص الحديدي حاد السلاح والملطخ بدم شديد الدكون لقِدمه، فتناوله وسلمه لليث.

«لا أعرف شيئًا، أقسم أني لا أعرف أي شيء، لاااا»؛ صرخ الأسير بهلع، وصراخه وقسمه وهلعه لم يمنعوا نائل من بتر سبابة يسراه. دوى صوت صرخات الألم وعبارات التوسل أرجاء القرش، ولكن هذا أيضًا لم يمنع نائل من الفتك بخنصر الأسير ومن ثم إبهامه.

أعطى نائل المقص لأحد رجاله الأربعة، وانتظر حتى كف الأسير عن العويل وقال له:

ـ حدثني عن الصقر.

بصوت متشنج مفعم بالماء والدم قال الأسير:

ـ لا أعرف عما تتحدث.

«حسنًا» قال نائل وأردف وهو ينظر لرجاله بلهجة أمرة:

ـ اقطعوا قضيب القرصان واتركوه لحال سبيله.

وولى ظهره ذاهبا، وشرع الرجال في نزع سروال الأسير، فصاح الأسير:

ـ سوف يقتلوني ويقتلون عائلتي، لا أستطيع، سوف يقتلون عائلتي.

وبخطوات متثاقلة عاد نائل ووقف أمامه مجددًا وثانية صاح الأسير:

ـ سيقتلون عائلتي أيها القائد.

فربت نائل على كتفه وبنبره مطمئنة قال:

ـ تحدث ولن يمسك أحد بسوء، ولن يعرف جنس مخلوق ما دار هنا، وسأجعلك ترجع سالما لأولادك، لك كلمتي.

قال الأسير:

ـ لا أحد يعرف جنسه، ذكرا كان أم أنثى، آدمي أو جني، كل ما سمعته أنه إله اجتمع قادة القراصنة المتنازعين تحت رايته ويعدهم بملك عظيم، القراصنة يقدسونه ويتضرعون بالعبادة له، يقولون أنه المخلص وشعاره «الصقر لا يأكل الجيفة».

اعتلت ملامح التساؤل والتعجب وجه الأعظم فأكمل الأسير:

ـ نعم لا يأكل الجيفة يا سيدي، يأكل الطير حيا ويأكل الأسماك حية ويأكل الحيوانات حية، ويأكل البشر أحياء.

تساءل نائل:

ـ أين مكان تجمع الصقر وأتباعه.

أجاب الأسير:

ـ لا أعلم، أقسم.

قال نائل:

ـ وأنت لما لم تنضم للصقر كالآخرين؟!

قال الأسير:

ـ برغم الوعود الكبيرة ولكني خشيت المصير، فذلك الصقر لا يفعل شيئا بدون مقابل، وبالتأكيد يخطط لأمر عظيم، وخيرني ربان السفينة ما بين اعتناق دين الصقر أو الطرد، وخوفا على عائلتي وذاتي تركت القرصنة، وابتعت هذا القارب الذي حطمه رجالك أنا ومجموعة من أمثالي لغرض الصيد والرزق.

بنظرات نارية هجم القائد الأعظم على العلوي، العلوي الذي كان خانعا مستكينا مثل جرذ يستقبل الموت، وضاعت الكلمات من حلقه كأن لسانه قد أصابه شلل، وشعر أنه على وشك تبليل سرواله، وارتاح سرواله لما أعاد نائل ناظريه إلى الأسير لثوان ثم تحرك قاصدا الذهاب لقلعته فصاح الأسير:

ـ ماذا ستفعلون بي الآن؟، لقد تحدثت بكل ما أعرف، أقسم.

فرد عليه أزرق:

ـ هدأ من روعك، لقد أعطاك القائد كلمته.

«ماذا هناك يا فتى؟!» تساءل نائل وهو في طريقه لقلعته عندما جاءه أحد رجاله برسول قادما للتو من العرين الذهبي.

أجاب الرسول:

- السلطان صلحان يستدعيك لاجتماع المجلس وفقا لميثاق الرجال.

فقال نائل غير مكترثا:

- كالعادة أيا كانت القرارات التي سيتخذونها أنا موافق عليها.

وهمّ ذاهبا في دربه فاستوقفته كلمات الرسول:

- السلطان يخبرك أنه ليس اجتماع شورى، سيدي القائد الأعظم إنه اجتماع رسمي بالغ الأهمية وينبغي عليك التواجد، هذه رسالة السلطان لك.

# 17

صخر...

كان الأفعى يسير بخطوات ضيقة متسارعة عابرا ممرات القصر قاصدا قاعة العرش الذهبية ونظرات التبجيل والرهبة تلاحقه من الخدم والحراس على حد سواء، دروعه البرونزية التي تغطي جسده المتين الأقرب للقصر تبدو براقة عليه أكثر مما تبدو على الآخرين كأنها خلقت خصيصًا لأجله، له وجه مبهم التفاصيل مثل دواخله ودوافعه، لا تعلم إذا كانت بشرته بنية أم حمراء، ولا تعلم إذا كان شعر رأسه المسترسل ولحيته المشذبة جيدا، بني أم أسود، قسماته الرائقة وحيويته العارمة يظهرانه أصغر سنا بعشر أو عشرين عاما، شخصية فولاذية وعقل لا يرحم هو فخر آل سرد، هو رجل غير متوقع الأفعال ولو كان للموت رائحة فهي رائحة سيفيه المتسمين بالتعجيز والقابعان دوما حول خصره، إنه الحارس الأعظم القابض على أحشاء البلاد والمتلاعب بأقدارها، الأفعى كابوس العامة ومهاب الأسياد.

كان هو أول الواصلين للقاعة الذهبية لأجل اجتماع المجلس، جلس على الدرج الجرانيتي للعرش وأخذ يرمق الكرسي العاجي المطلي بماء الذهب بنظرات متعالية.

«أراك تنظر لما ليس لك يا صخر». أتاه الصوت فنظر من فوق كتفه فوجد قاضي القضاة «عارف السردي»، فقال بصوت رزين يشبه الفحيح:

ـ لولاي لكان رمادا، ولما كنت أنت هنا، لولاي يا أخي لكانت هذه الأمة هالكة منذ زمن.

غمغم عارف:

ـ بئس الأخوة إخوتك يا أفعى.

وأردف وهو يستشعر العابران من الباب:

ـ ها قد وصل رجالك.

ودخل اثنان، أولهما، يكتسي عباءة حريرية فضفاضة الأطراف، وعلى كل، لم تنجح في إخفاء سمنته المفرطة، وله رأس كبيرة ملساء وصدغان مترهلان وهكذا لغده، وهذا هو أمين الخزانة «صباحة الأدهم»، رجل المال في السلطنة وحامي خيراتها وموزعها.

والآخر، يكتسي زيا أسود، بنطالا وفوقه قميص متدلي حد الفخد ومزركش بالذهب وهناك حزام أبيض يشد خصره ومرصع بكثير من الأحجار باهظة الأثمان، جسده ضخم وذو كرش صغير وشارب أبيض كثيف وله من الملامح أغلظها وأحمقها، وهذا هو أكبر الشرطة «مارد العنتبي»، رجل الأمن في البلاد يمتلك سلطة حديدية ويد باطشة غاشمة وآلاف العيون المزروعة في كل حجر في عظمويل.

هذان رجلان يتعمدان إظهار الولاء لصخر ثم تأتي مصالحهم الشخصية، ضبعان تطاردهما السمعة الكريهة ويتميزان بخصال الخسة والدنائة، الأفعى يراهم ماهران يجيدان ما يفعلان ومهمته هي كبح جموحهم التطلعي الطامع، ويكرسهما لما يرغب أو يرى أنه الصواب.

بنبرته السمجة تساءل صباحة:

ـ إلى أين أنت ذاهب يا قاضينا العزيز؟!

أجاب عارف وهو في طريقه إلى الباب:

ـ سأتفقد الأحوال إلى أن يصل البقية.

ثم توقف وتنقل بنظره إلى ثلاثتهم وتساءل:

ـ هل يعرف أحدكم لماذا استدعانا السلطان.

فأعادوا عليه نظراته بمثلها المنمة عن عدم دراية فتمتم:

ـ غريبة.

وأخذ طريق الخروج.

راقب صخر أخيه حتى اختفت طرقعات عصاه واطمئن لذهابه ثم قال:

ـ لقد فجرتما.

فرد عليه «مارد» متخابثا:

ـ حاشا الله، كله يهون في سبيل المسعى العظيم لسلطاننا الملهم.

«أنت ذكي، ذكي للغاية». قال صخر مستهجنا، ثم قبض يمناه ووجه ضربته إلى أسفل بطن أكبر الشرطة، احتقن وجه مارد وانحنى جسده

الضخم، وأمسك مكان الضربة، وجاهدا حاول كتم أنات الألم، فأعدله صخر وأمسكه من تلابيبه وقال مهددا:

ـ لا تتذاكى علي ثانية أيها المخنث.

فتدخل صباحة بينهم وبصعوبة تمكن من إبعاد الحارس الأعظم عن صاحبه، فتوجه إليه صخر وقال موبخا في سخط:

ـ وأنت أيها الخرتيت، كيف تسمح لهذا الغبي أن يسحبك خلفه كالخروف.

بصق وأردف:

ـ اسمعا وافهما، الضرائب التي ستفرض على الشعب باهظة لم يسبق أن شهدت البلاد مثلها، وبكل تأكيد دبرتم لكم ولرجالكم ما يكفيكم ويفيض، فلا داعي للنهب والإتاوات، لا نريد أن يتكرر ما حدث أيام أشبوب.

قال صباحة بنبرة ماكرة سمجة:

ـ رجالنا، رجالنا أيها الحارس، ونحن لا نعطيهم إلا حقهم، وكله لأجل أمن الوطن وأمننا!

ومحاولا جمع شيء من كرامته المهدرة قال مارد متوعدا:

ـ لا تمد يدك عليّ ثانية.

فاقترب منه الأعظم وشرارت الغضب تتطاير من عينيه، وفي الحال أردف الأكبر:

ـ ولن أفعل أي شيء بدون الرجوع إليك.

وكاد صخر أن يصفعه، ولكنه توقف لما أبصر شيخ الصالحين «أمين القيرواني»، مقبلا عليهم مبتسما ببشاشه كحاله دوما، ومرتديا

جلبابه الأبيض وعمامته الغير ملفوفة المسترسلة على أكتافه، وتسبقه لحيته البيضاء ورائحته العطرة؛ ألقى السلام ولم يجد مجيبا له غير صخر، وقصد طاولة وقبل أن يجلس دلف القائد الأعظم «نائل القرومي»، متدرعًا الفضي ومتشحًا المعطف الثلجي، فاحتضنه «صباحة» متصنعا الشوق وكذلك «مارد»، بينما يتبادل هو والأفعى نظرات الضغينة، ومن خلفه مباشرة دلف السلطان «صلحان»، المكتسي بثوبه الرسمي الأبيض الحريري المنقوش في قلبه أسد ذهبي ومقابله رمح شامخ والمتزين بالتاج النصف ذهبي والنصف برونزي، وأخيرًا حضر القاضي» عارف «، الذي انحنى هو الآخر بدوره ثم انتقل لطاولة وشرع في الإجراء الروتيني وهو إعلان بداية اجتماع مجلس الرجال وبعض الأمور الشكلية الأخرى، ولكن السلطان قبض على معصمه بخشونة فظة غير مألوفة وقال صلحان وهو يوقف القاضي المصدوم:

ـ لن نجتمع هنا، اتبعوني.

فتبادل عارف ونائل وأمين، نظرات تنم عن الجهل والتفاجؤ، بينما لم يظهر أي أثر للمفاجأة على وجوه الثلاثة الأخرين.

وما كان منهم جميعا غير اتباع السلطان.

خرج صلحان من أبواب القصر، وكان الجو باردا، ولم يكن هناك مطر والشمس اللينة تسير إلى قلب السماء متؤدة، ثم اتجه يسارا والتوجسات والتساؤلات تملأ قلوب نصف مخلوفيه، فتوجه يمينا وقبل أن يصل الإصطبل توقف حيث الأصهب واقف، توقف أمام أبواب حديدية صدئة لحجرة يتيمة، لا تلائم روعة محيط القصر الفاره، حجرة لا تزيد مساحتها عن ثلاثين متر، مكتئبة، مبنية بحجارة جبلية سوداء، أردأ من أن تكون جزءا من هذا الصرح العظيم.

فبادره خادمه المتحمس:

ـ عملت مع الحداد طوال الليل لإزاحة تلك المتاريس اللعينة.

وبيمناه مسح جورشبيل شعره الأحمر ثم صفق ثلاث، وأردف وهو يدفع الباب الحديدي بقدمه:

ـ أهلًا بكم في مجلس الرمح.

وهمّ صلحان الدخول مع حارسه الأعظم.

«ما هذا الجنون». صاح عارف غاضبا فتوجه إليه صلحان وقال:

ـ تهذب وأنت تحدث سلطانك يا عارف.

فقال عارف:

ـ واجبي أن أنصح سلطاني، وسلطاني تفنن في إقصائي، الآن فقط عرفت السبب، أنت تعرف من البداية أني لن أوافق على تلك الكارثة.

قال صلحان وهو يرنو من القاضي:

ـ حقا؟!، نبوءة المستقل وحلم البطل أصبحوا كارثة، هل كانت عندك الجرأة لتثرثر بتلك الهرطقات في عهد جدي أو أبي، هيا يا رجال لنحقق الحلم وليرقد أشبوب مرتاحا في قبره.

«فُق من أوهامك أيها الفتى الغرور، فأشبوب كان مخبولا»؛ شطحت من حلق عارف، فاستشاط صلحان وصب جام سخطه على القاضي المتعرق حيث قال بأعلى صوته:

ـ أنا صلحان الثالث بن ملكان من دم المستقل، حامي المدن الثلاثة عشر، وعاهل الأقاليم الثلاثة، سلطان عظمويل،

والحاكم بعهد الأول والأخير، أقرر، أولا، إعفاء المدعو عارف بن مكروم السردي من منصبه، ثانيًا، القبض على المدعو عارف بن مكروم السردي وإحالته لمحاكمة عاجلة بتهمة إزدراء الذات الأشبوبية.

ثم نظر إلى صخر وقال:

ـ أيها الحارس الأعظم، نفذ في الحال.

كالصاعقة نزلت تلك القرارت على صخر، وما كان منه إلا الامتثال لقرار سلطانه، وجر أخوه عارف إلى المحبس.

«أخبروه الحقيقة، التاريخ لن يرحمكم، أوزار هلاك هذه الأمة ستحملها أعناقكم إلى أبد الآبدين، التاريخ لن يرحمكم»؛ كانت هذه هي أخر كلمات عارف لرجال المجلس وهو يساق إلى محبسه، ولم يستجب لاستغاثاته أحد على الإطلاق.

قال نائل:

ـ ذلك خطأ جسيم يا صلحان.

ورد عليه صلحان وهو يخطو داخل مجلس الرمح:

ـ اطمئن يا عمي، لن أهينه، فالعجوز قد ولت أيامه في المشورة، وكان لزاما علي فعل ذلك، فعارف سيكون عائقا لمسعانا العظيم.

مجلس الرمح أو الحجرة الحديدية، حجرة لا تتجاوز مساحتها الثلاثون مترا مصمتة لا نافذة فيها، بدائية إلى أقصى درجة، هناك منضدة مستطيلة حديدية وبضع مقاعد حديدية ولا شيء آخر، جلس صلحان على رأس المنضدة وعن يمينه جاء تباعا، القائد الأعظم وشيخ الصالحين، وعن يساره، جلس الحارس الأعظم، وأكبر الشرطة، وقهقه الجميع عندما سقط المقعد الحديدي البالي بأمين الخزانة.

ووراء السلطان وقف خادمه المقرب، الأصهب، الذي استغرب الكل وجوده ولم يتطرق أحد للسؤال عن ذلك.

رفع مارد يديه من على المنضدة وتساءل وهو ينفضهما من الصدأ المتعلق بهما:

- من سيعلن بدء الاجتماع، بدون القاضي سيكون هذا المجلس باطلا.

ساخرا قال صباحة:

- وما أدراك أيها المتحاذق؟!، فطبقا لميثاق الرجال، إذا كان منصب قاضي القضاة شاغرا، فإنه ينوب عنه في الإعلان عن إنعقاد المجلس شيخ الصالحين.

«أنا أمين القيرواني شيخ الصالحين، أعلن انعقاد مجلس الرمح رقم مائة وإثنان وخمسون بحضور كلا من (  )، بتاريخ، اليوم الرابع عشر من فصل الشتاء لعام سبعمائة وثلاثة بعد الاستقلال»

أنهى أمين الفاتحة القانونية لمجلس الرمح ثم دونها في الدفتر المخصص، فناول جورشبيل ورقة لصلحان الذي أخذ يتلو مضمونها:

- على مر التاريخ تجرعنا أهوال الغدر من الجنادرة، ناقضي عهد عظمويل وبائعي دمه ودم الشهداء الأوائل، ولا ننسى تآمرهم مع بني مراس على اغتيال المستقل ياقوت، وكذلك ما فعلوه تلك الليلة الحمراء من مجزرة شنعاء في حق الأبرياء، ومؤخرا أهدروا دم أكثر من ألف فارس من الفرقة الحدودية بخسة ووضاعة، إذن لا تهاون في الدم بعد الآن، لقد حان الوقت لكي نستأصل ذلك المرض الخبيث، لقد حان الوقت لكي نثأر لدماء أجدادنا وأبنائنا؛ أنا صلحان بن ملكان من دم المستقل، حامي المدن الثلاثة عشر، وعاهل الأقاليم الثلاثة، سلطان عظمويل، والحاكم بعهد الأول والأخير، أعلن الحرب على غولية جندرة، وليحفظ الرب رمح المستقل شامخا.

ساد الصمت لوهلة ثم قطعه نائل:

- لم يسقط أي جنود.

فتسأل صخر متهكما:

- وما أدراك أنت يا ليث البحر؟!

وقبل أن يحتدم النقاش تحدث صلحان:

- لا يهم، المهم هو أن هذا البيان سيذاع للشعب، وسيكون هناك جنازة مهيبة لتشييع الشهداء، هيا حان وقت التصديق على المسعى العظيم.

وسريعا تعلقت الأعين بأمين، فدفتر مجلس الرمح بين يديه، أمين الغير مقتنع بهذا الأمر برمته، لا يجرؤ على التصريح بذلك على الرغم من الشكوك التي تساوره، وعلى العموم سيتم الأمر سواء وقع أو لا، وفكر أن دور الصالحين دائما كان بعيدا عن أمور السياسة والحرب، فأمسك الريشة وبيد مرتعشة وقع وقال:

- الخطباء على المنابر سيضرعون بالدعاء لأجل المسعى العظيم، وليوفق الله السلطان إلى ما يحبه ويرضاه.

وناول الدفتر والريشة إلى أمين الخزانة المقابل له، صباحة لم يتردد لحظة وصدق هو الآخر، فدوره سينحصر في توفير الموارد والمال، وبالتأكيد رجل مثله يعرف كيفية الاستفادة من ذلك أمر، وقال:

- سوف أدرس الموضوع، وأحدد الميزانية المعقولة، وعليها سأقر الضرائب اللازمة، وأوفر الغلال الكافية، وبالطبع سيتحمل الشعب مسئولياته بسعة صدر.

وهكذا وقع مارد هو الآخر وقال:

- سيبدأ رجالي في الترويج للمسعى العظيم من الآن، لن يتوانى أي شاعر أو صاحب كلمة مسموعة عن خدمة وطنه.

وبدون أن يعقب أو ينطق حتى وقع صخر، وانتقل الدفتر إلى يد القائد الأعظم؛ بالفعل نائل ليس سياسي بأي نوع من الأنواع ولا يفقه عن أحوال البلاد، وهو محارب من الدرجة الأولى والأخيرة، وعلى الرغم من عدم اقتناعه بأسباب السلطان أو أهدافه التي ثرثر بها، ولكن غريزته العسكرية غلبت قناعاته، وبدا أكثر المتحمسين لقرار الحرب فأخيرا سيحظى بمعركة حقيقية ربما تخلد ذكراه لقرون، ولم يوقع فلقد أزاح الدفتر جانبا وقرر أن يفيض بما في نفسه من توجسات حيث قال:

- من الواضح أن غالبيتكم كانوا على علم مسبق بقرار الغزو، وتغافلتم عن أني أنا أهم حجر في هذه اللعبة، ولم يكلف أحدكم ذاته عناء الإرسال لي طلبا لرأيي في مسعاكم العظيم، وهذا كله لا يعنيني، ولكن ما يعنيني حقا هو أنكم تجلسون هنا في غرفكم المتكلفة وتدبرون لأمر خطير، وتتغافلون عن مصائب الأزرق وأهواله، يجدر بي اخباركم أن البحر لم يعد أمنا لنا ياسادة.

في ضيق تساءل صلحان:

- وما الذي جد في البحر يا عمي؟!

من حزامه الجلدي أخرج نائل مطويتين، وفرد الأولى وأعطاها للسلطان وهو يقول:

- هذه رسالة من سمندا تعلمنا أنها تتحرك ناحية الجزر الماريكية.

فقال صباحة:

- وما في ذلك أيها الأعظم، إنهم يحترموا لذلك، إنهم يخبرونا بتحركاتهم في البحر كما تنص الاتفاقية.

«لا تحدثني عن الاتفاقية» قال نائل وأضاف وهو يشعل غليونه:

- فالجميع يعلمون أن السماندة ناقضي عهود، خونة، طامعون في أرضنا منذ فجر التاريخ، وإذا كانت جندرة هي من باعت دم عظمويل والشهداء الأوائل، فسمندا هي من أهدرتهم، يا سادة سمندا ملكت الجانب الآخر من البحر ويتحركون الآن صوب الماريكية، خمنوا ما خطوتهم التالية.

ثم ناول السلطان المطوية الثانية وقال:

ـ لقد نضبت البحار من القراصنة.

فقاطعه مارد:

ـ هذا أمر ممتاز.

ولم يعر نائل أي اهتمام لكلمات أكبر الشرطة واستطرد:

ـ آلاف القراصنة اختفوا فجأة كأنهم لم يكونوا، الهمسات تقول إنهم يتبعون كيان شيطاني يدعى الصقر، وأتباعه يطلقون على أنفسهم عباد الصقر، على مدار الشهور الماضية استجوبت أنا ورجالي العديد من البحارة والقراصنة المولين أدبارهم للصقر، لقد حدثوني عن خرافات مستحيلة التصديق، تكلموا عن إله بهبات سحرية، مثل التعايش تحت الماء والتحكم في الرياح وأمواج البحار، على العموم وصلتني هذه الرسالة من رجالي منذ ساعات قليلة، يخبروني فيها أنهم قبضوا على أحد عابدي الصقر، انهالوا عليه تعذيبا، قطعوا أوصاله وأخصوه وفقعوا عيناه، وطوال ذلك ظل يردد عبارة واحدة، أتعلمون ما تلك العبارة التي استمر في ترديدها حتى الموت؟ «لقد سقطت الثلوج على جبل أثانول، والأسود العاوي نكح الذهبية، والصقر قادم ليطالب بحق أجداده»؛ هذه هي العبارة التي استمر يرددها لساعات حتى ناله الموت!

تساءل أمين القيرواني:

ـ ماذا يعني ذلك؟

أجاب نائل:

ـ أنا لا أعرف إلا صقرا واحدا، هل تتذكرونه؟

قال صلحان متشككا:

ـ بني صقر!،لقد أبدناهم قبل زمن.

وأضاف صباحة:

ـ لا، لا، مستحيل، لقد محاهم البطل عن بكرة أبيهم

فقال مارد:

ـ حتى وإن كان، أعدكم إن شكل ذلك الصقر علينا أي تهديد، سوف أنكحه أمامكم.

جمع صلحان رباطة جأشه ولكم الطاولة وقال:

ـ دعنا من خرافات البحر، يجب أن ننهي جندرة سريعًا.

فخرج صخر عن سكوته وتساءل:

ـ وكيف سنتخطي ذلك الجدار الرهيب؟، ارتفاعه يزيد عن المائة متر، الحرب ستدوم سنين.

رد صلحان:

ـ لن نجعلها تدوم سنين، اجمعوا كل الخشابين والحدادين في البلاد، واصنعوا السلالم.

تساءل نائل وهو يحك لحيته الفضية الهائشة:

ـ وماذا إن ضربتنا سمندا ونحن منهمكون هناك في الجنوب؟

ومتهكما رد صخر وهو ينظر للسلطان:

ـ يبدو أن المحارب الفذ، نسى إستراتيجيات أعداءه، أيها السلطان الحصار هو طريقة سمندا، ولن يحتلوا الماريكية

بعد عام من الآن على أقل تقدير، وحتى وإن خالفوا عاداتهم فلن يجدوا جزر الذهب لقمة سائغة.

ومتهكما هو الآخر تساءل نائل:

ـ وهل نسى الأفعى رحيق جهنم؟!

فقال صلحان:

ـ اهدأوا، لقد استنزفت سمندا مخزونها من رحيق جهنم، ولا يملكون الإمكانيات الكافية لصنع المزيد في الوقت الراهن على الأقل.

اندهش الجميع من حديث السلطان، فكيف له بمثل هذه المعلومات الدقيقة، وفطن صلحان نظرات رجال مجلسه فأردف وقد اعتلى وجهه نصف ابتسامة:

ـ إذا كانت سمندا تلعب من خلف ظهورنا، فأنا أعبث في أحشاؤها، نعم، لي حلفاء أقوياء في سمندا، وفتح جندرة ليس إلا أول خطوة في مسعانا العظيم، كلكم تعلمون أن الجنادرة لا يضاهون نصف جيوشنا براعة، أود أن أنتهي من أولئك المزارعين سريعًا، وبالغنائم التي سأحصدها سأتحرك صوب سمندا، هذه هي فرصتنا لتحقيق طموحات أشبوب ومن قبله ياقوت، الغزوات الكثيرة والأراضي الشاسعة، أنهكت جيوش سمندا ومواردها، سوف أضربهم من البحر ولكن الضربة القاتلة ستأتي من قلبهم، أعاهدكم أيها السادة أني سوف أخضع العالم لرايتنا، أعاهدكم أني سوف أعيد أمجاد الغيلان من جديد.

ما زالت الدهشة جلية على رجال المجلس وزاد عليها علامات الإعجاب، ولكن كان هناك شخص يتلقى الصواعق تباعا، شخص ظن أنه تمكن من ترويض الشبل الغرور مسبقًا، الأفعى ظن أنه يتلاعب بصلحان، والآن فقط اكتشف أنه بالغ في الاستهتار به ولم يمنحه التقدير المناسب، صخر اكتشف أن صلحان يتلاعب بالجميع.

وبرغم الإعجاب قال نائل:

ـ لا تضع ثقتك في سمندي، أيا كانت وعودهم لا تصدقها.

فقال صلحان:

ـ أنا لا أثق في الوعود يا قائد جيوشي، أنا أثق في الأفعال، خلال اليومين السابقين دخلت خزائن البلاد مليون سبيكة ذهبية أرسلهم حلفائي السماندة سرًا.

وعندها قذف صخر نظرات نارية نحو صباحة الذي ردها عليه بأخرى بلهاء فهو الآخر لا يعلم عن أمر الذهب السمندي شيء، والتفت صلحان إلى الواقف خلفه وقال:

ـ تحدث يا جورشبيل.

فتحدث جورشبيل:

ـ الآن في سمندا تتعالى الكثير من الأصوات ضد الملك، العديد من العائلات القوية ذات الشأن ضاقوا ذرعا بالحروب وويلاتها المدمرة، وبرغم الانتصارات المحققة إلا أن الأغلبية تمقت الملك الجشع الذي يأخذ من الشعب ولا يعطي فكل الغنائم تقسم على فئة صغيره من القادة، وأنا في الأصل ولدت لعائلة ثرية ذات نفوذ في سمندا، كيف

أتيت لهنا وكيف صرت عبدا؟، تلك قصة طويلة وليست مهمة الآن، المهم بناء على طلب السلطان تواصلت سرية مع أفراد عائلتي في سمندا وتعهدوا بالمساندة والدعم للسلطان في مسعاه العظيم، وحاليًا يعملون على قدم وساق لجمع المزيد من الحلفاء.

أخذ نائل نفسا خاطفا من غليونه وتسائل:

- وما المقابل؟!، اعذرني يا فتى، ولكن حتى لو كانت عائلتك ضد الملك الظالم كما تقول، فهم في الأول والأخير سماندة، لن يفعلون شيئًا بدون مقابل، وبالذات لو كان أمرا خطيرا كهذا.

«أصبت أيها القائد الأعظم»، قال جورشبيل وابتسم وأكمل:

- بالفعل أهلي سماندة ولن يقدموا شيئًا بدون ثمن مجزي، وبالفعل أرسلوا مطالبهم للسلطان مسبقا والسلطان أعطاهم كلمته.

وبفظاظة تساءل مارد:

- وما المقابل أيها الخادم.

أشار السلطان فأجاب جورشبيل:

- مساحات إضافية من الأراضي، ونفوذ أعمق، وعدهم السلطان بمقعد في مجلسه وكذلك صلة الدم، النسب.

قال نائل:

- ما كنت أتوقع أقل من ذلك.

ثم وجه سؤاله لصلحان:

ـ أينوي السلطان الزواج ثانية؟!

ضاحكا قال صلحان:

ـ لقد تفاوضنا في هذه النقطة، واكتفوا بأمير مرموق من آل قروم، استعد يا عمي حان وقت تزويجك، فجورشبيل أخبرني أن لديه شقيقة فائقة الحسن.

انهمر المجلس في الضحك وقال نائل:

ـ لا، ابحث لها عن أخر.

فقال صلحان:

ـ أمامك فترة الحرب مع الجنادرة لتفكر.

قهقه القائد الأعظم ووقع مصدقا على قرار الغزو.

«حسنًا، سنتحرك مع بداية الصيف»، قال صلحان وهو ينتصب واقفا معلنا انتهاء مجلس الرمح رقم مائة واثنين وخمسون.

# 18

## وكر الذئب...

على قمة ثلجية لجبل غير معلوم المكان ولا الاسم، خضعت لبؤة ذهبية المحيا لذئب أدهم حيث كان الذئب يضاجعها بعنف وكأنها المرة الأخيرة، وبالجوار استلقى سبع عجوز واهن، استفشى المرض في جسده الأجرب ويذرف دمع الخنوع، وكان هناك صقر جارح ينقر بطنه المنتفخة بغل، اختلط نعير اللبؤة المنكوحة بصوت دخيل على هذا العالم، صوت دقات، طرقات على باب خشبي متهالك، أيقظته من نومه.

تمتم:

ما بالك ياحمزة...؟! وقام حمزة ليلبي نداء الطارق المتعجل وتجنب التعرقل في كومة الكتب الخاضعة بجانب مرتبته القطنية.

فتح الباب الخشبي المتهالك ولم ينزعج من صريره فوجد أمامه المراهق زيد، فتساءل:

ـ ماذا هناك يازيد؟!

وأجاب زيد وهو يطير:

ـ صديقك آسر ينتظرك في مقهى عقبة يا راوي.

«هذا ليس موعد عطلته»، تمتم وارتدى جلبابه ومن فوقه فراء صوفي ولف عنقه بالشال وخرج قاصدا مقهى الشيخ عقبة، الحين حين عصر والسماء ملبدة بغيوم رمادية منذرة بليل وفير المطر، هاله عدد العسكريين المنتشرين في شوارع المدينة، فالجيش لم يتواجد في الجنوب منذ ثورة «السالم كارم بن عديل الحوراني»، ثورة! بالفعل حمزة يعتبرها ثورة، ثورة على استبداد آل قروم وثورة على ظلم وطغيان أشبوب، ثورة راح ضحيتها على مدار سنوات حوالي مائة ألف من الأبرياء، وأنشودة أعدم بتهمة المشاركة في تأليفها ألف كاتب وشاعر وساحر، تمنى أن يطلع على كلمات تلك الموصومة بالسواد، ولكن لا أثر لها في أي مرجع، وزبانية أشبوب لم يدعوا حامل لها يتنفس، نعم حمزة كان يراها ثورة صادقة، ولم يصرح بذلك لأي مخلوق.

مسبقًا وبناء على نصيحة صاحبه، ارتحل حمزة للشمال، وكانت وجهته العاصمة، فلقد حط رحاله في العرين الذهبي، تنقل بين العديد من المقاهي ودور الشعر هناك، واصطدم بالواقع المتدني للعاصمة، وجد العرين مرتعا للمنافقين والمتلونين والمغرضين الأفاقين، رجال تظنهم الجبال شامخة، ولما تسقط عنهم الأقنعة لا تجد إلا مسوخا مبتوري الرجولة، كثعالب مخصية، ونساء يوهمن القديس أنهن أنقى وأطهر، والحقيقة أنهن لسن سوى غواني الثعابين.

أرباب القلم هناك لا يتوانون عن التطبيل لكل صاحب سيادة أو نفوذ أو مال، لقد سمع أحدهم يتغزل في عاهرة مرة لأنها لا تضاجع إلا الفرسان، وثاني يمجد مالك مقهى ابتغاء نقودا إضافية، وآخر يتغنى

ببطولات بصاص شرطة، وهناك من يعظم جزار وأكثر من الأشياء الأتفه التي يتشدق بها المنتفعين، في العاصمة البشر يبيعون مبادئهم بأبخس الأثمان، وجميع الأغاني والقصائد والحكايات تنتهي بخاتمة واحدة، مقدسة كتميمة سماوية، يعيش السلطان، يحيا الجيش، تحيا الشرطة، المجد للأسود، اللعنة على الجنادرة.

ولكل ذلك لم يستطع حمزة التكيف على أجواء العرين، ولم يستقر هناك أكثر من بضع شهور، وحمل أمتعته عائدا إلى حيث ينتمي إلى وكر الذئب، العاصمة مستنقع من الخراء، هكذا رآها، فلو كان الجنوب يماثل العاصمة في المحظورات فإنه لا يماثلها في المفروضات، على الأقل هنا يشعر أنه بشر من دم وعقل وليس دمية سخيفة يتلاعب بها أي مغرض حسب أهوائه، عاد لعقبة ولم يجد الشماتة التي توقعها، فالشيخ نصحه بعدم الذهاب وأخبره أنه لا مكان لأمثاله هناك، على كل، الشيخ لم يتطرق لأسباب عودته البتة وما زال يسعى خلف ديونه!

تعانق هو وآسر وداعب عمارة وقلب عمق المقهى بعينيه، فأبصر عشرات العسكريين، منهم من يكتسي سترات جبلية كصديقه، ومنهم النشابة مكتسي السترات البنفسجية، والزرق البحريون والحمر الحدوديون، وهو يجلس نطق:

ـ معك صحبة.

فقال آسر:

ـ طبول الحرب دقت، ولقد كلفتنا القيادة بتدريب المجندين، والآن هناك في كل مدينة مجموعة مثل هذه، لاستدعاء القادرين وتدريبهم على أفضل نحو ممكن.

لمع اسم آسر بن جواد الحق بين فرقته، أصبح أحد أبرز الجبليين، قتل ستين صعلوكا حتى الآن ولم يعد الإقدام على سلب الأرواح يوتره، تم تلقيب سيفه بالباتر لما شوهد منه من براعة في قطع رقاب الأعداء، وتلك أضحت طريقته المفضلة في السفك، حدثه قائده، أنه فارس له مستقبل مشرق وكثيرًا ما أثنى على قدراته، ورشحه لفرق أعلى مكانة، أخلاقه الجيدة وفؤاده الصخري، وجرأته الغاشمة، وسرعته في القتال، جعلوه مضرب المثل في التفاني، وعديدون يشبهونه بالفهد، وقليلون يلومونه على تهوره في التباري الذي قد يودي بحياته يومًا، ونزل خبر إعلان الحرب على غولية جندرة على قلبه المحترق كهبة ربانية، فلقد حان أوان الثأر والانتقام لدم والده الفارس جواد الحق.

حك حمزة لحيته الشعثاء وقال وهو يخطف نظرة لعقبة القاعد في الطاولة المجاورة منتصية المقهى:

ـ الشيخ متوتر!

فتساءل عمارة مستنكرا:

ـ وما أدراك يا نابغة عصرك؟

أجاب حمزة:

ـ إنه يفرك الرقعة أكثر من المعتاد.

وأضاف آسر مازحا وهو يشير إلى جنبات المقهى المملوء بالرواد:

ـ وجب عليه التوتر، كيف سيحصي كل هذه النقود؟!

لا جديد يذكر في حياة عمارة، فما زال العازف يقاوم العثرات ليسد احتياجات والدته المريضة وما زالت ديونه تتثاقل وكذلك عمله، وما زال عقبة يؤنبه والآخرين يقللون من موهبته، وما زال ثغره باسما، وقلبه طيبا

متفائلا ولم تنقشع البشاشة عن وجهه، وما زال حمزة يناقره وآسر يشد من أزره ويشجعه.

اقترب المساء وتخضب الغرب الأعلى باحمرار شفقي، وشرع صبي المقهى في تزويد المشاعل بالجمر واسترسلت السماء في صيبها، وتحت زخات المطر وصل إلى المقهى، حاكم القلعة، كبير الشرطة «معلول»، ومعه خمسة من الغربان، محملين بأواني نحاسية تحوي طعاما وفاكهة، وزكائب خبز، ورحب بوفد الجيش وتملقهم كثيرًا ووزع عليهم الطعام وأخبرهم أن رجاله أعدوا المساكن التي سوف ينزلون بها، وأن ميدان الذئاب جاهز ليكون حقل تدريب المجندين، وأن كل شيء مسخر لخدمة الوطن، ولم تخلوا تملقاته من بعض العبارات مثل، «أرواحنا وأبناؤنا فداء لعظمويل، يعيش السلطان الغازي وتحيا الأمة، كل التوفيق في المسعى العظيم».

ثم توجه إلى آسر وتحدث في احترام:

ـ أيها الفارس يسعدني أن تشرف القلعة بزيارتك.

ورمق عمارة وحمزة بنظرات متعالية وأردف:

ـ مكانك ليس هنا، سأنتظرك يا فخر مدينتنا.

ثم جلس إلى عقبة الذي تقزز ولم يبدِ أى اهتمام وأخذ يحدق في الشمس الراحلة والسماء الممطرة، وهو يسحب أنفاسا متسارعة من غليونه، وقبل أن يمسك الكوب الفخاري المحتوى شايا تناوله معلول، واحتسى رشفه طويلة وقال:

ـ تأخرت عن دفع حق الوطن يا عقبة.

رد عقبة:

ـ لقد سددت كل ضرائبي.

فأضاف معلول بمكر لا يتماشى مع ملامحه الطفولية ولكنه يطابق صفات الغربان متبوعي المارد الباطش:

ـ أنت لا تعرف، حقا؟!، لقد تم فرض حقوق جديدة للبلاد صباح اليوم.

تساءل عقبة وهو يحاول جاهدا كتم غيظه:

ـ وهل كل التجار دفعوا؟!

زمجر معلول وقال:

ـ من لا يدفع فهو خائن وأنت تعرف ما جزاء الخيانة يا عقبة، هيا أيها البائس سدد جزء من أفضال عظمويل عليك، فإخوتك ذاهبين للحرب من أجل رفعتك.

«حسنًا، سوف أرسل لك المال في الغد»، تحدث عقبة وقام ودلف مقهاه وتجاوز الجميع حتى وصل لنهايته حيث الصبى منهمك في إعداد المشروبات، أزاح ستارة قرمزية، ثم فتح الباب الخشبي ودخل إلى حجرته وأوصد الباب جيدا، جلس على سريره لوهلة ثم قام وانتقل إلى الدولاب، وتناول صندوقا نحاسيا صغير مكعب الشكل، وعاد إلى السرير، فتح الصندوق، ولم يكن يحتوي سوى قلادة فضية، تحمل صورة لصبية فاتنة، بالكاد استرجع عقبة ملامح وجهها الخمري المشع حماسا وإصرارا، والذي كادت السنون أن تمحيه عن القلادة وعن عقله، فخانت دمعة عينه، وغمغم في شوق مشوب بالندم «أفتقدك ياقمر، سامحيني».

وهو يومئ ناحية معلول الذاهب قال عمارة هامسا:

ـ لا أحب ذلك الرجل.

فقال آسر:

ـ ولا أنا.

مر قطيع من الكلاب الضالة، فجفل عمارة وانزعج لما توقف أضخمهم وتبول تحت الصفصافة المقابلة، وابتسم حمزة متخابثا، وهو يلقم غليونه متسائلا:

ـ ما فرصتكم في اجتياز ذلك الجدار الحصين يا آسر؟

فابتسم آسر متخابثا هو الآخر وأخرج من جيبه مطوية ورقية صفراء وأعطاها لحمزة وقال:

ـ يمكنك أن تعرف بنفسك.

تفاجأ حمزة وفتح المطوية واطلع عليها سريعا، فثبتت شكوكه، وتمتم حانقا:

ـ تبا، استدعاء للتجنيد!

ثم زفر بخارا كثيفا وأكمل متهكما ساخطا:

ـ سوف أقاد للموت في سبيل مجد الأسد الذهبي، وليبقى الرمح شامخا!

غضب آسر من حديث صاحبه ولم يظهر وقال ملطفا:

ـ لا تكن متشأما يا أخي، وحتى إن حدث، فما أعظم الشهادة.

وبذات النبرة التهكمية الساخطة قال حمزة:

ـ أنا لا أمانع الموت في الحرب، ولكني أكرهه بمفهوم بلادنا، ستراق دمائي، وسيتاجر بها المغرضين، ستنتحب أمي وتذرف أعينها دما، بينما أبناء النبلاء، يتغنون بالنصر وهم ينكحون مومساتهم!

وبشيء من السخرية نطق عمارة:

ـ اطمئن يا بائع الكلام، أعدك إذا لقيت حتفك في تلك الحرب، فأنا سوف أتغنى بسيرتك طيلة حياتي.

«وهل تظن نفسك من أبناء الأشراف يا عمارة»، قال آسر، فتوجس عمارة، فأخرج آسر مطوية أخرى وأردف:

ـ امسك هذا هو استدعاؤك.

واعتلت الصدمة محيا عمارة وقال:

ـ أمي؟!

فقال آسر:

ـ الوطن.

وتمتم حمزة:

ـ تبا لأمك وتبا للوطن!

# 19

## الزحف...

تناحرت الغيوم واختفت، وصفت السماء مثل عقل رضيع، واشتدت الشمس وتوهجت، فلقد بدأ الصيف وأزف الوقت، حان موعد بداية التحرك والمسير صوب جندرة، وصلحان أتاها ليلقي كلمة وداع أخيرة قبل الشروع في أولى خطوات مسعاه العظيم.

بكت جنان فاحتضنها، ومتوسلة قالت:

ـ لا تتركنِ.

اعتصرها صلحان مطمئنا ثم قال:

ـ سأعود، أعاهدك.

«لماذا، لماذا كل هذا؟»، قالت جنان وشعر صلحان بسخونة دموعها تتسلل إلى صدره وتنحره، رفع وجهها ونظر مباشرة في عينيها الدامعتين وقال:

ـ لأجل شعبنا، ولأجلنا، ولنستعيد ريادتنا بين الأمم، لنعيد أمجادنا الخاوية.

ثم وضع يده بحنان على بطنها المنتفخة قليلا وأردف:

- يومًا ما سوف يحكم صغيرنا إمبراطورية مترامية الأطراف، وستحكين له كم التضحيات التي قدمناها في سبيل ذلك.

ابتسمت جنان ابتسامة فاترة وتعلقت به أكثر وقالت:

- لا تتأخر على جنانك.

بلمسات وديعة مسح دموعها العزيزة وقال:

- جناني سلطانة، وهي من ستقود عظمويل في غيابي، ويجب أن يراها الشعب قوية، ويستمدوا بأسهم منها.

قبض على يديها ثم أكمل:

- استشيري صباحة ومارد ولا تمنحيهم كامل الثقة، لن أصطحب الأصهب معي، خذي بنصيحته، إنه ذكي ومخلص وأهل للثقة.

لثم شفتيها وقبل جبينها وذهب في مسعاه.

احتشدت الجموع الغفيرة في ساحة المستقل لتحيي سلطانها الغازي ولتودع جيشها ولتبارك المسعى العظيم، وانهالت الورود والدعوات، كان صلحان يتدرع الذهب ويمتطي فرسه ناصع البياض، وعن يمينه الأعظم نائل وعن يساره الأعظم صخر، ومن خلفهم الفرسان والجنود، رحلة طويلة أمامهم، سوف يمرون بإقليم الوسط وسيلتحق بهم الفرسان والجنود المعسكرين هناك، وكذلك الأمر مع الإقليم الجنوبي، ومن ثم سيعبرون المنطقة الصحراوية التي تفصل عظمويل عن الغابة، والغابة ستكون المحطة الأخيرة قبل غولية جندرة.

كان صلحان يرد تحيات الحشود بثغر باسم ويسرى مرفوعة، عام من الحكم أضاف صبغة مشقة على محياه، الشيب بدأ يغزو رأسه، طالت لحيته ولم يعد يكترث بهندمتها، «الحرب دمار ولعنة لا رابح فيها يا ولدي»، كلمات أبوه تتردد في عقله ويزيحها بنبوءة ياقوت وحلم أشبوب وطموحاته الخاصة.

وها هو يخرج من العاصمة صوب أمانيه، ويتوسط رجلان يكن كل منهما الكره للآخر، الأعظمان يبغضان بعضهما بدون سبب واضح له، ويتساءل في نفسه «هل حقا الليث والأفعى كانا أخوين يومًا؟! «.

نائل رجل يعتز بشرفه كثيرًا، محارب نبيل الخصال ومعاون ذو ولاء لا تشوبه شائبة، أما صخر فهو رجل دائما ما حير صلحان، أحيانًا يستشعر أنه شديد الولاء للعرش، وأحيانًا يشعر أنه لا أمان له ولا ولاء، بالفعل صدق من سمى ذلك الغامض المتقلب بالأفعى، صلحان لم يجد صعوبة في ترويض الليث، ولكنه عانى الأمرين في سبيل الظفر بود الأفعى، استشف أن الشيء الوحيد الذي يقدسه صخر هو العائلة، ولهذا لم يؤذه في أخيه الأكبر عارف، فلقد ظهر أن صخر يحب عارف، برغم أنهما دوما كانا على خلاف، ومن في عظمويل لا يختلف مع الأفعى، ومن في عظمويل لا يمقت الأفعى، ومن في عظمويل لا يهاب الأفعى ويخشاه ويتجنب بخاته القاتلة؟!، ولكن السلطان كان يرى الأمر من منظور مغاير، فصخر يغنيه عن الكثير من هموم البلاد ويجيد إدارة شئون الشعب، بالإضافة إلى أن صلحان عرف كيف يرضي الأفعى الآن، وكيف قد يلجمه مستقبلًا أو يتخلص منه إذا تطلب الأمر!

على العموم صلحان لم يتمادَ في إهانة القاضي السابق، فلقد اكتفى بوضعه تحت الإقامة الجبرية في قصر آل سرد، تحت حراسة رجال صخر، واشترط عدم خروجه للناس أبدا، فعارف رجل يحترمه الشعب ويقدره، وكلماته تجد طريقها إلى مسامع العامة دوما.

وصل المسير إلى إقليم الوسط واستقبل بحفاوة شعبية عارمة، وبعد يومين من الراحة انطلق نحو الجنوب، وهناك اكتمل عقد الجيش، ستون ألف من الفرسان ومائة ألف من الجنود هم الزاحفون، بخلاف الأطباء والحدادين والخشابين والخدم، بينما ظل خمسة آلاف أزرق مرابضين في جزيرة القرش ومثلهم من البرونزيين في العرين الذهبي، وبعدما خرج المسير من المدن الجنوبية، كان عليهم قطع المنطقة الصحراوية الجافة قبل التوغل في الغابة وعندها تولى الأعظمان القيادة وتخلف عنهما السلطان المحاط بحراسه وحاشيته، ومن خلفهم توالت الفرق تباعا من أعلاها إلى أدناها، ثم الجنود في المؤخرة، وكانت مجموعات الاستطلاع تذهب وتجيئ، لتخبر الأعظمين أن الدرب ممهد وآمن، وأن الجنادرة لم يخرجوا من خلف جدارهم الرهيب.

من الأفق البعيد وعلى امتداد الرؤية بدت الخيول الغفيرة كأنها أسراب الجراد تقطع الصحراء ومن ورائهم الجنود كأنهم كل نمل الأرض وقد اجتمع عنوة على هدف جرادي.

شمس حامية الوطيس انعكست حمومها على الكثبان الرملية فأشعلتها حرارة، وبان أثرها جليا على وجوه الجنود المتعرقة وأجساد الفرسان الملتهبة.

«لقد ابتعدنا فلننتظر هنا حتى يلحقونا»، قال نائل وهبط من أعلى فرسه فاتح الحمرة، العملاق مثله، وافترش الأرض وأسند ظهره على صخرة ناتئة، فقفز صخر من على صهوة جواده الأسود الرشيق الخفيف، وأسند ظهره لأخرى ناتئة تقبع بجوار صخرة نائل الذي أخذ نفسا خاطفا من غليونه وقال:

ـ لا أعلم كيف أقنعك بهذه الحرب.

فرد صخر وهو يتفحص قمم الجبال المتناثرة شرقا وغربا:

ـ كما أقنعك.

قال نائل:

ـ لم يقنعنِ بشيء، أنا عسكري، وقبل أي شيء أنا محارب، هذا واجبي.

فقال صخر بنبرته الفحيحة:

ـ وأنا كذلك.

قال نائل:

ـ لم تكن كذلك قط.

فسحب صخر سيفاه، وأشهرهم للأعلى وتساءل وهو يحدق فيهما:

ـ أتعلم لماذا أسموني الأفعى؟

اكتفى نائل بنظرة مستهجنة، فاسترسل صخر:

ـ لأني أقاتل كالأفعى وأفكر كالأفعى، وأحب أبنائي كالأفعى.

مستهزأ نطق نائل:

ـ تريد أن توهمني أن جميع ذلاتك كانت لأجل أبنائك.

قال صخر وهو يعيد سيفيه:

ـ لا أريد إيهامك بشيء.

وبنفاذ صبر قال نائل:

ـ لم تجبني يا أفعى، كيف أقنعك صلحان بهذا المسعى وأنت السياسي المحنك؟!

أجاب صخر وهو يبتسم بمكر:

ـ وعدني أنه سيوليني جندرة وسيتوارثها أبنائي من بعدي.

ثم أكمل ساخرا:

ـ ربما في المستقبل، ينحتون لي تمثالا من البرونز ويسجدون لي مثل جدك المستقل.

منفعلا حانقا نطق نائل:

ـ هل تقارن نفسك بالمستقل أيها الفاسد؟!

قام صخر وتناول قربة جلدية من سرج جواده وشرب، وقذفها لنائل، ثم قال:

ـ هذا الفاسد قدم لعائلتك ما لم تقدمه أنت أيها الليث العجوز.

فقال نائل وهو يرمي القربة غاضبا:

ـ أنا قضيت نصف حياتي في البحر لأجل هذه الأمة، وفي النهاية يأتي مجرم فاسد ليزايد على تضحياتي.

بهدوء قال صخر:

ـ ومتى خلت الأرض من الفساد؟، ماذا فعلت أنا؟، أنا فقط قننت الفساد، أيها الليث هل يمكنك أن تتخيل ماذا سوف يحدث لو استفشى الفساد؟، حسنًا فلنفرض أن حلم الأرض

الفاضلة تحقق، هل يمكنك أن تتخيل ماذا سوف يحدث لو اختفى الفساد من عظمويل؟!

قال نائل:

ـ لا تتلاعب بي أيها العاهر.

فأضاف صخر:

ـ أنا لا أتلاعب بك، أنا أخبرك الحقيقة، الواقع أنه إذا استفشى الفساد في البلاد، سيجوع الناس ويأكلون بعضهم البعض، وسوف يتمردون على التاج، ولك في عمك أشبوب عبرة، أما إذا امتلأت البطون، وضمنت الملاذات، لن يكتفوا، وسوف يتطلعون لأعلى ثم أعلى وأنت تعرف ما عاقبة ذلك، يا نائل الإنسان بفطرته جشع، والبطون هي مفتاح التحكم بالشعوب، ودوري أنا أن أجعل الناس لا يفكرون إلا في لقمة الغد وأن أوفرها لهم، لن أجعلهم يموتون جوعا، وكذلك لن أجعلهم يطمئنون لوجبة أبدا.

«إممم، حقًا أنت بطل، أعتقد لو سألتك عن دوافعك في قتل الأبرياء تلك الليلة، وما تلاها من ذبح للأطفال والنساء، لقلبت الحقائق وأخرجت مشهدا بطوليا» قال نائل ممتعضا متهكما، ففطن صخر إلام يرمي وقال:

ـ لم يكن عملا بطوليا البتة، ولكنه كان واجبا.

تساءل نائل:

ـ واجبا؟!!

أجاب صخر:

ـ أنا الحارس الأعظم، وولائي الأول للعرش، وحماية السلطان شرفي.

قال نائل:

ـ تتلاعب بي مجددًا أيها الأفعى، حقًا هل أنت تملك ذرة شرف واحدة؟

فقال صخر:

ـ لا أعلم، ولكني أحدثك بما تفهم يا صديقي اللدود، أم أقول يا عدوي الحميم، أيهما أصح؟!

ثم ظهرت طلائع الفرسان مقبلة، فاعتلى صهوة جواده الأسود الخفيف، وقال وهو يعدو:

ـ أتعرف أيها الليث إذا كنت تتفوق علي في شيء، فهو أنك حارق» هيبة سهم القدر» لا أنا.

تمختر الفرس الألقط متدللا بينما الجنود المرتجلين يرمقون راكبه «معيوف السندالي» بتقدير وإعجاب، الأغصان المتشابكة للأشجار العالية بعثت ظلالا مريحة افتقدوها الأيام الماضية، فبعد خمسة أيام في الصحراء القاسية دلفوا للغابة وما هي إلا سويعات ويمسوا أمام أسوار جندرة.

كان معيوف متخلفا عن أقرانه البرونزيين وعن سرب الفرسان أجمع، كان في المؤخرة حيث الجنود المرتجلين، إنهم يذكرونه بماضيه، بحياته الأولى هناك في الجانب الرخيص من العاصمة، الجنود يحدقون لدروعه البرونزية بنظرات لامعة أملة، ويطرحون عليه عديدا من الأسئلة

من نوعية «أود ان أكون مثلك هل ذلك ممكن؟، كيف ألتحق بالفرسان، أنا من عائلة فقيرة ماذا أفعل لأحصل على الختم السلطاني؟.

وإجاباته كانت مرضية لهم مثل،» كل شيء ممكن، صعب ولكنه وارد، اجتهد وطور نفسك أولا «.

جذب انتباهه شابٌ يسير بمحاذاته على بعد بضع أمتار، طويل، ممشوق القوام، أسمر البشرة، أشعث، يكتسي مثل كل الجنود سترة جلدية بنية اللون، وبنطال أسود، ويمسك درعا حديديا في يمناه، من مشيته المختالة الواثقه ظنه معيوف جنديا مقدرا، ولكن عندما أمعن النظر في وجهه وجده يشع بلاهة، فعرف أنه ليس إلا أحمقا مغرورا مغترا بعسكريته الحديثة، ولكن ما لفت انتباهه فعلا هو ذلك الشيء الذي يعلو مقبض سيف الأبله، وجه مشوه لم يستطع معيوف تبين لأي كائن قد يكون، مشكل بطين صلصالي.

«يا فتى». قال معيوف فنظر له الشاب فتساءل وهو يشير إلى المقبض المشوه:

ـ إلام يرمز ذلك الوجه؟

متفاخرا أجاب الشاب:

ـ اسمي حمزة، وهذا هو شعار قبيلتي.

قال معيوف:

ـ من أي قبيلة أنت؟

قال حمزة:

ـ بني ذئب.

مستنكرا قال معيوف:

ـ وبما تتفاخر أيها الأرعن؟!، فالجميع يعرفون أن الذئاب تم إخصاؤهم قبل زمن.

متهكما قال حمزة وهو يقبض على أعضائه بحركة بذيئة:

ـ يبدو أن أحدهم لم يخصَ بعد.

امتعض معيوف وقال:

ـ احذر يا فتى، أنت تهرطق بكلام بالغ الخطورة!

أوشكت الشمس على الغروب، وخارت قوى عمارة وأوشكت على الانهيار، كان في مؤخرة المؤخرة واحدا من عشرات يحملون سلما يتجاوز طوله المائة متر بعشرين، وكان هناك مأتيّ سلم تقريبًا يحملهم أقرانه من المتسلقة، المخولة بحملهم وتسلقهم إذا استلزم الأمر، ويتطلب الانضمام لفرقة المتسلقة معايير خاصة، أهمهم الخفة والرشاقة والمرونة في القتال وشدة البراعة، وبالفعل يمكنك أن تستنتج أن عمارة لا يتوافر فيه أي من تلك الشروط، التدريب أخسره الكثير من الوزن ولكنه ما زال بدينا، ولم يظهر أي مهارة تذكر بالسيف أو الرمح أو السهم، إنه سيء جدا في التباري، لم يجد القادة فيه أي مهارة تفيد في ساحات الوغى، ولهذا حدث له كما حدث مع الكثير ممن مثله، فلقد تم تسكينه في أي فرقة وانتهت.

«تصلب يا زمار». قال حمزة، فتأفف عمارة وقال:

ـ ليس وقتك يا راوي، ابتعد عني.

فوضع حمزة كتفه أمام كتف عمارة وحمل عنه وقال بطريقته:

ـ استرح يا عاثر الحظ.

حمزة أظهر مهارة ليست سيئة في استعمال السيف وأضحى أحد جنود المشاة، تفاجأ عمارة لما أخبره عقبة أنه سوف يتكفل بوالدته بعد أن وبخه قليلًا بالطبع، ووعده عمارة أنه إذا تحقق الفتح المنشود وعاد محملا بالغنائم فسيرد له كل أمواله وأزيد، وقدر معروف الشيخ المتناقض.

مع أوائل الليل وصل الزحف إلى وجهته الأخيرة بعد مسيرة شاقة استغرقت شهرا.

«ياالله، سحقًا لي». شهق عمارة ونطق مذعورا لما خرج من الغابة وأبصر الجدار الجندري الرهيب الأسود المقيت ذو البوابات الفولاذية، فأتاه صوت آسر من ورائه:

ـ بدأت أعمال البناء فيه قبل مائتي عام واستغرقت ثلاثون سنة.

ثم قفز من أعلى جواده البني الخفيف، وربت على كتف عمارة وأردف:

ـ أدعو الله ألا تضطر لذلك يا أخي!

أسوار جندرة يبلغ ارتفاعها مائة وعشرون مترا، ويتخللها آلاف البوابات الفولاذية وتحيط الغولية من جميع الاتجاهات وتمثل حصنا منيعا لها، شيدت قبل مائتي عام، وذلك عندما استغل الجنادرة الجفاف العظيم لنهر عظمويل وفي خضم انشغال عظمويل بالمجاعات الكوارث التي حلت بها حينها، استغل الجنادرة ذلك وبنوا أسوارهم الرهيبة لتقيهم الغارات العظمويلية المتكررة ولتحميهم النهب، ومن بعدها تقوقعت جندرة على نفسها ولم تعد تسمح لأي غريب بعبور هذه الأسوار والدلوف إلى أراضيها، أعمال التجارة سواء كانت واردات أو صادرات تتم هنا

في الخارج أمام الأسوار حتى التهريب أو أي شيء من ذاك القبيل، في عظمويل يقولون أن الجنادرة جبناء يختبئون خلف أسوارهم منعزلين عن العالم كالجرذان، وعديد النكات أطلقت في هذا الشأن.

على نقيض الجانب الآخر من الغابة، الشمالي، كان هذا الجانب الجنوبي أخضر تنبت به الأعشاب.

أعطى «صخر» لجام جواده لتابع، ثم انحنى وقبض على حفنة تراب عشبية، تفحصها فوجد العشب جاف، فرمق ما حوله، فوجد الجزء الذي يتلو الغابة مباشرة غير صحيح، ميت العشب، بعكس الجزء الذي يلي الجدار الرهيب الذي بدا صحيحا متزهزة النجيلة، فكر أنه ربما الجنادرة سموا هذا الجزء ليهلكوا الخيول، فأمر رجاله في الحال برفع رقاب الأحصنة وألا يطعموهم من هذا العشب، وأرسل مجموعة من الخدم إلى الغابة ليجلبوا علفا جيدا.

هذا هو الحد الشمالي لجندرة، وجيش عظمويل يقف أمام الجزء المستقيم من هذا الحد، وبالتحديد أمام البوابة الرئيسية الكبيرة التي تنتصف مائة وثلاثون بوابة أصغر، تفصل كل منهما عن المجاورة لها مسافة تقدر بمائة متر، وما بعد هذا الجزء المستقيم شرقا وغربا ينحني الجدار منعرجا بلا استقامة.

دقت حوامل المشاعل أرضا، وزودت بالجمر وأشعلت، وعلى أضوائها بدأ الجنود تشييد الخيام، غرب الفولاذية الكبيرة، غرست الأوتاد ورفعت الأعمدة، ونصبت خيام الفرسان، وكانت ذات لون أصفر شاحب، وتوسطهم أكبر خيام المعسكر، تلك الذهبية الخاصة بالسلطان ومن حولها كانت خيام القادة، وكان هناك أيضًا خيام سوداء خاصة بالحدادين والخشابين، وأخرى بيضاء للأطباء وكذلك الخيام الحافظة للمؤن.

أما شرق البوابة الرئيسية، فتم نصب عدد أقل من الخيام لأجل الجنود، عدد لا يكفي ربعهم، على كل، أغلب الجنود فضلوا المبيت في العراء، فالجو صيفي شديد الحرارة.

وأمام المعسكر، انتصبت الصواري العملاقة حاملة الرايات الذهبية، وكان الرمح الشامخ ينظر مباشرة صوب الغول الأسود الضخم في تحدي.

وعلى النعيق المخيف للغربان التي تعتلي الجدار الرهيب بات الجيش العظمويلي ليلته الأولى أمام أبواب جندرة.

# 20

## مجلس الحرب...

أزاح نائل باب الخيمة القماشي وخرج، هذه ساعة مبكرة من الصباح، ما زال الفرسان والجنود غاطين في سبات عميق، والانهاك واضح على وجوه المخولين بنوبة الحراسة الأولى، فأعينهم محمرة خاملة، الغيلان الضخمة التي تتوسط الرايات القرمزية المعتلية الجدار الرهيب بدت من الأسفل كأنها صغار النمل علقت في خيوط سماوية، كان المعسكر صامت، وقطع ركوده حركة الخدم السريعة الموكلين بتجهيز وجبات الفطور للمحاربين.

تثائب القائد الأعظم، وجاءه خادم يحمل إبريقا نحاسيا، وكان صبيا، لم يتجاوز عمره الثامنة عشر بعد، قمحي، ذابل الملامح، نال البرص نصف وجهه، صب الخادم الماء، فاغتسل نائل، وتناول المنشفة من على كتف الأبرص الذي قال وهو يشير نحو الجدار الرهيب في انبهار:

ـ يقولون أن تلك الأسوار محصنة بتعاويذ سحرية، ولا يمكن لأحد هزيمتها.

قال نائل وهو يجفف وجهه:

ـ دعك من تلك الخرافات يا ولد.

ثم مشط شعيراته الفضية الهائشة بأنماله وتسائل:

ـ السلطان استيقظ؟

أجاب الخادم:

ـ نعم، منذ قليل، أيقظه سيدي الحارس الأعظم، وهو معه الآن.

دلف نائل الخيمة الذهبية، فوجد السلطان يقعد على رأس طاولة مربعة وعن يمينه صخر، فألقى التحية وجلس يسار صلحان، تناول ثمرة تفاح من إناء فضي وأخذ قضمة وقال:

ـ أنا نائل بن نوار القرومي، قائد كل القادة، القائد الأعظم لجيوش عظمويل، أعلن إنعقاد مجلس الحرب الأول.

حدف صلحان ثلاث عنبات داخل فيه وقال:

ـ لن يخرجوا من خلف حصونهم.

قال نائل:

ـ بكل تأكيد، فأولئك الخراف أجبن من أن يواجهونا وجها لوجه.

قال صخر وهو يشير بسبابته على الخريطة المنبسطة أمامهم:

ـ سوف يشرع الفرسان في التحرك بطول الجدار، لكي نظهر أن الحصار هو طريقتنا.

فنطق نائل متوجها للسلطان:

ـ الحصار قد يستغرق سنوات، وليس ذلك ما اتفقنا عليه.

قال صخر:

ـ لم أقل أن الحصار هو طريقتنا، قلت نظهر لهم.

قال صلحان:

ـ لن نناقش الخطط الآن، فلنبعث رسولا للغول أول.

فنادى نائل أحد الحراس وأمره أن يجلب «العزيز حسن»، قائد الفرقة الحدودية وقال:

ـ هذا هو الشخص المناسب لهذه المهمة، فإنه لا يفوت أي تفصيلة.

«انتظر»، قال صخر للحارس، ثم أردف:

ـ لن يذهب للغول غيري.

واتشح عباءة الزاجل وقبل أن يتحرك صوب بوابات جندرة تسائل:

ـ جلالة السلطان، ما هي رسالتك للغول؟

فقال صلحان:

ـ من صلحان من دم المستقل... إلخ، إلى الغول الذي لا يُعرَف، استسلم وسوف أدعك تعيش.

ذهب صخر في مسعاه، وارتمى صلحان على السرير الصغير فخم الفراش القابع بجانب دولابه الخشبي الذي يغرب الخيمة، بينما أخذ نائل يتناول وجبة إفطاره، وساد التوتر، لم يكن سبب التوتر هو التشكك في رد فعل غول جندرة، ولكنه كان اللهفة لمعرفة ما قد يعود به صخر من أخبار، فهل الغول سيستعرض قوته أمام صخر، ويا ترى ماعدد خيالته وجنوده وماهي الإمكانيات الحقيقية لجيشه، وهل فعلا هناك ألغاز تحجبها تلك

الأسوار الرهيبة عن العالم؟!، على العموم لم يطل التوتر، فلم يفت غير القليل وعاد الرسول محملا برد الغول.

بادر صلحان في لهفة:

ـ هات ما عندك.

فقال صخر في خيبة:

ـ ليس عندي شيء.

ثم خلع عباءة الزاجل واستطرد:

ـ وصلت إلى البوابة الرئيسية، انتظرت دقائق ورفعت نصف متر فقط، وخرج لي نحاسيٌ، عصب عيني وأدخلني، ولم أتوغل بعد ذلك خطوة واحدة، فلقد قابلني أحدهم، ولا أعتقد أنه الغول، أبلغته الرسالة، فقال لي «أخبر سلطانك أن يرحل وإلا أبدنا جيشه».

ممتعضا تساءل صلحان:

ـ وما أدراك أنه ليس الغول هو من قابلك؟

أجاب صخر:

ـ الغول لا يقول «أبدنا»، الغول يقول «أبدت».

قال نائل غاضبا:

ـ أبناء العاهرات يتكبرون علينا.

ومحتارا تساءل صلحان:

ـ ماذا تخفي تلك الجدران من أسرار؟

أجاب نائل بلا مبالاة:

ـ لا شيء، إنها طريقة قديمة جدا للإيهام والإرهاب.

قال صلحان:

ـ فلنضع الخطط إذن.

شرع صخر في شرح إستراتجيته:

ـ سوف يتحرك الفرسان بطول الجدار، لكي نؤصل فكرة الحصار عند الجنادرة، وسنفعل آخر شيء يتوقعونه، غدا ومع انتصاف الليل، سوف نرفع السلالم ونتسلق.

قال نائل وهو يحشو غليونه:

ـ لا أحبذ أن نتسلق الرئيسية، نختار واحدة متطرفة، سيكون أمرا غير متوقع.

قال صخر:

ـ لن نختار أي واحدة، سوف نتسلق جميع البوابات، المائة وثلاثين في آن واحد.

محتدا زأر نائل:

ـ سيكلفنا ذلك الكثير من الأرواح، قد يسقط آلاف الجنود.

هادئا فح صخر:

ـ الجنود هم وقود الحرب أيها القائد الأعظم.

«انتظر يا عمي، أكمل يا صخر». قال صلحان، فأكمل صخر:

ـ ماذا لو لم يبتلع الغول طعمنا وأخذ حذره؟!، عندها سنفقد عنصر المفاجأة خاصتنا، أما لو باغتناهم وتسلق جميع المتسلقة كل البوابات في حين واحد، ستكون ضربة خاطفة قاسمة، ونحن لا نريد من رجالنا غير رفع بوابة واحدة من الداخل، وحينها سوف يجتاح فرساننا أراضي الغول، جلالة

السلطان مع هذه الخطة فرصنا أعظم، في هذه الخطة لا مجال للفشل.

صمت صخر وما زال نائل ينتظر، وعلى أحر من الجمر ترقبا القرار النهائي للسلطان.

فكر وقلب كل الاحتمالات في رأسه وأخيرا تحدث صلحان:

ـ انتهى مجلس الحرب الأول، فلنسقط الغول غدا.

# 21

## عمارة...

غرس قطعة خبز ناشفة في قطعة جبن جامدة كالحجر ومرتجفا وضعها في حلقه، وتشمم الرائحة الطيبة النفاذة الآتية من ناحية الفرسان وقال مستعطفا:

ـ وصيتك أمي يا حمزة.

كان حمزة منهمكا في مضغ الطعام الجاف وقال:

ـ لن تموت الليلة يا زمار.

نطق عمارة:

ـ كفاك مزاحا.

ثم رمق الجدار الرهيب بنظرة مذعورة، وأردف:

ـ أمي يا حمزة...

فقاطعه حمزة:

ـ تبا لأمك، أتعرف يا زمار إذا تركت الجنادرة يقتلونك الليلة، أعدك أني سوف أغتصب جثتك وأحرق أمك.

مبتسما بفتور قال عمارة:

ـ إذن لن أموت الليلة.

رمى حمزة قطعة جبن في فمه وقال:

ـ جيد.

«لم أسمع أن زمارا مات في معركة من قبل». قال آسر وجلس أرضا وسط صاحبيه، ضحك وجه عمارة البشوش وانتشل عصا الناي من حزامه وأودعها آسر، بينما أخرج آسر كيس قماشي من تحت دروعه وأعطاه عمارة،ففتح عمارة الكيس فوجد قطعتي لحم وبضع أرغفة من خبز طري طيب، وقال:

ـ كلا، إنه طعامك يا صاحبي.

ربت آسر على كتف صاحبه وقال:

ـ أنت تحتاجه أكثر مني.

وأضاف حمزة متهكما:

ـ كل أيها الطيب، فآسر زهد اللحم.

فقال عمارة:

ـ ادعوا لي يا إخوتي، ولا تنسوا أمي.

انتصف الليل وعم السكون، ولم يظهر قمر في السماء الصافية المرصعة بالنجوم، ونعيق الغربان جاء من فوق الجدار خافتا، وبخطوات محسوبة غير محسوسة رفع جنود المتسلقة سلالمهم، وفي الخلفية انتشر الفرسان في مواقعهم متأهبين لحظتهم ومن خلفهم بقية الجنود، وأسفل السلالم ارتص النشابين حاملين أقواسهم الكبيرة، الأضخم من المعتاد

التي تم صناعتها خصيصًا لهذه اللحظة، هؤلاء هم أمهر النشابين في عظمويل وأنبغهم، ومهمتهم خطيرة شديدة الحساسية، اختارهم القائد الأعظم بدقة، ومهمتهم تبدأ في الوقت الذي يكتشف فيه الجنادرة أمر المتسلقة، فعندها وفي هذا الظلام الحالك يجب عليهم تحديد أهدافهم واصطيادها ولا مجال للخطأ، قوة الحدس وعمق الملاحظة هو السلاح الوحيد الذي سوف يلجأ له نوابغ النشابة إذا انتبه الجنادرة لعمارة ورفاقه.

شرع المتسلقة في التسلق، وشعر عمارة بلسعة برد تجتاح جسده المرتجف، وبخطوات متثاقلة تحرك، وكان في مؤخرة هذه المجموعة المخولة بتسلق البوابة التي تقع شرق الرئيسية الكبيرة بثلاث.

بضع درجات تسلقهم عمارة، وكان الذعر قد تمكن منه، لم يعد قادرًا على التنفس بانتظام، صدره يعلو ويهبط، ينهج بعنف، شعر أن سترته أثقل بكثير، وأن بنطاله أضيق من المعتاد، وأن السيف الساكن في غمده حول خصره أمسى يزن أطنانا، أراد التقيؤ، وترنح جسده وكاد يسقط، فأسند أحدهم ظهره من الخلف وهمس محمسا وهو يدفعه للصعود:

ـ تقدم يا بطل.

فتقدم عمارة وتقدم، عشر أمتار وزالت لسعة البرد، وعشرة أخرى ولم يعد يرتجف وزادهم خمسة عشر، فوصله نعيق الغربان أشد وضوحا، ولم يكن مخيفا كالليالي السابقة، فلقد بعث في نفسه شيئًا من الأريحية، فذلك معناه أن الجنادرة لم ينتبهوا بعد، صب جسده العرق كأنه المطر، وتقدم واختلس نظرة للخلف، فوجد الفرسان المتأهبين كأنهم ظلال بعيدة المنال، وزادت أريحته لما أبصر ثلاثة من رماة الأسهم يقفون أسفله بعشرين متر، إذن النشابة يغطون ظهور المتسلقة، وهكذا كل عشرين متر سيكون هناك ثلاث من رماة الأسهم.

صعد أكثر حتى أصبح على ارتفاع سبعين متر من الأرض،وكان التعب قد نال من كل جوارحه، فخطف ثوان من الزمن لغرض الراحة، لم يرَ الظلال ولم يعد يشعر بشيء، فقط السكون ولا غير، «سكون!!»، فكر وأصابه الهلع وتساءل «أين ذهبت الغربان؟!»، اختفى نعيق الغربان ورفرفت السوداء المقيتة بعيدا، فاق من صدمته لما حلّق بجانبه زميل، متسلق وهناك سهم مغزوز في إحدى عينيه، لقد اكتشف الجنادرة الأمر، ارتعد عمارة وأغرورقت عيناه بالدموع والهلع، تعالت الصرخات وكان دوى ارتطام الأجساد بالأرض مخيفا، مهولا، فطن عمارة أنه لا مجال للتراجع فتقدم مرتعشا، وتهاوت الأجساد من حوله ساقطة، فظن أن لحظته قد حانت، ولكن تدخل نشابة عظمويل غير المصير، فلقد تغيرت أهداف نشابة جندرة المعتلين الجدار، فلقد التحموا مع نشابة عظمويل، وعرف عمارة أن الانتصار في تلك المعركة بين رماة الأسهم هي التي ستحدد قدره، فلو تفوق نشابة جندرة فسهم واحد باتجاهه يكفي، لأنه لم يعد هناك أي متسلق يسبقه عائش، فكل من تسلقوا أمامه سقطوا.

وحدثت المفاجأة، إنهم يتساقطون واحدًا تلو الأخر، نشابي جندرة يتساقطون كأوراق الشجر، نوابغ رماة عظمويل يقومون بعمل إعجازي أقرب إلى المستحيل، فلقد توقفت أسهم الجنادرة عن الهطول، وتساقطت جثثهم تباعا من أعلى الجدار الحصين، لقد حسمها نوابغ النشابة العظمويلية.

وأتاه صوت التهليل عاليا من كل السلالم الأخرى فصاح بأعلى صوته:

ـ حان وقت إسقاط الغول.

وردد الجميع جملته، وارتجت السلالم بمقولته «حان وقت إسقاط الغول».

ونظر لأعلى، فلاح سطح الجدار خاويا إلا من بعض الجثث التي ما زالت عالقة، وتعجب من تلك الفوهات التي تتخلل الجدار، نظر للأسفل فأبصر زملائه المتبقين يرمقونه بنظرات متحمسة، فصاح فيهم:

ـ اتبعوني.

فصاحوا:

ـ نحن معك أيها القائد.

«القائد»، أثارت تلك الكلمة عزيمته، وتقدم مهرولا في بأس شديد، وزالت عنه مخاوفه، وزال التعب، يشعر أن جسده أخف وأقوى، ليس هناك ما يدعو للرهبة بعد الآن، شعر أنه يسطر فصلا تاريخيا خاص به وسيكون فحواه البطولة، وعزم أمره أنه سيكون أول شخص في التاريخ يهزم الأسوار الرهيبة وأنه يجب عليه سبق الجميع ورفع أول بوابة فولاذية بذاته.

ولا إراديا أخذ عقله يفكر، «أين من نعتوني بالمهرج سابقًا ليشهدوا بطولتي؟ آسر وحمزة أفتقدهم كنت أريد أن يكونوا معي ولكني سأعود لهم شخصا أخر. سأعود بطلا وأمي، سوف أعالجها عند أفضل الأطباء وسأشتري لها بيتا جديدا، وسأتزوج، وسأفتتح مقهى ولن أظل فقيرًا، المكافأة ستكون كبيرة وسوف أحقق كل أحلامي وأمنيات أمي، هل سيشيدون لي تمثالا من البرونز؟، ليس مؤكدًا ولكن المؤكد أنهم سيتغنون باسمي حتى فناء الدنيا».

هوت بغتة وارتطمت به، كانت جثة منتفخة، فترنح وقاوم السقوط، الجثة انحشرت بين جسده وقوائم السلم، انفلتت يسراه، وبيمناه تمسك بالقائم وساقيه تقتربان من خيانته، السقطة من هنا قاتلة لا محالة، إنه على ارتفاع مائة متر عن الأرض ولم يعد أمامه غير عشرين، رائحة الجثة نتنة، وبالكاد أزاحها، وقبل أن تسقط أرضا خطف نظرة إلى وجه الصريع، وانذهل وتقيأ غصبا عنه، كان الوجه منزوع الجلد ومرتعا للدود، فصرخ:

ـ جثث عفنة.

وأحس بحركة في الجدار، فرمق الأعالي فوجد الفوهات التي تتخلل السور الرهيب وقد برزت منها صنابير عملاقة، وهطل على وجهه المفزوع سائل أسود لزج ذو رائحة نفاذة.

وجاءته صرخات الهلع من حوله:

ـ زيت أسود!

فهبط مذعورا، ولم يبتعد، بضع خطوات فقط، توقف وارتضى قدره، نظر حوله، فوجد النيران تصل حد السماء، وتأكل رفقائه، اشتم رائحة شحومهم، وأنصت لعويلهم، توقف الزمن به، وقرر أن يرمق السماء بنظرة أخيرة راجية قد تغير المحتوم، اشتدت محرقة المتسلقة حتى سارت مفحمة، عمارة يبكي ودموعه تضيع في الزيت الأسود اللزج الذي يغطي كامل بنيانه، وما زالت الصنابير تسكب المزيد، يرفع رأسه نحو السماء المسودة دخانا، فيجد مشعلة نارية تشق الأقدار صوبه.

ابتغى أن ينطق كلمة أخيرة، ولكن النار لم تسعفه، فلقد صرخ، وصرخ، احترق، واحترق، وقبل أن يتفحم خرجت روحه، ثم تفحم.

# 22

## محرقة المسلقة...

«إليك أيها العابر من قاعات الملوك، لا تغرنك الستائر المذهبة ولا العروش الفخيمة، دعك من العاج واللؤلؤ، دعك من الياقوت والماس، وارمق الأسفل، الأراضين، ارمق الأراضين وستجد عديد الجماجم المألوفة، حزينة، هرعة، ستجد جمجمة زميل ورفيق وأخ، وثمة أب وابن، وستجد جمجمة بشوشة، مبتسمة، متفحمة، لطيب كان يُمني نفسه بالوقوف مكانك، هذا صديقي عمارة وتلك جمجته، وتحت أقدامك دفنت أحلامه، كان اسمه عمارة وكان رجلًا صادقًا، عازفًا مبدعًا، رغم الصعاب ظل مبتسمًا ورغم الهموم حافظ على عهده، وفي سبيل مجد العروش ضاعت أنغمه واندثرت أبدًا، كان اسمه عمارة وكان صديقي وكان رجلًا، وكان صامدًا بشوشًا، ومات لأن الذهبي أراده ميتا، أيها العابر لا تتباهى بوقوفك في قاعات العروش، وارفع قدميك عن جمجة صاحبي، فتبا لك وتبا للحرب وتبا للموت وتبا لعمارة لأنه كان رجلًا، وأمجاد التيجان لا تشيد إلا على أنقاض الرجال.»، أنشد حمزة منتحبا وهو يضم عصا الناي

إلى صدره، ومن حوله جلس مجموعة من الجند يعتريهم البؤس والكآبة. وأضاف آسر والحمرة الغاضبة تحتل عينيه الناريتين:

ـ كان اسمه عمارة وكان بطلا، ودم الأبطال لا هوان فيه، وثأرك عندي يا صاحبي.

كانت السماء قد أعلنت عن سخطها ونسجت غيوما سوداء حدادا على أرواح من احترقوا، غيوم كونها الدخان الظلامي الناتج عن مفحمة المتسلقة، روائح الشحم الكثيفة المقيتة التي احتلت الأجواء تحرم النوم على الجفون المستشيطة بؤسا، هناك بجانب الجدار الرهيب خمسة عشر ألفًا من الجثث المتفحمة، لرجال كانوا بالأمس فقط أحياء يتنفسون ويتسامرون ويحلمون، والليلة أمسوا أشلاء متفحمة، وليسوا سوى وجبة شهية للغربان والجوارح.

لقد أصدر القائد الأعظم أوامره، «لا يقترب أحدا من تلك الجثث وإلا قابل نفس المصير، سوف يحترق ويتفحم وينتهي به المطاف وجبة دسمة للجوارح».

هذه هي الليلة التالية للمحرقة التاريخية، مأساة المتسلقة سيخلدها التاريخ كأبشع محرقة شمولية شهدها العالم، الكل مستيقظ، والجميع يشعل التبغ مدخنون ولا مدخنون، يحاولون تفادي استنشاق رفات أصحابهم، يحاولون تنفس هواء أخر غير هذا المفعم بشحوم الراحلين، وباءت المحاولات بالفشل.

في يأس قال صلحان وهو يضرب عمود الخيمة بقدمه:

ـ جثث نتنة ليوهمونا بالنصر الزائف، ثم ينسكب الزيت الأسود من أعلى الجدار وعلى الجميع وفي وقت واحد، لم نكن نحن من ننسج الفخ، بل هم من كانوا يتلاعبون بنا.

توجه نائل إلى صخر الجالس مطأطأ الرأس ودافن وجهه بين كفيه وقال موبخا:

ـ الجنود وقود الحرب، هاا!، أنت المتسبب في هذه المأساة أيها الأفعى، وجب أن تكون هناك لتواجه نفس المصير، وجب أن تحترق معهم.

ثم انتظر ردا من الحارس الأعظم، ولكن الأفعى تمسك بصمته وهدوءه ولم يغادر وضعيته.

تساءل صلحان:

ـ كيف حدث ذلك، مستحيل أن يكون الأمر كله عبثيا ومجرد صدفة.

عندها نطق صخر:

ـ بيننا خائن، وربما ليس واحدا فقط.

معنفا رد نائل:

ـ وها أنت تبرر خطيئتك بحجج فارغة.

مجددًا تساءل صلحان وقد عقم تفكيره:

ـ وماذا بعد؟

أجاب نائل:

ـ لم يعد هناك خيارا غير الحصار.

فقال صلحان:

ـ ابدأ في الالتفاف حول أسوارهم واقطع كل طرق المساعدة عنهم.

«حسنًا»، قال نائل وأردف منوّها:

ـ الوضع أصبح صعبا، فالبؤس قد أصاب الرجال.

فح صخر وهو يرفع رأسه أخيرًا:

ـ هذا ليس وقت عزاء، يجب أن نحول مشاعر البؤس إلى نيران الانتقام، يجب أن نخطب في الرجال ونرسخ فيهم أن أعدائهم هناك متوارين خلف الأسوار، أن من أهدروا دماء إخوتهم الآن يضاجعون إناثهم وهم يستهزئون بنا، يجب أن يعرفوا أن ثأرهم عند الغول، يجب أن نحول حزنهم إلى غل لا يشفى إلا بحرق الغول وقومه.

أسبوعان انقضوا، وكانت الغيمات اللعينة قد انقشعت بلا رجعة، وكذلك الروائح المقيتة، ولم يعد باقيا من المفحمة الفظيعة غير أطلال كريهة الذكرى، وعظام متهالكة تقبع جوار الرهيب الحصين، وعادت الغربان لنعيقها الكريه، وعادت الحياة للمعسكر كأن شيئًا لم يحدث.

تمتم حمزة وهو يتأمل في كل ما فات:

ـ هذا هو حال الحروب وويلاتها، ضرائب باهظة تدفعها جيوب الفقراء وأرواح الأبرياء ودمائهم.

بينما عقب آسر:

ـ «من مات وهو رافع سيفه باغيا حق لم يمت»، هذه هي العبارة الوحيدة التي تحدثني بها أمي كلما جاءت سيرة والدي!

توسطت الشمس السماء بينما قبض معيوف السندالي على رأس سيفه وهو يقف عند الحد الجنوبي للمعسكر ويرى البوابة الفولاذية ترفع، رفعت لنصفها وخرج منها جندري يتشح عباءة الزاجل ثم أنزلت، ففك معيوف قبضته.

في الخيمة الذهبية كان السلطان الغازي يجلس بين أعظميه يتشاورون حول المرحلة القادمة، واستقروا أن كل فرقة سيعود جزء منها إلى عظمويل برفقة صخر الأفعى، ولم تنجح المناقشات لإقناع صلحان بالرجوع إلى العاصمة، دلف معيوف إلى الخيمة وبصحبته الرسول الجندري، فتوقفت المشاورات، وبعصبية قال صلحان للرسول الكهل، متوسط الجسد طولا وعرضا، حليق الشعر، أحمر الوجه:

ـ هات ما عندك.

فناوله الرسول مطوية جلدية وقال بلهجة جاهد ألا تكون متشفية:

ـ الغول يرسل تحياته.

فرد صلحان المطوية، وقابلته رائحة العفن، فقلبها وتفحص ظهرها، فقضبت عضلات وجهه واحتقنت عروقه، فروة شقراء مليئة بالتقرحات وتسري فيها الحشرات، هكذا وجد ظهر المطوية، فتساءل بأكثر عصبية:

ـ لأي كائن كان هذا الجلد.

اهتز الرسول ونطق متلعثما:

ـ لا أعلم.

ارتسمت ابتسامة فاترة على وجه صلحان وقال:

ـ جلد كلب أجرب، أليس كذلك؟!

قلب المطوية إلى وجهها وقرأ بصوت خافت:

ـ «من غول جندرة الذي لا يُعرَف إلى الأرعن من دم الهمجي المنقلب سليل الغجر، ارحل وإلا أبدت جيشك «.

ثم ارتعد واقفا وهوى بقبضته على الطاولة فهشمها، وزعق في رجاله:

ـ إنه يستهزئ بي، الغول يبدع في إذلالي.

أشهر سيفه وبضربتين متتاليتين اقتلع رأس رسول الغول.

وقف صخر خلف نائل الذي يشاهد منظر الغروب الخلاب حيث طيور النورس تداعب الغسق الدامي البعيد وقال:

ـ «التمرد، ذلك الوحش الذي نهض من اللامكان وتلك الأنشودة التي استفشت كالطاعون، أتذكر جيدا تلك الأيام كأنها البارحة، السلطان، القوي، المهاب أشبوب، يرتجف خوفا والعرش من تحته يهتز، الزلزال قادم وسيطيح بالجميع هكذا ادّعو أيامها، حتى مع انضمام بني صقر لصفوف التمرد، لم تهتز مني شعرة واحدة، كنت أعرف أني قادر على إخراس كل الرعاع إذا أتيحت لي الفرصة، ومع تخاذلك في إنقاذ عمك أيها الليث، لم يبقَ أمامه غير أن يضع ثقته فيّ أنا الأفعى، وتلك الليلة أنهيت كل شيء بلا نقطة عرق،

وأخرجت عمك منها بطلا، جعلته عظيمًا في أعين الجميع، أتعرف يا صديقي القديم متى أصابني الخوف؟! أصابني الخوف عندما أعطى أشبوب أوامره بإبادة الصقور جزاء لخيانتهم وترنيمهم السوداء، وعندها قدم شيخ الصقور كل ما يملك لأجل استئجار مرتزقة المحيط ليعينوه علينا، ووصلت الأخبار أن عشرة آلاف من مرتزقة المحيط يبحرون باتجاه سواحلنا ويقودهم «هيبة سهم القدر» شخصيا. دعك من أن مرتزق واحد منهم يضاهي عشرة من محاربينا قوة أنذاك، ودعك من أن قواتنا كانت منهكة، ولكن حقًا هيبة أفضل نشاب عرفه العالم يبحر باتجاهي، أقسى محاربين ذاك العصر، وسيد المحيط، تلك كانت مصيبة المصائب، كنت أظن أن سهم القدر هو خرافة يقصونها على الأطفال حتى يخيفونهم، لأيام لم يزر النوم جفني، وتخيلت ألف طريقة للموت يمكن لسهم القدر أن يمنحني إياها، وعندما علمت أن سفنهم تقترب من سواحلنا كنت قد اتخذت القرار، لو مالك الكفة للمرتزقة في البدايات، فالانتحار هو خلاصي ولا بديل. وأتت الأخبار من البحر، الليث باغت سفن مرتزقة المحيط ليلًا وأحرق نصفهم وفر النصف الأخر، نائل القرومي أحرق «هيبة سهم القدر»، حقًا حتى الآن لا أعرف كيف أقدمت على تلك الخطوة الأخطر من الانتحارية وكم وددت أن أعرف بماذا كنت تفكر أنذاك؟!»

قال نائل وعيناه العميقتان تشيعان الشمس الغاربة:

ـ هذا هو الفرق بيني وبينك أيها الأفعى، أنت ترهق نفسك في التفكير والتخطيط لكل شيء، أما أنا فلا أفعل، أنا أرتجل فقط وأفعل مثلما يفعل أنبل المحاربين، كل ما فعلته أني قدت رجالي وفي جوف الليل هجمت على سفن المعتدين، صعدت على سفينة «سهم القدر» وأشعلت النيران فيها.

تساءل صخر متعجبا:

ـ هكذا بكل بساطة؟!

قال نائل:

ـ لحسن حظي أن هيبة كان نائما حينها، ولا أنسى قط منظره وهو ينهض من بين الرماد والنار تأكل جسده، بالفعل كان أسطورة، هيبة لم أسمعه يصرخ أو يستنجد، بل رفع قوسه وقذف منه خمس سهام قبل أن يبتلعه البحر، خمس سهام كانت كفيلة لتحصد أرواح خمسة من أبرز رجالي، فعلًا صدق من أسماه سهم القدر.

«سيبقى هذا هو الشيء الوحيد الذي يميزك عني»، قال صخر ثم رمق رأس رسول الغول المعلقة على خازرق أمام المعسكر وفح وهو يحول نظره إلى الخيمة الذهبية:

ـ أخشى أن نشهد أشبوبا جديدا.

عمد نائل للنطق ولكن إشارة صخر بالإنصات أوقفته، أنصت وأنصت، هناك صوت يأتي من وراء الجدار الرهيب، الصوت يشتد ويشتد، إنه صوت طرقات طبول ونفخات بوق. زأر نائل:

ـ لقد دقت الطبول ونفخ في البوق.

وهرع إلى الخيمة الذهبية ومن خلفه صخر، قابلهم صلحان وقد تضاربت مشاعره وقال وهو يشير ناحية المصدر:

ـ هذا معناه...

أكمل صخر:

ـ معناه أن الجنادرة سيخرجون من خلف أسوارهم مع طلوع الشمس.

تساءل صلحان:

ـ هل قتل الرسول أثار الغول لتلك الدرجة؟!

أجاب صخر متوجسا:

ـ هذا غير طبيعي، أنا غير مطمئن.

قال نائل:

ـ ذلك ليس مهم الآن، المهم أنه بعد غروب شمس الغد سيكون هناك منتصر في هذه الحرب.

تساءل صلحان:

ـ ما الخطة؟

أجاب نائل:

ـ ليس هناك خطة، إنها مواجهة مباشرة ستحسمها عزيمة الرجال وسيوفهم.

# 23

## معركة الأسد والغول...

بزغت الشمس مبلغة عن يوم حارق، شديد الحرارة، غليظ المحيا، غزير الدم، وانفرجت أبواب السماء مستعدة لاستقبال الأرواح المحصودة، وعلى دقات الطبول تراقص ملك الموت مبتهجا في سرور، منتظرًا القرابين التي سيقدمها له أسياد الحرب.

وفي نظام بالغ ارتصّ الجيش العظمويلي الذي قُسم إلى ثلاثة أجزاء متساوية العدد متفاوتة القوة، الأول يمثل القلب ويقوده القائد الأعظم «نائل القرومي» ومعه فرسان الزرقاء، الثاني يمثل الميمنة ويقوده الحارس الأعظم «صخر السردي» ومعه البرونزيين، والثالث يمثل الميسرة ويقوده القائد الحدودي «العزيز حسن» ومعه فرسان الحدودية وضم هذا الجزء الفرقة الجبلية.

وفي الخلفية ومن أعلى تلك الربوة كان السلطان صلحان يعتلى صهوة فرسه ناصع البياض ويترقب ويحيطه ألف من حراسه وكان أحدهم هو معيوف السندالي.

الطبول تقرع، والأبواق تنفخ، والبوابة الفولاذية الرئيسية ترفع، والأنفاس تخفق، والعرق يسيل زخات زخات، التوتر يزداد، والقلوب تقبض، ويخرج فرسان جندرة متدرعي النحاس ومن خلفهم الجنود مكتسي السترات الرمادية، الرايات الذهبية ساكنة وكذلك القرمزية والرمح الذهبي يتحين الفرصة للانقضاض على الغول المتربص هفوه.

بنظرة خبيرة قدر صخر أعداد جيش الغول، وجده يتراوح ما بين خمس وثلاثين إلى أربعين ألف خيال، وخمسون إلى ستين ألف جندي، ويفكر ماذا قد يدفع الغول لهذه المغامرة فالفروق واضحة، هناك أمر ما.

وآسر يفكر أن اللحظة حانت، وهذا هو وقت الثأر لدماء أبيه وصديقه.

وصلحان يفكر أنه على وشك تحقيق طموحاته، ولاح لقب الإمبراطور في عقله كحلم قريب التحقيق.

وحمزة يفكر أن هذه ليس معركته ولا ينبغي أن يموت هنا.

ومعيوف لم يفكر لأنه لم يفكر أن يفكر من قبل.

انحبست الأنفاس وتعلقت العيون بنائل، فالكلمة كلمته الآن فهو سيد أسياد الحرب.

أشهر القائد الأعظم سيفه العملاق وزأر:

ـ اتبعوني إلى المجد.

وشد لجام جواده فاتح الحمرة وانطلق.

ثم هتف صخر:

ـ انتقموا لدماء إخوتكم وشرفوا أنفسكم.

رفع سيفاه ولكز حصانه الأسود وانطلق.

التحم الجيشان وتعانقت الجياد بالجياد وتضارب السيوف بالرماح، وانصبت الأسهم من السماء حاصدة بلا تفرقة أو هوادة، ولا صوت يعلو فوق صليل السيوف وصرخات الصرعى وأنين الجرحى، وفي الأعالي تحوم الجوارح مترقبة الظفر بوليمة، ويبدو أن الولائم ستكفي كل جوارح الأرض وتفيض.

زئير وعملقة نائل كانا كافيان ليبعثا الرهبة في نفوس مقاتلية، الليث مثل البركان الثائر يشق صفوف فرسان الجنادرة ومن خلفه رجاله يؤمنون ظهره ويحموه من تهوره، إنه يتمادى ويتوغل ولا صادّ له، ينحر الرقاب ويفجر البطون وينتهك الأحشاء، انكسر سيفه فأودعه وجه نحاسي، وسحب ثاني وواصل طغيانه، ميادين الوغى خير مكان لممارسة الطغيان، ففيها يكون الطغيان مشروطا ومطلوبا، زأر واستمر في توغله ولا رادع.

نادرًا ما تجد رجلا يستحق لقبه، صخر الأعظم يثبت أنه أفعى عن جدارة، إنه لا يشق الصفوف متهورا ولا يتوغل أكثر من المتاح، بل يختار صرعاه بعناية، إنه يستهدف الأفذاذ من رجال الغول، هذه هي طريقته، اقضِ على القادة، ومن بعدها يمكنك التسلي على الرعاع، يتفادى نصل هذا ويخترق بنصل يمناه عين ذلك، بينما يدق نصل يسراه في كبد الأول، ثم يتصدى للضربات بسيف حتى ينال اليأس من مسددها وبالآخر ينهى المباراة، إنه أشبه براقص محنك وهو يتجنب طعنات الرماح ويبدع في تسديد ضرباته، هو يستمتع بهذا، ويتلذذ بتعجيز أعدائه لا قتلهم، يقطع الأرجل، ويستهدف ما بين الساقين، وهوايته المفضلة هي فقع الأعين.

صلحان يراقب، ومحاربون جندرة يظهرون استبسالا غير معهود ولا متوقع بالنسبة لمزارعين لا يفقهون شيئًا في أمور الحرب، وفي غياهب ساحة القتال الدامية كان حمزة يهرول متجنبا أي قتال، ويهرع لا يعرف إلى أين، ولا لأي إتجاه قد يكون الملاذ، يتفادى الخيول الفزعة، ويثب متخطيا الأشلاء ويمني ذاته أن اليوم سينتهي وهو ما زال يتنفس، في غفلة صدمه فرس مارق عن صاحبه، فسقط على ظهره وأوجعته السقطة، وبينما هو يتفحص آلامه ويستدرك أنفاسه، لاح له جندي رمادي جندري، يسرع صوبه وحربته تسبقه، أدرك أنه فريسة سهلة لسافكي الدماء، وبقلة حيلة قذف سيفه نحو الرمادي عشوائيا، فانغرس في أسفل بطنه، استرجع أنفاسه ووقف، وواصل هروبه من الموت.

تكبدت الشمس السماء، وتوهجت وعلت حرقتها وغدت ساحة الوغى مرتعا للفجور ولا بقاء لغافل فيها، فكل من يتغافل لحظة لا يعيش للحظة التالية، وفي الخلفية أعلى الربوة، وبخلد حالم وعقل قلق يتابع السلطان الغازي ما يسفك على شرفه من دماء، الآن بدأت الرؤية تضح، والجانب المتفوق بات جليا، الظفر يدق أبواب صلحان، الكفة تميل لناحيته، فمعركة القلب يوشك الليث على حسمها وقلب الغول يتداعى، فالسهم الذي يمثل نائل رأسه يقوم بعمل عظيم، إنه يسير نحو تمزيق قلب الجنادرة، وعلى الرغم من أن الأفعى لم يتوغل نصف ما توغله الليث، إلا أن الهرج والمرج قد أصابوا ميسرة الجنادرة وبالتدريج تفقد تنظيمها، وبتر الجناح الأيسر للغول يبدو أنه مسألة وقت لا أكثر، أما عن ميسرة عظمويل وميمنة جندرة، فما زالت الأمور شبه متكافئة مع تفوق طفيف لعظمويل.

رمق آسر الشمس فوجدها تولي أدبارها قلب السماء، فقرر تجاهل تحذيرات مرؤوسيه وإملائتهم، وأصغى لنداءات رغباته الثأرية التي غلبته هذه المرة، وكالفهد سرعة وتمزيقا، انطلق، ينال من مبارزيه، سيفه البتار يسلط على الرقاب فيبعثرها كحبات العنب، يخفض رأسه، وتمر الضربة الطائشة بسلام، وقبل أن يرفع عنقه يكون سيفه قد وجد دربه لعنق مسددها، هو يظهر براعة غير معهودة من جبلي، وأتت الضربة القاسمة، سهم استقر في رقبة جواده، وقبل أن يسقط حصانه، وثب على نحاسي ووجه ضربة قاضية إلى صدره واحتل صهوة فرسه، وكان فرسا حَرُون، وعرف أنه ليس هناك متسع للترويض، فوثب على آخر، وها هو في خضم الموقعة يكتشف في ذاته مهارة جديدة، وهكذا واصل الوثب برشاقة محتلا صهوات الجنادرة، فعلها ست مرات وفي السابعة فطن نده إلى حيلته، وخانته أرجله ووقع أرضا، تصلب وانتصب وبخفة أمال جسده فتفادى طعنة الرمح وسدد ضربة موجعة إلى ربيبه، ولم يكد يلتفت حتى انتهك ذاك النصل الغادر محراب وجهه، سقط، وارتطم وجهه بالعشب الجاف، فارتوت الأرض من دمه حتى شبعت.

سبعة سيوف حتى الآن استلهم الليث، أظلمت السماء كأنها تعلن عن اكتفائها بما استقبلت من أرواح وما زال ملك الموت يتراقص منتظرًا المزيد، وتهشم السابع وأشهر نائل الثامن، وبحث عن فريسة ولم يجد، الجنادرة فقدوا أكثر من نصف جيشهم، الجنادرة يصرخون لبعضهم بعبارات غير مفهومة، أيقن نائل أنها شفرة لشيء ما، الجنادرة يتراجعون، الجنادرة يولون ظهورهم أرض المعركة، الجنادرة يهرعون دالفين بوابتهم المرفوعة، الجنادرة ينسحبون، والقائد الأعظم يزأر في رجاله مجددًا:

- اتبعوني إلى المجد.

ثم يعبر البوابة مطاردا رجال الغول وباغيا رأس الغول، ومن خلفه يعبر الرجال كأنهم الجراد، منهم من يبغي غنيمة ومنهم من يبغي مجدا ومنهم من يبغي إنتقاما، ومنهم من يبغي رفعة راية وطنه.

إلا واحدا لم يعبر، ارتاع، ولا ينتوي الولوج، واحدًا هبط من أعلى فرسه، ووقف يراقب الجراد المندفع ويرمق الجدار الرهيب مرتابا، وهو يجمع شتات عقله، الأفعى لم ينقد خلف الليث، الأفعى يزيل الدماء التي تلطخ وجهه ودروعه ويفكر، يفكر ويحلل المشهد العبثي الذي يراه ويبحث عن تفسير مناسب لما يحدث، ويفكر، أخيرًا توصل إلى إجابتين لا ثالث لهما، إما أن ذاك الغول ليس له رأس ولذلك أقدم على كل هذه الحماقات، وإما أن الجحيم ينتظرهم في الداخل، وأخذ يصرخ في الرجال «توقفوا، توقفوا، توقفوا» ولم يستجب لتوسلاته أحد.

أبصر السلطان يهبط الربوة هو وحرسه ويتجه نحو البوابة، فهرع صوبه وعاود توسلاته ولم يعره صلحان أي اهتمام، فما كان منه غير أن رفع سيفه وهوى به على رأس الفرس ناصع البياض ففتك بها فتكا.

تفادى صلحان أثار السقوط وهرول إلى صخر غاضبا وأمسكه من تلابيه وزعق فيه:

ـ ماذا فعلت أيها المجنون؟!

فرد صخر وهو يشير إلى البوابة المتكدسة بالحالمين:

ـ هذا غير معقول، مستحيل.

قال صلحان:

ـ كفاك أوهاما.

قال صخر:

ـ انتظر حتى نتبين الحقيقة.

«دعني أيها المعتوه»، زعق صلحان وهو يدفع الحارس الأعظم، ثم ارتقى فرسا آخر. ارتجت الأرض، وتطايرت الأشلاء، فبغتة انغلقت البوابة الفولاذية ونسفت كل من كان تحتها لحظتها، وبفعل الارتجاج ارتمى فرس السلطان للوراء وانبطح صلحان أرضا، وارتسمت الكثير من علامات الاستفهام على وجوه المتبقين خارج البوابة، وصدقت توجسات الأفعى!

شقشق الصبح ومصير العابرين ما زال مجهولا، صلحان ورجاله الذين لم يعبروا باتوا ليلتهم مرابطين الفولاذية المنغلقة، وبينما الجوارح تتناحر فوق أكوام الجثث كان حمزة ينقب بهمه دامعا عساه يجد جثة صاحبه، وصلحان يرمق الجدار بقلق وحيرة، ويمني نفسه أن جميع البوابات سوف ترفع في آن واحد، ليخرج منها القائد الأعظم وتابعيه محملين برأس الغول، لا، هو يريد الغول حيا ستكون تلك أكبر هدية يقدمها له نائل، يود أن يشفي غليله، يريد معاقبة الغول على استهانته به، يبغي الانتقام، وعلى النقيض كان صخر يفكر بأكثر عملية، فلقد أحصى المتبقين ووجد أنهم أقل من ربع الجيوش الجرارة التي بدأت هذا المسعى الكارثي، وأرسل مجموعات لتأمين طريق العودة إلى عظمويل!

ومن أعلى الجدار الرهيب هطلت عشرات المطويات الجلدية، خاب أمل صلحان وانصدم عندما وجدها تحمل ختم الغول ومصنوعة من جلود الكلاب الشقراء المتقرحة، وكانت جميع المطويات تحوي رسالة

واحدة؛ «من غول جندرة الذي لا يعرف إلى الأرعن من دم الهمجي المنقلب سليل الغجر، ارحل وإلا فعلت بك كما فعلت برجالك».

وهطلت قطرات مصفرة داكنة كريهة علي وجه صلحان فنظر للأعلى، فوجد مئات الجنادرة يقفون على متن حصونهم ويتبولون عليه هو ورجاله، وكانت الغيلان السوداء المعلقة بخيوط سماوية ترمقه في سخرية واستهجان!.

أقسم نائل القرومي قبل أن يغوص في ظلامه الأبدي أنه لن يصرخ وأنه سيظل ليثا إلي النهاية وسيتذكره الناس دوما بالزائر، ولكن عندما أتت اللحظة رضخ وصرخ، على العموم كانت تلك واحدة من آلاف الصرخات، ولم يبقَ أحدٌ ليحكي الحكاية، وفي الخاتمة لعن نفسه أنه انساق لذلك الفخ الشيطاني وأنه قاد رجاله إلى قيعان الجحيم، ثم غاص في الظلام.

# 24

## العرين الذهبي...

«غول جندرة تبول على الرمح الذهبي»، كانت تلك العبارة هي حديث البر والبحر في كل أنحاء المعمورة خلال الأسبوع ونصف المنصرم ويبدو أنها سترددد لقرون قادمة، وكذلك في رأس جنان المنكفية على وسادتها حسرة والملازمة جناحها عزلة، حتى الآن لم يصل أي خبر مؤكد عن صلحان ولم يبعث أي رسالة، تتآكل روحها وتذبل نضارتها وخوفها يزداد على رفيق روحها، بطنها كبرت وجنينها ينبض بالحياة يومًا بعد يوم، حركته تؤنسها ومصير سلطانها يرعبها. دوى خبر الهزيمة النكراء كالانفجار كارثي المصائب، كيف حدث ذلك وكيف هلك أكثر من ثلاث أرباع جيوش زوجها؟!، لم تعرف ولم يعرف أي عظمويلي يتنفس!، فقط من عرفوا الحقيقة هم الهالكون، العابرون تلك البوابة الجحيمية، نعم، أيقنت كما أيقن الجميع أن أولئك الراحلون قد واجهوا الجحيم، ولكن لم يجزم آدمي ما قد يكون القابع وراء حصون الغولية، أسئلة كثيرة تحمل الكثير من التكهنات، لقد انتشرت الخرافات بين العامة، البعض يهرتلون أن جندرة تمتلك بالفعل غيلان ضخمة مخيفة رهيبة كجدرانهم

القاتمة وأن الهالكين لم يكونوا إلا وجبة دسمة لتلك الغيلان الوحشية، واعتمدوا في ذلك إلى أساطير سحيقة جاءت في مخطوطات عتيقة لا سند لها، والبعض الآخر ادّعى أنه كان هناك مجموعات غفيرة من المرتزقة كان الغول قد جمعهم من مشارق الأرض ومغاربها ينتظرون العابرين في الداخل ولم يؤكد هذه الشائعة أي آدمي أو ينفيها، على كل، مجموعات المرتزقة يعلنون عن إنجازتهم أول بأول وهذا لم يحدث، وهناك من شطح بخياله أكثر وأقحم سير الشياطين والعفاريت فيما وقع، وهكذا أشياء عديدة استفشت بين الشعب لا يصدقها عاقل.

وبينما جنان غارقة في مخاوفها وأحزانها دخلت عليها وصيفة وتحدثت:

ـ لقد وصل الحمام الزاجل من الجنوب.

فتوردت السلطانة وخفتت آلامها.

في قاعة العرش وقف أمين الخزانة «صباحة الأدهم» وأكبر الشرطة «مارد العنتبي» حول حوض المياه الذي يتخلله ذئب عظمويل الصامت كندين، وبينما مارد يتأمل الماء الراكد عقد صباحة يديه وقال بنبرته السمجة:

ـ أتت المراسيل من الجنوب، السلطان على ما يرام وفي طريقه إلى العاصمة.

متلهفا تساءل مارد:

ـ أي أخبار عن الأفعى؟

بخيبة أمل نطق صباحة:

ـ لقد نجى.

اكفهر وجه مارد وبصق في الحوض وقال:

ـ أي إتفاق عقده ذاك الثعبان مع ملك الموت ليتغاضى عنه كل مرة!

ومتخابثا أضاف صباحة وهو يفك يديه عن كرشه الهائل:

ـ الزاجل حمل رسالة خاصة لك.

«ممن؟!» تسائل مارد فناوله صباحة الرسالة وأجاب متهكما:

ـ من سيدك صخر.

وبأنامل مرتعشة وأعين زائغة تفحص مارد مضمون الرسالة؛ «من الحارس الأعظم لسلطنة عظمويل، صخر بن مكروم السردي إلى أكبر الشرطة مارد، لا تتهاون مع أي مارق».

ثم أخرج زفيرا ينم عن ارتياح. فغمغم صباحة:

ـ المارد ينقلب إلى هرة مبتلة أمام أفعى دهرية، عجيبة!

ونطق مارد ساخطا:

ـ لا تنكر أننا تمادينا.

وهو يولي أدباره القاعة الذهبية قال صباحة:

ـ أنت تماديت حد الفجور، أما أنا فدفاتري سليمة.

على تغريدات كروان وحيد، كان جورشبيل في مخدعه يعمد إلى كتاب مهترئ أقرب لمخطوطة سحيقة خطت على جلود رمادية، كان قد استعاره من مكتبة صلحان قبل مدة طويلة، وقرأ منه بضع صفحات ولم يفهم شيئا منه فهجره، وكان عنوان الكتاب المنقوش بدم نجس هو «نبوءات سيلينا»، وسيلينا هي عرافة أو مشعوذة أحرقها السلطان صلحان الثاني قبل ما يزيد عن القرن، نفض عنه الغبار وقلب صفحاته عشوائيا، حتى أوقفته تلك النبوءه، كلماتها تجذبه رغما كأنها انتقته لمغزى ما.

«عندما تسقط الثلوج على جبل أثانول.

وعندما تخضع الذهبية للأسود العاوي.

وعندما يرمرم الصقر ويأكل الجيفة.

وعندما يأتي زمان الثالث من حارقي.

ستتبول الغيلان في حجر الزوائر.

وستنشد البيضاء سوداءَ.

وستتوهج النجمة وتبحر منذرة بالهلاك.

عندها سيغدو العرش الأشقر رمادا منثورا، إلا إذا»

تجهم جورشبيل وأغلق المخطوطة ومزقها فزعا، ثم أحرقها!

# 25

## هرطقات السكارى...

هناك غرب الوكر حيث الحقول الخضراء التي تتهمش المدينة العتيقة، وبين عيدان البرسيم المتبرعمة، وبالتحديد في تلك الرقعة البائرة التي يحفها البوص والهيش من جميع الاتجاهات، كانت حانة «جوهرة الساقية» تحفل بهرطقات الغارقين خمرا.

الحانة شيدت من البوص والخشب وعرشت بعروق الأشجار وتتخذ شكلًا إسطوانيا، وأما عن بطنها فكانت أرضيتها مفروشة حصيرا يعتلى قشا، وفي الحواف نثرت الوسائد للرواد المعدودين، وعلى الرغم من أن ظاهرة العربدة استفشت من بعد الحرب كتطور طبيعي لأمة قد تفاقمت عليها الخيبات حتى أن كثير من أصحاب المقاهي والحوانيت أجبرتهم الظروف المتدنية على تغير دفة رزقهم، إلا أن حانة جوهرة كان لها رونق خاص، يتلخص في أنه لن تجد فيها بصاص شرطة ولا شريف مغرض ولا عصفورة خبيثة، بالإضافة إلى أن جوهرة الأربعينية، مليحة الطلة، مليئة الجسد، إمرأة كاملة الدسم، صماء بكماء، لا تتقن شيئا غير صب الشراب

وإحصاء النقود وفتح ساقيها، ولذلك يمكنك أن تسكر وتغرق في المجون وتهرطق كما تشاء بدون رقيب أو حسيب.

وبينما جوهرة جالسة خلف مكتبها الذي يترصع بقوارير الخمر، كانت دفة الهرطقة تسري عند ذلك الشيب العتيق الذي يبدو أن عمره قد جاوز السبعين بسنين، احتسى الشيب المجعد الذي جار عليه الدهر وأذله حتى سال لعابه راويا لحيته الشعواء وهرطق:

ـ لماذا الشرطة دائمًا وعلى مر التاريخ كانت عصا الشيطان؟!

احتسى وزرفت أعينه الغائرة أمطارا حارة ثم أردف:

ـ باسم الوطن سلبني الملعون «معلول» ثروتي، وباسم الوطن جروا وحيدي إلى مسعاهم.

دلف شابان إلى الحانة، وتلاقت أعين أحدهم مع أعين الشيب المنتحب، ففاق الشيب من سكرته وأشاح ناظره إلى الاتجاه المعاكس وهكذا فعل الشاب صديق ولده الراحل، وذهب الشيب عن الحانة، وجلس الشابان مكانه بينما انشغلت جوهرة بتقديم الشراب لهما واستعراض مفاتنها.

الشاب اسمه منذر، ثلاثيني العمر، متوسط الجسد وهو من تلك النوعية الحَرُونة العابسة دوما، المستاءة بلا سبب أغلب الأوقات، فما بالك بأنه حضر وشهد مآسي الحرب.

شرب منذر الكأس الأول ثم الثاني فالثالث، وهو يرفع الرابع انتبه إلى ذاك الجالس ركن الحانة وحيدا، فصفق بهزلية مسترعيا انتباه السكارى وهرطق:

- أيها السادة، أطرقوا السمع، فالآن سأقص لكم حكاية على شرف راوينا العظيم.

نطقها متهكما ثم استرسل لما أتاه التصديق من المحيطين:

- حكايتنا حكاية ثلاث أصدقاء مختلفين كلية شكلا وشاكلة، كلب وجواد وحمل، كان الجواد يعيش في أبراج عاجية من المثالية، يثرثر عن الشجاعة والمبادئ وحب الوطن والتضحية والثأر الحق وأشياء من ذاك القبيل، والحمل وديع مسكين، لا تكف الحيوانات عن التنمر عليه والتقليل من شأنه، أما عن الكلب فكانت عنده معضلة فكاهية إلى حد ما، الكلب يا سادة بغى إقناع نفسه وإقناع ساكني الغاب أنه ليس كلبًا، أوجع الأدمغة وأزكمها من ادعائه الذئوبية... أنا ذئب، أنا ذئب، يسير بين الحيونات ويصرخ أنا ذئب، أنا ذئب، وعلى الرغم من ابتياعه جلود الذئاب واكتسائهم وسكنه في وكورهم لم يصدقه أحد، فما كان منه غير اصطناع العوي، الجميع أخبروه، هذا ليس عويا هذا نباحا، والذئاب تم إخصائهم قبل أزل، ولكنه عاند وعاند ورفض الاعتراف بماهيته الحقيقية... وفي أحد الأيام نادى ملك الغابة السعران إلى الحرب، خمنوا... نعم...تم استدعاء الثلاثة أصدقاء للمسعى العظيم، خمنوا ثانية عن ماذا أسفرت الحرب... ها... حسنًا سأخبركم، الحمل وعلى غير المتوقع استبسل حتى اللحظة الأخيرة ولقي حتفه وهو يصارع الغيلان الرهيبة بكل شجاعة وشرف، والجواد المثالي تمسك بمبادئه وسقط وهو يقاتل بضراوة، ولنأتي إلى الجرو مدعي

الذئوبية والأصل العريق، أقسم بدم إخوتي أني رأيته يفر ويفر كالفئران، أتعلمون، أنا الآن أوبخ ذاتي آلاف المرات، لأني ظننته كلبا، اتضح لي أن في ذلك ظلما للكلاب، فليس هناك كلب يهرب بينما إخوته يذبحون يا سادة.

وما أن فرغ منذر من قصته حتى تعلقت الأعين المستنكرة والمستهزئة بذاك الجالس وحيدًا إلى ركن الحانة مترقبة أي رد فعل، ولكن حمزة المنهمك في ملئ كأسه الخشبي مستطيل القاعدة لم يحرك ساكنا!

كان الراوي في عالم آخر، حكاية أخرى، دارت عجلتها قبل ما يزيد عن السبع قرون ببضع سنين، أحجية الأسود والصقور والمراسي والذئاب.

صعود ياقوت وإعلان السلطنة القرومية وعدم ركوع بني مراس وبني صقر وبني ذئب للأسد هو بداية الأحجية.

من الوهلة الأولى تظن أن الثلاث قبائل الرافضة وقفوا في صف واحد، وجمعهم نفس الخندق، فتلك هي المروية التي تحكيها تواريخ آل قروم، ولكن ذلك عكس ما وقع تمامًا، فما نحن بصدده الآن هو تاريخ لم يدون في كتب الأسود.

لب الحقيقة أن القبائل المتمردة لم يجتمعوا على هدف أوحد بتاتًا، فكل منهم كان له أسبابه الخاصة لعدم الانصياع لسلطنة ياقوت، كل منهم رأى الأمر من منظور مختلف تماما عن الآخر.

الصقور حركتهم الرغبة في انتزاع التاج لذواتهم، الصقور رأوا أن ياقوت سلبهم حقهم في الغولية.

والمراسي حركتهم النزعة العرقية، فكيف لأسرة غجرية دخيلة أن تقود القبائل المتأصلة شرفا.

وأما عن الذئاب فهم اعتبروا أن اعتلاء ياقوت للعرش واستفراده به لعشيرته عن غيرهم هو انتهاك واضح لعهد عظمويل الأول والأخير الذي كان أهم قواعده هو أن يكون الأمر شورى بين جميع القبائل، وكذلك إنقلابا على ما أقره اجتماع مجلس الشيوخ الأول، بني ذئب ابتغوا إعادة عهد الغيلان الغابر وأمجاده.

وكانت تلك الأسباب كافية لأن يتربص آل قروم للثلاث على مر الأزمنة.

وأتت الفاتحة مع نهاية العام الثاني والثلاثين بعد الاستقلال عندما أقدم بني مراس على اغتيال ياقوت عن طريق اثنين من نسائهم، فاستباح الأسود دماء المراسي وعاثوا فيهم تقتيلا، ومن استطاع النجاة من بني مراس حينها استجار بغول جندرة ولجأ أرضه.

وبعد انقطاع ذكر المراسي عن أرض عظمويل بقى الصقور والذئاب شوكتان في عرش آل قروم يؤرقان أي حاكم، وفاتت السنون حتى اكتملت قرون ولم يجتمع الرافضان على هدف قط وخفتت أصواتهم المعارضة كأنهم ارتضوا.

وجاء العام خمسمائة وست وستون بعد الاستقلال وبالتحديد في فترة ولاية السلطان راكان الثاني عندما تقلد «القاسم بن عامر» مشيخة الذئاب، القاسم يعتبر أصغر شيخ قبيلة عرفه العالم، القاسم تقلد المشيخة وهو في عمر الثانية والعشرين فقط، أحبه الجنوبيون بمختلف عروقهم واجتمعوا تحت رايته، فالقاسم رفع رايته الخاصة وأعلن استقلاله بالجنوب عن صولجان آل قروم، يقال آنذاك أنه إذا سعل القاسم في الجنوب اهتز عرش راكان في العاصمة، القاسم لم يريد حكما ولا مجدا، القاسم أراد شيئًا واحدًا وهو إعادة عهد الغيلان ولكي يتم ذلك شرع في

تكوين جيش خاص بالجنوب لإسقاط آل قروم، حتى أنه تواصل مع غول جندرة آنذاك وعرض عليه التوحد وأن يعود جانبي الغابة جسدًا واحدًا كما كان الأمر في سابقه، ورحب الغول بهذا ولكنه لم يمد يد العون للقاسم، وعندها تراسل مع شيخ الصقور «أبا المازن» الذي تظاهر بمباركة المسعى وأعلن استقلاله بالمدينة الوسطية «العش الماسي»، معقل بني صقر، ولذلك المسمى سند تاريخي، يذكر أنه لما سمى آل قروم عاصمتهم بالعرين الذهبي، زايد عليهم الصقور وحولوا مسمى معقلهم من «عش الصقر» إلى «العش الماسي».

وبعدما ادعى أبا المازن خروجه عن عباءة راكان طلب من القاسم أن يأتيه بجيشه حتى يفرض سيطرته على إقليم الوسط أجمع لأنه لا يملك العدد الكافي، وبرغم التحذيرات من معاونيه استجاب القاسم لاستنجاد شيخ الصقور، وقاد رجاله صوب الوسط وأودع الجنوب لبعض من بني جلدته الموثوقين، وأثناء عبوره تلك المنطقة الجبلية الوعرة التي تفصل الجنوب عن الوسط وجد ملك الموت ينتظره، فلقد باعهم أبا المازن للسلطان راكان، الجيش القرومي ومعه رجال الصقور نصبوا الكمائن لجيش الجنوب وأفنوه، وهكذا لاقى القاسم حتفه وانتهى مسعاه وراح جيشه لأنه وضع ثقته في صقر.

وبعدما غدر راكان بالقاسم توجه بجيشه للجنوب وحاصره، وخير الجنوبيون إما الهلاك وإما تسليم الإقليم مع شروط مجحفة، وهنا انقسم أهل الجنوب، ولكن القرار كان بأيدي الذئاب المتبقين الذين ترك لهم القاسم إدارة شئون الجنوب في غيابه ولم يصحبهم معه إلى مثواه الأخير، وعندها اختار بعض الذئاب عدم المقاومة، وغفلة من الأخرين، وحين غرة سلموا الإقليم إلى آل قروم من جديد، وكان مصير المعارضين

المقاومين هو الإعدام في أكبر ميادين الجنوب، الميدان الذي يطلق عليه الآن «ميدان الذئاب» لأن الذئاب لاقوا نهايتهم فيه فهو بمثابة مقبرة القبيلة الهالكة، وسميت تلك الأحداث بعملية خصي الذئاب لأن من تبقى من بني ذئب هم من سلموا الجنوب لراكان، أما عن من سلموا الإقليم فهؤلاء سلبهم راكان جميع ممتلكاتهم وأعطى تعليماته أن من يتنفس منهم ببنت شفة ينال نفس مصير المتمردين، ولهذا أطلق الجنوبيون على أولئك الخانعين لصولجان الأسد اسم «الكلاب».

في فجر التاريخ قالوا أن «ما دام هناك غولا يقود بعهد الأول والأخير، فاعرف أن هناك ذئبا ينصحه».

والآن يقولون «الذئاب تم إخصائهم قبل زمن ولم يتبقَ غير الكلاب».

دافع خيانة الصقور للقاسم لم يكن هو ارتضائهم بسلطة الأسود، ولكن وبكل بساطة عقدوا مفاضلة فوجدوا أن فرصة القاسم ضئيلة وآماله لا تتماشى مع طموحاتهم، وعلى كل هم كانوا يعتقدون أن الذئاب عقبة ففضلوا التخلص من العقبة وإيهام آل قروم بولائهم، وأخذوا يتحينون الوقت المناسب لانتفاضتهم، وكانت، فمع نشوب أحداث الأنشودة السوداء وبعدما قوت شوكة أتباع «السالم كارم بن عديل الحوراني»، شعر الصقور أن فرصتهم قد أتت، وأعلنوا العصيان على السلطان أشبوب وركبوا موجة الثورة، وجاءت القاضية لما نجح أشبوب في إخماد الثورة، وعندها قرر محاسبتهم وأمر حارسه الأعظم بالإطاحة برأس شيخ الصقور ورؤوس بضع من كبار القبيلة، ليرتكب شيخ الصخور زمانها «حيدر بن مأمون» أجحم زلاته ويستعين بمرتزقة المحيط لإغاثته.

هيبة سهم القدر أعظم نشاب عرفته الأرض يبحر نحو عظمويل.

هيبة المصاب بجنون العظمة، هيبة الذي يدعي أنه إله الحرب يبحر بالهلاك.

هيبة طاغية سادي، هيبة سيحولها لبرك من دماء، هيبة سيأتي على الأخضر واليابس، هيبة لا يخلف وراءه شخصًا يتنفس، هيبة... هيبة... هيبة...

الليث يداهم القدر ويحرق هيبة...

وحيدر شيخ الصقور يهدي أشبوب سببًا،

أشبوب يعطي أوامره لجلاده صخر «امحِ الصقور».

صخر ورجاله يزهقون الأرواح بلا ذرة رحمة، صخر ورجاله يقتلون النساء والأطفال والرضع، الأفعى يذبح ويذبح ويذبح،

وكانت خاتمة الصقور.

وحمزة يتجرع ويتجرع يسكر ويسكر ويفكر «ماذا لو اتحد المراسي والصقور والذئاب على مسعى أوحد؟!».

حمزة يقوم مترنحا ويقذف محتوى كأسه في وجه منذر، ويذهب قاصدا الجواد الجريح، وجوهرة ترفع ساقيها ومنذر يصب جام غضبه في عشها، وهرطقات السكارى لا تنقطع وأحدهم يقول:

- الرياح تحمل همسات خطيرة من الأزرق، هناك صقر نجى وهرب بمعجزة ما قديمًا، ويعد أسطولا من القراصنة والمرتزقة وشعاره «الصقر قادم ليطالب بحق أجداده!».

# 26

## الجواد...

المقهى شبه خاوي كخواء الموت من أي حياه، ذهب الشباب إلى الحرب وذهبت ريحهم حتى من عاد منهم عاد مبتور الروح.

الحياه متوقفة، الضرائب أثقلت ظهور الناس، وما زاد الطين بلة هو استغلال الغربان لحالة الحرب وفرضهم إتاوات باهظة مجحفة على العامة.

لقد كتبت له النجاة، صاحبه فتش عنه كثيرًا بين أكوام الجثث، نقب عنه بهمة حتى عثر عليه، ربما لو كان الراوي تأخر قليلًا في إيجاده لكان هالك.

«رب ضارة نافعة»، قال له حمزة، فلولا سقوطه المبكر لأمسى أحد العابرين تلك البوابة الجحيمية مبهمة الخاتمة.

«لم يبقَ أحدٌ ليحكي الحكاية، غول جندرة تبول على الرمح الذهبي، الليث قاد الرجال إلى الجحيم والسلطان لم يطأ أراضي الغول، لم يعبر ويواجه ذاك المصير أودع الأبناء جهنم الغيلان وعاد»..، أمطرت تلك العبارات مسامعه منذ أن استفاق من غيبوبته، وقعها كان صادمًا صاعقًا

على دواخله وزعزعت كل قناعاته، «آسر» قضى الخريف كاملًا ملازمًا داره، لم يفارق حجرته لشهور، تركت الضربة الغادرة ندبة طولية متمايلة على خده الأيسر ولكن تلك الندبة لا تضاهي وجعا ندوب روحه فلقد هشمت، ظل في المدينة ولم يعد لمعسكر فرقته بعد وكذلك فعل معظم الناجيين من معركة الأسد والغول.

أشهر طوال، اعتزل وابتعد، نوم شبه منعدم وتفكير مستديم، مع الوقت تحول حزنه وغضبه ويأسه إلى تساؤلات، تساؤلات لم يتوقف عقله عن ضخها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يفكر فيها بلا قيود ولا مثالية، نحّى كونه فارسا بن فارس ونحّى كل ما تجرعه في جيش آل قروم حد التلقين جانبا، وفكر وتشكك وتساءل.

«علموني أن شعوب جندرة مزارعون متخلفون لا يجيدون إلا الفلاحة، ولا يأبهون إلا بملئ بطونهم وأنهم أشبه بالأنعام، إذن كيف تلاعب غولهم بأسدنا الغازي الملهم؟!

علموني أن الجنادرة جبناء، استغلوا الجفاف العظيم وما ترتب عليه من مجاعات كبرى وبنوا حصونهم واختبئوا وراءها كالجرذان، كيف فعلوا ما فعلوا إذن؟!

علموني أن الغيلان خونة غدارين، نقضوا عهد الأول والأخير وباعوا دمه، وعلى مر الزمان كانوا في خيراتنا طامعين ولأمتنا المجيدة حاقدين، وأن الأسود الذهبية دومًا ما تصددت لدنائتهم، لماذا لم يقدموا إذن؟!

الأسود ضعيفة والفرصة سانحة، كل ما عليهم هو عبور الغابة والزحف شمالا صوبنا، الأمر يسير والغول في أوج جبروته! «

الجنادرة طامعين في خيراتنا ناقمين على رخائنا؟!، حقا؟!، أين خيراتنا وأين رخائنا، أين تذهب؟!

وكيف كنت غافل على كل ذلك، وهل الآخرين مثلي غافلين أم أنهم يغضون الطرف ويتحاشون المتاعب؟!

وتفتح عقله لأسئلة أخرى أكثر غرابة وريبة...

«التمرد، المرتزقة، الخونة، مقتل والدي، البطل أشبوب!

كيف قطع الجنادرة تلك المسافة إلى العاصمة وفعلوا مجزرتهم تلك الليلة الحمراء وعادوا إلى أراضيهم دون أن يردعهم أحد؟!

هل فعلا كانوا النحاسيين هم من فعلوها؟!

ولماذا تتحاشى أمي الحديث عن أبي؟!

كل ما تحدثني به عندما تأتي سيرته «من مات رافعًا سيفه باغيا حق لم يمت»، أي حق كان يبغيه والدي ودفع حياته لأجله؟!

ويبقى السؤال «هل مجرد التفكير في ذلك يجعلني خائنا؟!».

حمزة يلح عليه بالخروج من خلوته، والحجرة تضيق وروحه تهلك، تستنزف، أم عمارة بأي وجه سيقابلها؟، قبر أبيه بأي حق سيزوره؟ وحمزة يقول» لا تحمل نفسك أوزار غيرك «، زهد السقف القرمدي والجدران التي كانت بيضاء لم يعد يراها بيضاء، إنها تشع كآبة وعتمة، واليوم امتثل لإلحاحات صاحبه وخرج عن خلوته والتساؤلات لم تتوقف.

يتساءل آسر:

ـ لماذا انهزمنا؟!

فيتساءل حمزة:

ـ لماذا حاربنا؟!

يجيب آسر:

ـ السلطان أراد ذلك.

فيضيف حمزة:

ـ ولذلك انهزمنا.

يقول آسر:

ـ لا أفهمك.

فيقول حمزة:

ـ هم الأسود وأنتم الخراف هم يأمرون وأنتم تنفذون، حرموا عليكم التفكير، حرموا عليكم التشكيك، حرموا عليكم الاعتراض، المفكر خائن والمشكك خائن، والمعترض خائن.

يقول آسر:

ـ لا أفهمك.

فيقول حمزة:

ـ جعلوك كذلك.

يتساءل آسر:

ـ وأنت؟!

يجيب حمزة:

ـ أنا ذئب.

الحين حين ضحى والسماء ملبدة بالظلمة والأجواء مفعمة بالبؤس، وصيب الشتاء الوفير لم يقدر على محو نكبات الصيف الدامية، الفقر اشتد، الظلم اشتد، يترجل هو وحمزة والوجهة مقهى عقبة ويتأمل، لا شيء بقى كما كان، فأهوال الحرب دمرت ظهر البعير وأحالته رمادا، المقاهي أصبحت حانات، والتجار هجروا حوانيتهم، والبغاء استفشى، اندفنت روح الوكر وبهجته تحت جبال النكبات، أين عمارة وأين نكاته؟ وهل هذا حمزة أم أن هذا طيف مظلم منه؟ حتى هو، آسر الفارس الصنديد ذبل وشحب وتملكه الإحباط، وبينما هو يتأمل الوكر الجريح نطق حمزة:

ـ لا تستغرب يا صاحبي، فهذا هو حال أي أمة منحدرة ترتبط أقدارها بطموحات فرد، هذا هو حال أي أمة تقف على حافة الهاوية ومجرورة لحتفها.

تساءل آسر:

ـ لماذا لم تغلق الشرطة الحانات، لما لم يمنعوا البغاء؟!

قال حمزة:

ـ الغربان يشرفون بأنفسهم على ذلك، يشاع أن هذه أوامر عليا من الجلاد، الأفعى يود إلهاء الشعب ونسيانه وارتضائه الحال، يودنا جميعا سكارى حتى لا نثور على رغبات الأسود.

ثم وضع يده في جيب جلبابه وأخرج مطوية التبغ فوجدها خاوية فتأفف وأردف محذرا:

ـ كثرت تساؤلاتك أيها الفارس، وذلك خطر على من مثلك.

المقهى على غير عادته فارغ إلا من بضع، وعقبة لم يحوله لحانة، استغرب آسر، فالشيخ انتهازي وهذا يخالف طبيعته، وكان عقبة يرمق الفراغ بعين ويفرك الرقعة الجلدية التي تغطي الأخرى وينفث الدخان كأنه آخر أنفاسه، عقبة غريب ومتناقض، بضع وصبي مشاريب متذمر وبصاص شرطة يراقب ذلك هو كل الباقي من المقهى المتداعي.

وثارت ثورته حينما أبصر أم عمارة المتشحة السواد مفترشة أسفل شجرة الصفصاف وتبكي ولدها، تنحب فقيدها النفيس.

أم عمارة هزلت ونال المرض منها ما نال، ولكن هذا كان آخر ما قد يتحمله.

هم إليها بينما استوقفه حمزة وقال:

ـ على هذه الحالة منذ أن عرفت الفاجعة، لا تقلق فعقبة يتكفل بها ولكنها لم تعد تنصت لمخلوق، هي تنتظر عمارة، وعمارة راحت أنغمه ولن يعود، أتعرف أنا أفتقد عمارة.

ثم صمت هنيهه واتجه لعقبة وقال:

ـ يا شيخ أقرضني حفنة تبغ.

وبينما جميع الجالسين شاردين كل في مصيبته، تحدث شاب في مقتبل العمر:

ـ لقد رنمت السوداء في مدينة «علقم» المجاورة.

فتساءل حمزة وهو يحاول إخفاء لهفته:

ـ هل هناك حي يحفظها؟!

أجاب الشاب:

ـ لم تنشد كاملة، بضع كلمات فقط، ومرنمها أحرقته الشرطة، يقولون أنه مسكون من قبل الشياطين.

حمزة تفحص الشيخ فوجده منزعجا، وانتظر منه توبيجا للمتمردين كالمعهود ولكن عقبة لم ينطق ولم يعقب، ففكر الراوي أن الكهل والعجزة أمثال عقبة هم بلاء هذه الأمة.

وفكر آسر أن عقبة غريب ومتناقض.

وبينما حمزة يلتهم التبغ قال آسر بصوت خفيض:

ـ أعلم أنك اطلعت على العديد من كتب الجنادرة.

«نعم»، قال حمزة فتساءل آسر:

ـ بما يذكروننا؟

أجاب حمزة:

ـ بكل سوء وبأبشع الصفات.

تساءل آسر:

ـ تصدقهم؟!

قال حمزة:

ـ أنا لا أصدق أحدًا، فالتواريخ يكتبها القادة ليقدسها العامة.

وتوالت الأيام وتواردت الأخبار من أقصى الشمال حيث العرين، فالسلطان معتزل في جناحه ويسكر ليل نهار، ومارد غاشم باطش لا يتهاون مع أي خارج عن الصف، وصباحة يؤمن مخازن الأشراف، وصخر يهيكل الجيش ويستدعي الفرسان والجنود المتخلفين.

وتجئ الأنباء من المدن المجاورة، فالسوداء تتردد منها بضع كلمات هنا وهناك، والشوارع محتقنة، والغربان يحرقون المرنمين المسكونين بالشياطين، وعصب الصعاليك المتفرقة اجتمعت تحت لواء واحد، لواء رجل مجهول الهوية يدعونه سيد الجبل، والسلطان منعزل في جناحه مخمور.

وكان تكالب الأسئلة على رأس آسر له مفعول النصال في جسد محارب ترصع بالمدى.

# 27

قصر...

هنالك في الأعالي ظهر خيط هلالي وتوهج وهنا، كان المقهى ساكن كمقبرة، والشيخ عقبة ينتصي مقهاه ويرمق الفراغ ونيران المشاعل تتراقص في تناغم مرير وأم عمارة تفترش جذع الصفصافة وتبكي فقيدها النفيس، وعود الناي ملازم حجرها حزين، وقطع السكون هديل زوج من الحمام ينقب في الرمال عن ما يسد به جوعه، وآسر شارد الذهن ودماغه تلد هموما، وحمزة مشغول بتلقيم غليونه ويتمتم لا إراديًا:

ـ أجسم خطيئة فعلها «القاسم» ليس أنه منح ثقته لشيخ الصقور، بل أنه خرج بجيشه من الجنوب، وذلك ما لعب عليه راكان.

«ماذا؟ «، تساءل آسر بعدم فهم فاستدرك حمزة:

ـ لا شيء، لا شيء.

الراوي لا يعرف ما الذي يجعله يتعمق في سيرة القاسم الذي تقلد المشيخة وقلب الدنيا رأسا على عقب وقتل قبل أن يتم الثلاثين، هناك هاتف لا طبيعي غريب يجذبه إلى التأمل في تلك الحكاية القديمة.

قال آسر وهو يمشط شاربه الكث وقلبه يتقطع على والدة العازف:

ـ حدثني عن تاريخ جندرة فيما يتناقض مع ما تلقّناه.

قال حمزة:

ـ أحدثك عن ماذا ولا ماذا، يكفي أن أقول لك أن التعارض كان من بداية البداية، أتعرف تلك القصة المرهفة التي نتداولها عن عظمويل ومحبوبته جندرة وقافلة الجوالة، لقد اختلفوا فيها معنا، استندوا إلى أخبار أخرى، يقولون أن الأمر لم يكن بتلك السهولة، لقد استعمرنا هذه الأرض بالوحشية والدموية وليس بنداء الحب كما تخبر كتبنا.

«السلام السلام، في قديم الزمان كان هنا رجال أحرار، غيلان سادوا العالم، عمروا الأرض، نشروا العلم..».

فجأة وبغتة وعلى حين غرة، الشيخ عقبة ينفزع وبصاص الشرطة يرتعد ويهرع باغيا قلعة الغربان، فأم عمارة ترنم:

ـ السلام السلام، في قديم الزمان كان هنا رجال أحرار، غيلان سادوا العالم، عمروا الأرض، نشروا العلم...

لم يأبه القاعدون بما تهرطق العجوز المكلومة إلا حينما رأوا الفزع يعتلي عقبة، والبصاص يهرع مرتعدا، عندها أدركوا حجم الانفجار الواقع، الشيخ مصدوم وآسر مذهول والتوجس والريبة أصابا البضع المجتلسين عمق المقهى، وحمزة يتمتم في دهشة:

ـ تلك كلمات من الأنشودة السوداء!

وعم السكون ثانية، الناس يترقبون المشهد من خلف النوافذ ويشفقون على العجوز الثكلى، فبعد أن توفي وحيدها وعائلها ها هي

تنتظر الحرق حية، والخوف يعتري الأعين الشاهدة على الانفجار الواقع وما زالت أم عمارة تنتحب وتنشد!

ولم يكد يمر أكثر من نصف ساعة وعاد البصاص ومعه خمسة من خيالة الشرطة يتقدمهم كبير القلعة «معلول» الذي هبط من على متن فرسته الحمراء متذمرا، وكذلك فعل غربانه وهموا لجر العجوز المرنمة كلمات الشيطان ولكن، ولكن الفارس استفزه الحدث ولم يقدر على التغاضي ولاح له وجه عمارة في الأفق البعيد يستنجد ويردد وصيته، فما كان منه غير أن انتفض ودفع زبانية معلول عن أم صاحبه ووقف حائلا، وبينما معلول يقبض على رأس سيفه، انضم حمزة لآسر الذي قبض على قبضة معلول، فحاول الكبير استلال سيفه ولكن قبضة آسر كانت أقوى، فأشهر الغربان سيوفهم وعندها التحق الشيخ عقبة وبقية القاعدين إلى الفارس والرواي بينما انفتحت أبواب البيوت وخرج منها العشرات وانضموا إلى المدافعين عن أم عمارة، فما كان من معلول غير أن أمر رجاله بإنزال سيوفهم وذهب راجعا إلى قلعته مخلفا وراءه الكثير من عبارات التهديد والوعيد.

المدافعون عن أم عمارة يولون ظهورهم وكل يعود لمكانه وقد تفاقمت مخاوفهم وريبتهم، هل ما فعلوه صحيحا أم خاطئا، وماذا ستكون عاقبتهم، فإن كانوا قد غلبوا معلول بالعدد الآن، فمعلول لن يتركهم، معلول لديه خمسة آلاف غراب باطش يأتمرون بإمرته، ماذا لو رجع وذلك هو المتوقع، هل سينالون نفس جزاء المرنمة، هل سيحرقون أحياء؟!

انتبهوا لعقبة وأخذوا يرمقونه بنظرات عدم فهم، هل الشيخ قد فقد عقله وجن، عقبة يقف منتصف الشارع ويفرك رقعته بعنف حد التمزيق، عقبة يكلم نفسه، لا، بل يصارعها، يتقدم خطوتين نحو

المقهى ثم يعودهم إلى منتصف الشارع، طيف قمر يراوده، طيف قمر يؤنبه، طيف قمر يحتضنه ويدمع وتدمع.

قمر تقول:

ـ افعلها.

وعقبة يقول:

ـ لا...

قمر تقول:

ـ إنه الموعد.

وعقبة يقول:

ـ لم أعد ذاك الشاب الذي عرفتيه.

وقمر تقول:

ـ أنت هو، أنت خالق الرمز وأنت أساس تلك الملحمة البيضاء.

وعقبة يقول:

ـ لم أعد ذاك الشاب، أنا كهل خانع.

وقمر تقبله وتقول:

ـ وماذا تبقى لتبكي عليه، اعرف سواء فعلتها أم لا، سأظل قمرك إلى أبد أبدين...

ثم تقبله ثانية وترحل.

الجميع يحدقون، الجميع يشفقون، الجميع يتساءلون وعقبة يزيل دمعاته الحارقة وينشد:

ـ السلام السلام، في قديم الزمان كان هنا رجالا أحرارا، غيلان سادوا العالم، عمروا الأرض، نشروا العلم، أخضعوا

رقاب المارقين، تمسكوا بعهد الأول والأخير فأطالهم الله في البنيان، ونحن شبابا أحرارا، أحفاد أولئك الغيلان، جئنا الآن ننشد الحق، ننشد العهد، ننشد...

الكرامة الكرامة،

ننشد...

الحرية الحرية،

ننشد...

العدل العدل،

ننشد...

المساواة المساواة،

واخترنا السلام دربا لنا...

فالسلام السلام.

الكل عرفوا أن هذه هي كلمات الأنشودة السوداء وأنها اكتملت، والبعض رتل وراء عقبة، والأكثرية يرمقون الشيخ بنظرات مرتبكة متسائلة، وكان أول المرتلين هو حمزة الراوي، وأشد المتسائلين هو آسر بن جواد الحق، لاحظ عقبة العيون المتعلقة به وعلامات الاستفهام التي تعتلي الوجوه، فزعق:

ـ لا ينسى شاعر ما ألّف أبدا.

وبينما حمزة يتحاشى النظر إلى صاحبه المستشيط، جرى آسر على عقبة وأمسكه من تلابيبه وبعينين تطقان شرارا صرخ فيه:

ـ هذه ليست إجابة كافية أيها البائس، فوالدي راحت حياته بسبب تلك الأنشودة!

وبرفق فك عقبة قبضة آسر، واجتلس مكانه في ناصية المقهى وأشعل غليونه وأخذ أنفاسا عميقة، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ دهور التي يتلذذ فيها برحيق التبغ، ثم شرع في الحكي:

- كان هناك شاب متحمس دومًا، ذو روح متمردة ضائعة تائهة يسكن جانب الفقراء في العاصمة، شاعر هاوي يلف المقاهي ويتنقل بين دور الشعر، يلقي قصائده هنا وهناك عساه يجد ضالته، وبعد الكثير من العناء وجد ضالته أخيرًا في «قمر»، كانت صبية تزيده حماسة وتمردا، فريدة من نوعها، فريدة في طباعها، فريدة في حبها، فريدة في ثورتها، وكانت قمر حياته ونوره الذي يهتدي به في ليله الطويل الحالك، استأجر كوخا بسيطا وفي حفل أبسط تزوج معشوقته القمر، وكان ذلك متزامنا مع انتهاء الحرب الدامية في البحر ضد السماندة، ومثل اليوم كان الخراب هو السائد أرجاء البلاد، وعلمنا آنذاك أن أشبوب هادن السماندة وأعلن الغزو على جندرة، وكانت تلك هي الناهية بالنسبة للشعب، وبدأت الأصوات تتعالى ضد آل قروم، وأتت الشعلة الأولى عندما خرج مجموعة من الشباب إلى الشوارع ينادون بالإصلاح وكان من ضمنهم قمري، كنت مترددا في البداية ولكن مع إلحاح قمر غلبتني حماستي، وتملكت مني الروح المتمردة وأصبحت ثائرا على عرش المخبول أشبوب، في البداية لم تتجاوز أعدادنا البضع آلاف، واخترنا السلام دربا لنا، وجعلنا العهد هو مطلبنا، لا ليس مطلبنا، بل حقنا، هكذا كانت تخبرني قمر، كنا شبابا متفانين فيما بيننا، لم يطمح أحدنا

لمجد أو بطولة أو منصب، ولهذا تلثمنا ولم نعلن عن هويتنا، ومع ذلك زبانية أشبوب لم يدعونا لحال سبيلنا، أهالوا علينا الافتراءات، أشاعوا أننا مارقين، متمردين على التاج، مرتزقة مجرمين يريدون زعزعة الاستقرار وهدم إنجازات الأسود، ومع ذلك حافظنا على سلميتنا واعتصمنا في ساحة ياقوت، فنحن لا نبغي دمارًا ولا خرابًا لأحد، نحن نبغي حقوقنا، فأطلق أشبوب زبانيته يحرقون ويخربون ويغتصبون باسمنا، وعلى الرغم من ذلك كانت حركتنا السلمية تتزايد، الكثير من المدن أعلنوا الثورة على أشبوب وخرجوا عليه، فما كان من المخبول غير أن سلط غربانه عليهم، لتشهد جميع الميادين معارك عاتية وفي النهاية وعلى غير المتوقع استبسلنا وهزمنا الغربان، فهربوا وتركوا قلاعهم لنا، وتشجع الشعب أكثر وأكثر، وفي إحدى الليالي وبينما أنا وقمري مرابطين ساحة ياقوت، جالتني خاطرة وجمعت حقوقنا وتجليت وأنشدت، فكانت هذه الأنشودة، حقًا لم أتخيل وقعها وما حدث بعدها، فلقد انتشرت كالنار في الهشيم، تعنت أشبوب وأمره بحرق كل من يرتلها هو ما أكسبها تلك الملحمية وجعلها رمزا لثورتنا، أضحيت أعدادنا مهولة، في ساحة ياقوت فقط، قاربنا المائة ألف ثائر، ولاح الانتصار قريبًا، وعندما وجدت شعراء السلطة والغانيات ومنافقي أشبوب ينضمون إلينا عرفت أن عرش الأسود يتداعى ولم يبقَ غير القليل جدا، وأيقنت حينما تواردت الأخبار، أشبوب يعطي أوامره للقائد الأعظم لمحونا، الليث لا ينصاع ويختار الحياد، ولي

العهد ملكان على خلاف مع والده، فرقة فرسان تنشق عن الجيش وترتل أنشودتنا ويأخذوا على كاهلهم حماية الثوار، وفي النهاية أشبوب يعلن أنه سيلقي خطابا وينوي التنحي عن العرش وتسليم تاجه للثورة.

وتسليم تاجه للثورة كان سببا رئيسيا في تشتت الصفوف تلك الليلة، حسنًا، فلقد آن أوان السؤال المؤجل، لمن سيكون التاج بعد أشبوب، وبدأت النزاعات فكل فصيل أو عشيرة يرى أنه الأحق بالعرش، حتى أن الأكثرية ذهبوا عن الساحة تلك الليلة لكي يرسم كل متنازع فيهم كيف سيقنع الشعب بأحقيته هو عن غيره، ومع برودة الجو القارصة تلك الليلة وشعور البعض بوصولهم للمبتغى المنشود عادوا إلى بيوتهم، ولم يبقَ في الساحة إلا حوالي عشرين ألفًا من المتفانين الملثمين.

وتلك الليلة هي الليلة السابقة لخطاب أشبوب المنتظر، وفي جوف الليل كنت أنا وقمري نرتكن تمثال المنقلب ونمني أنفسنا بغد أفضل غد ينصف الأنشودة ويحققها ويرسخها، وأثناء ذلك جاءت الغادرة، رأيتهم يحيطون الساحة، وبدم بارد يقضون على فرقة الفرسان المنشقة عن الجيش التي تحمينا، انفجعت وتساءلت، ماذا يفعل متدرعي النحاس هنا، ما دافعهم، فرسان جندرة ماذا يبغون منا، لماذا يذبحوننا؟!، وعرفت الحقيقة لما أبصرته وهو يقترب مني، أولئك لم يكونوا فرسان الغول، اقترب مني أكثر فتبينته بوضوح، نفس

العينين السامتين، نفس السيفين الحاصدين، هذا هو بطل الحرب الدامية، هذا هو الأفعى قائد حراس السلطان وهؤلاء هم حراس السلطان، وبمنتهى الهدوء وضع سيفا في قلب قمر فأخمد نوري للأبد ووضع نصل الآخر في عيني، وكانت المجزرة المريعة، وكان صخر الأفعى ورجاله هم فجرة الليلة الحمراء، هذا هو صخر طوفان سافك لا يفرق بين عدو ورفيق.

وبينما المتواجدين يصغون لحكاية عقبة وأعينهم تملؤها الدموع توقف عقبة ولم يعد قادرًا على الإكمال وكان جلبابه ينز ماء حارقا من أثر ما ذرفته عينه من أدمع، وما سكبته مسامه من عرق، ولم تعد روحه المتألمة تقدر على الغوص أكثر في غياهب بحور الذكريات المأساوية.

# 28

رومان...

انطلق الجواد الأبيض يشق المدقات الرملية، مخلفا الجبال وراءه ووجهته هي وكر الذئب منبع الثورة، فالأنشودة البيضاء قد رتلت من جديد قبل أسبوع، والجنوب ينتفض، وميادينه تكتظ بالمنشدين، الليل دامس والرياح شديدة والوكر يلوح قريبًا.

وهي تفكر...

ماذا لو سألها الثوار عن ماهيتها، بما ستجيبهم، وماذا لو حكت قصتها، هل سيصدقها أحد، هل ستخبرهم أنها أميرة آل قروم، الناقمة على آل قروم، والمنبوذة من آل قروم؟!

هي رومان ابنة السادسة والعشرين خريفًا، والمعروفة سرًا بابنة الجارية، والدها كان أحد أمراء الأسود، وقد اشتهر بمقاومته لفساد بعض أمراء العائلة، فلقد تصدى لهم علانية، ولم يتوانَ عن كشف فضائحهم، ولكنه وقع في خطيئة جعلت منه أضحوكة، إثم لا يغفره الأسود ولا يتقبلوه، وقع في حب جارية وتزوجها، ووصم بعار إهانة اسم العائلة العريقة، وعلى الرغم من ذلك لم ينقطع عن محاربة الفساد، لم يتوقف عن الإصلاح،

فتآمر الأمراء الفاسدون عليه واغتالوه، وكان ذلك قبل عشر سنوات من الآن، وتلك قصة لا يعلمها العامة.

فما كان منها غير اللجوء للسلطان ملكان والاستجارة بعدله، وملكان أصدر حكمه بالدية، وجمع لها ألف قطعة ذهبية من القاتلين، ولكنها لم ترتضَ، ولن تبتغي غير القصاص والانتقام، وهذا هو ما لم يمنحه لها ملكان، ويومها وقفت في بهو القصر وأهانت السلطان لتغاضيه عن حقها، ولحسن حظها لم يعدمها السلطان، وإنما أمر بنفيها إلى مدينة «غصن الزيتون» الوسطية وحظر عليها القدوم للعاصمة، ومن حينها أقسمت أنها لن تخذل دماء أباها كما فعل ملكان، وكانت نار الانتقام تزدهر في داخلها يومًا بعد يوم، والآن تشعر أن اللحظة مواتية وأن تلك الأنشودة ستكون هي الطريق للحصول على قصاصها وانتقامها.

دلف الجواد الأبيض الوكر وراكبته الفاتنة تبحث عن مرشد لمكان الاعتصام.

اسمها رومان وهي وردية البشرة، فاتنة، لها أعين عسلية كحيلة تسحر الأفئدة وتسلب العقول، رأسها نافر وتجدل شعرها الذهبي على شاكلة ذيل فرس جامح وهي جامحة الروح وتسعى لتحقيق انتقامها الخاص، والليلة قبل الماضية داهمها صعلوكان، وتملصت من مطارتهما تحت غطاء السهام، فهي تجيد استخدام القوس كما تجيد استعمال الإبر والخيوط.

وجدت مرشدها وعرفت أن اسمه «زيد» وأن مكان الثوار هو ميدان الذئاب، وزيد صبي يافع رفيع البنية ولكنه صلب، أسمر وشعره منتصب في انعراج ويتشابك، ويشع حيوية واصطحب رومان إلى مثوى الثوار.

ميدان الذئاب هو أرض عقيمة تشرق منتصف المدينة وتحفها البيوت الحجرية البيضاء، وفي العادة تستخدم كسوق أما قديمًا فكان غرضها وأد الضواري العاوية.

الميدان متكدس بالمعتصمين، اثنا عشر ألف ثائر هنا، ثلثهم من الأطفال والنساء، وهناك في وسطه شيدت منصة بأكوام التبن والقش ويعتليها شاب أسمر أشعث، وينشد بصوت لم تستحبه والبقية يرددون خلفه، أتاها صوت زيد:

ـ ذلك صاحبي حمزة، إنه مختل ومغرور!

ولمحت رومان شابًا أخر، حنطي البشرة، له شارب كث، ولحية بنية خفيفة، مكتنز العضلات، ويتزين نصف وجهه الأيسر بندبة، كان يسير وسط الحشود ويطمئنهم ويشد من أزرهم ويشرف على تأمين الميدان، وجوده يبث الطمأنينة في نفوس الجميع ونفسها، فأضاف زيد:

ـ وذلك هو صاحبي آسر، إنه شهم وطيب.

ثم أخذها وأودعها خيمة من المئات المبسوطين في عمق الميدان، لتنال قسطا من الراحة فالسفر أنهكها، ولكنها لم تنسَ أن ترتل:

ـ السلام السلام، في قديم الزمان كان هنا رجال أحرار، غيلان سادوا العالم، عمروا الأرض، نشروا العلم، أخضعوا رقاب المارقين، تمسكوا بعهد الأول والأخير فأطالهم الله في البنيان، ونحن شباب أحرار، أحفاد أولئك الغيلان، جئنا الآن ننشد الحق، ننشد العهد.

ننشد...
الكرامة الكرامة
ننشد...
الحرية الحرية
ننشد...
العدل العدل
ننشد...
المساواة المساواة
واخترنا السلام دربا لنا...
فالسلام السلام.

# 29

## أنشودة ثورة...

صوت الهتافات بدا خافتا عن العشر أيام السابقة، وحمزة يعتلي المنصة ويرتل متكلفا الحماسة ولكن ماذا بعد؟، فالغربان لن يكرروا غلطات الماضي، لن يهجموا بحماقة واستهتار كما فعلوا في عهد أشبوب، بالتأكيد معلول ينتظر المدد، والراوي يثير عزيمة نفسه، حمزة يرمق الخوازيق العملاقة المتصدعة المدقوقة منذ أزل في جوانب الميدان، تلك الخوازيق اللعينة التي حملت رؤوس أجداده قبل دهور، ويستعيد ليلة عقبة خالق الرمز ونبي الملحمة.

لقد كان مشهدا مهيبًا، لحظة ربما تسببت في تغير مجرى التواريخ، ليلتها خرج البشر من وراء النوافذ، ومن خلف الستائر، في الشرف وعلى عتبات البيوت، وأنشدوا، كأن العامة كانوا يتأهبون اللحظة، ينتظرون الشرارة الأولى لكي يُحيلوا عرش آل قروم رمادا، وجاءت الشرارة من آخر مكان وآخر شخص قد يتوقعه آدمي جاءت من الشيخ المتناقض، حتى آسر أنشد.

وآسر يشرف على تأمين الميدان بأعين محمرة كأنهم جمر من سجيل، يحصن الميدان بكتل حجرية ويحفر خنادق ولكنه يدرك أن ذلك كله لن يردع معلول إذا أتاه المدد، وأيضًا يدرك أن المشوار طويل وشاق على نقيض ما يشعر به المأخوذون بلذة اللحظة، هو يعرف أنهم ليسوا إلا مجموعة من الرعاع الخارجين في منظور القادة والسلطة، وأمر إبادتهم ليس بعسير على مارد ومتبوعيه، فكيف الحال مع الأفعى؟!

«من مات رافعًا سيفه باغيا حق، لم يمت»، الآن فقط عرف معنى كلمات أمه، وعرف أنها كانت تنحيه الخطر، وتوصل إلى لب الحقيقة، وها هو يقف ذات موقف أبيه، ها هو يأخذ على كاهله مسئولية حماية الثورة، الثورة التي لم تخرج عن حدود الجنوب بعد، توالت الأخبار من المدن المجاورة أنه في كل ميدان هناك معتصمين، ولكن القلق ساده لما علم أن الشرطة لم تتحرك بعد، حسنًا، لا مجال للتأويل، فبالطبع الشرطة تعد عدتها ولن تتهاون، رمق أعلى المنصة فوجد حمزة يرمقه بنفس النظرة فعرف أنه يشاركه نفس التوجسات، ثم أشار له صاحبه أن يقابله في تلك الخيمة البنية الواسعة التي تجاور المنصة والتي يرقد فيها خالق الرمز، نبي الملحمة.

في رحم الخيمة كان عقبة يجتلس رقعة حصير ومن حوله مجموعة فتيات يستمعن حكايته بإتقان منبهرين:

- ضربة جلاد الطاغية لم تكن مريحتي، أهدرت عيني فقط، وبعد أن أتم حراس الشيطان مجزرتهم، كانت هناك فجوة لدقائق، فلقد ولجوا أسوار القصر لينزعوا الدروع النحاسية، وعندها ومن تحت أكوام الجثث نهضت، وهمت في الأرض نازفا، حتى وجدت نفسي أمام بيت صديق، طبيب،

عالجني وسكنت مخدعه بضع أيام، إلى أن أخبرني أن زبانية أشبوب شرعوا في التنكيل بالثورة، وأنه أعطى أوامره للأفعى بالتخلص منا، وأننا أصبحنا خونة مرتزقة متمردين، ولذلك فررت باغيًا الجبل والتجأت هناك وسط اللصوص والصعاليك، منتظرًا خمود العاصفة، ولكن العاصفة لم تفعل، فعلى مدار سنوات عاث أشبوب في الأبرياء تذبيحا، وضيق الخناق على أي صوت حر واقتلعه، وما كان مني غير الاختباء والاختباء، ورويدا رويدا خفتت روحي المتمردة الحرة، ومات أشبوب وحل زمان ملكان الذي لم يعر أي اهتمام بالثورة ولا الثوار وسلك دربا آخر غير درب سابقه المعتوه الدموي، وبطريقة ما لجم فُجر الأفعى، ووضع الإصلاح غاية له، وعندها نزلت الجبل وخشيت العودة للعاصمة، فولجت وكر الذئب، ولكن ذاك الشاب الذي صعد الجبل يشتعل ثورة وسخطا على الطغاة ليس هو هذا الكهل الخانع الذي نزل الجبل حاقدا على الجميع، سنوات الاختباء والهرب وسكنة الكهوف جعلتني جبانا، وسكوت الناس على الاستبداد والظلم والجهل جعلني مغلولا منهم، ولكني كنت مكبل الروح، خانع العزيمة، أما عن ما حدث بعد ذلك فأظنكم تعلمون، فلقد فعلت ما فعلت حتى أنجو، رغم أني لم أرد النجاة ولا الحياة بعد قمري، ولكنني استخسرت أن تزهق روحي هباءً في سبيل أناس ارتضوا السجود لأسد مستعبد طاغي.

مازحه قالت فتاة:

ـ كل هذا، يا لك من صلد يا شيخ، ولكن لا تخبرني أنك «السالم كارم بن عديل الحوراني»، فهذا يفوق خيالي.

«ماذا؟!»، قال عقبة ممتعضا، ثم أضاف:

ـ لم يكن هناك أي سالم، هذا الشخص ابتدعه آل قروم، ليختزلوا أنشودتنا البيضاء في شخص!

وأثناء ذلك ولج حمزة بطن الخيمة وقال متهكما وهو ينظر للمتواجدين:

ـ ما هذا يا شيخ؟!، تاركنا في الخارج نعمل، وأنت قاعد هنا مع الحسنوات.

ثم أضاف بفكاهة:

ـ من فضلكن أيتها الجميلات، أريد الشيخ على انفراد.

وبينما الفتيات يخرجن تساءل حمزة:

ـ هل منكن من تبرع في الحياكة.

فأجابت أفتنهن، تلك الذهبية الكحيلة، المرتدية فستانا حريريا داكن الزرقة:

ـ أجل، أنا أجيدها يا سيدي.

«سيدي؟!»، تمتم حمزة متشككا وتساءل بفظاظة:

ـ ما اسمك؟!.

أجابت:

ـ رومان.

فأكمل حمزة:

ـ من أين؟

أجابت رومان مستنكرة مستنفرة:

ـ لا يعنيك في شيء.

«عذرًا، صاحبي لم يقصد توجيه أي إهانة لك، ولا يعنينا من كنت سابقًا، أنت الآن واحدة منا، ثائرة مثلنا»، قال آسر فاستحت رومان!

رومان فاتنة، رومان تقول «سيدي»، وتكتسي الحرير، رومان راقت حمزة، وحمزة لم يرق رومان، رأته فظًا منعدم الأخلاق، ولكن راقها ذلك الفارس الهمام.

قعدوا الحصير وبادر حمزة قائلا:

ـ الغربان ينتظرون المدد، حقًا، ماذا نفعل هنا؟!

قال آسر:

ـ لن نقف مكتوفي الأيدي بينما معلول يحفر لنا القبور.

قال حمزة:

ـ إذن لنباغت بالهجوم ولتكن الضربة ضربتنا.

عقب عقبة:

ـ لم تنشد الأنشودة لذلك، فثورتنا بيضاء ولم تكن هي البادية بالدم.

فرد آسر:

ـ ولذلك فشلتم.

قال حمزة:

ـ ينبغي أن نكون منظمين الصفوف.

أضاف آسر:

ـ يجب أن تكون لنا راية.

فقال حمزة:

ـ ولهذا أبقيت هذه الشرسة هنا.

فنطقت رومان:

ـ تأدب يا هذا وأنت تحدثني.

تساءل آسر:

ـ ماذا سيكون رمزنا؟!

لم يكن الرمز يستدعي ثانية تفكير من حمزة فلقد ناول شاله الأسود إلى رومان، وقال وهو يربت على كتف صديقه:

ـ انقشي جوادًا، رمزنا هو الجواد.

قال آسر:

ـ إذن، لقد قضي الأمر الذي فيه تستفتون، لقد حسمت، سنأخذ نحن زمام المبادرة وسنباغت القلعة وننقض.

قالت رومان:

ـ ما علمته أن عداد الشرطة هنا خمسة آلاف رجل، فكم عدد رجالنا، وهل هم يضاهون الغربان قوة؟!

أجاب حمزة:

ـ نحن لدينا ثمانية آلاف رجل، ثلثهم صبية وشيوخ، والبقية ليس لديهم ثمن خبرة الغربان في استخدام السلاح، ولكننا نملك الأهم، نملك الرغبة الصادقة، سنقاتل لأجل ما نؤمن

به، لأجل خلاصنا، لأجل المستقبل، أما الغربان فليس لديهم دافع، هم لا يعرفون غير السلب والنهب ولن يكون لديهم نصف عزيمتنا.

ثم نادي على «زيد»، وأعطاه بضع رسائل، ومنحه مهمة إيصالهم إلى المعتصمين في ميادين المدن المجاورة، بينما آسر يشرح للمرابطين نواياه، ويطالبهم بجمع كل شيء صالح للقتال، من سيوف وحراب ورماح وخناجر ومدى وفؤوس ومناجل ومطارق حتى الشوم.

قال الشيخ عقبة حزينا:

ـ هذا ليس عهد الثورة.

رد حمزة:

ـ لن نكرر أخطاء الماضي المرير.

فأردف عقبة:

ـ السلام هو فاتحة الأنشودة وخاتمتها.

قال آسر:

ـ فلنغير الفاتحة، بدلا من السلام، سيكون الثأر.

وأضاف حمزة:

ـ والخاتمة كذلك، بدلا من السلام، سيكون الدم.

فزادت رومان:

ـ ولنضيف بيتا للانتقام.

غمغم عقبة:

ـ هذه ليست أنشودة ثورة، هذه أنشودة سوداء، وسيكون هناك بحور من دماء.

فتمتم حمزة:

ـ لن تكون دماءنا هذه المرة!

الأسلحة تجمع، ورومان تعد قوسها وتشحذ سهامها، وحمزة يتعمق في سيرة القاسم، وآسر يهيئ المقاتلين ويبث الهمة ويثير العزيمة، وزيد يتحاشى الطرق الرئيسية ويسلك المتوارية، ومعلول يترقب المدد، وعقبة يندب أنشودته، والحماسة تعود للثوار وتبرق، ويرتلون:

الثأر الثأر.

في قديم الزمان كان هنا رجالا أحرارا، غيلان سادوا العالم، عمروا الأرض، نشروا العلم،أخضعوا رقاب المارقين، تمسكوا بعهد الأول والأخير فأطالهم الله في البنيان،ونحن شباب أحرار، أحفاد أولئك الغيلان، جئنا الآن ننشد الحق، ننشد العهد.

ننشد...

الكرامة الكرامة

ننشد...

الحرية الحرية

ننشد...

العدل العدل

ننشد...

المساواة المساواة

واخترنا الدم دربا لنا...

فالدم الدم.

والانتقام الانتقام.

# 30

آل سرد...

عمد القاضي السابق «عارف» إلى شرفة جناحه القابع ثالث طوابق قصره الذي يتطرف المدينة ويقع على ساحل البحر مباشرة، يرمق الكثبان الرملية التي بللتها أمواج البحر العنيفة في تراطمها، ويتذكر ما مضى، السلطان الجديد «ملكان» يصعد درج العرش ويتقلد التاج، ملكان صديقه ذو الفكر الإصلاحي المدعوم بعقل رشيد متزن، تقابلت أفكارهم واتفقت رؤيتهم، ومضوا سنين يعملون على ترميم ما خلفه أشبوب من جراح كانت تنهش في جسد الوطن؛ مارد، كيف تحول ذلك الشرطي الفقير محدود التفكير وفائق القدرات القتالية، الدؤوب، المخلص، إلى هذا الجشع، اللئيم، الباطش، وصباحة متصنع النبل والأخلاق، بانت نواياهم متأخرًا جدا، وصخر أخيه الشوكة التي كثيرًا ما آلمت ظهر ملكان ولكن ملكان حجّم مفعولها فقط بأدوية أجدت نفعا في السابق، ولم يرد اقتلاعها، لماذا لم يرد اقتلاعها؟، هل حتى لا تطفوا ذكرى أشبوب وجلاده على السطح؟، أم لتجنب توابع عزل الأفعى فالأمر لن يكون بتلك السهولة، أم خوفا من شيء أخر؟، هل صخر كان على دراية بفعلة

ملكان الأولى، فعلة ملكان هكذا عارف ظن ثم استنبط ما يؤكد شكوكه في الليلة الأخيرة لخليله، ملكان عرف كيف يدير مجلس الرجال ويحد من المطامع ويتغاضى عن بعضها، أدرك أن السلطة شهوة تلهب أنقى الأفئدة، صخر سيصل بعد قليل، عام مضى منذ سجن عارف هنا وتركه لم يفكر قبل الآن أن يأتي ويلقي نظرة على شقيقه، عارف سأم الحبس، سأم جدران القصر، سأم تقلبات الأزرق، زهد كل الطعام، ضجر تملق الخدم، زيارات الأقارب قلت، وصحته الجسدية والنفسية ضعفت، ويلعن الدهر، الدهر الذي طال أمده، تمنى لو مات قبل أن يشهد انهيار كل ما عاش وجاهد لأجله هو وصاحبه الفاني، بموجب ما عايشه من أحداث وبحكم خبرته يعلم أن كل الرجال تحركهم الدوافع والمطامع، ويعلم ما هو دافع صلحان الذي جعله يقود هذه الأمة إلى هذا الدمار، ولكن ما هي المطامع التي جعلت صخر يؤيد ذلك المسعى ويتعصب له، مهما حاول الرجال دائما كانت تفضحهم حرارة الرغبات، وصخر بقى متماسكا وحافظ على غموضه كما لم ينجح رجل في السابق، ولكن ما فائدة هذا الآن فكل شيء ذهب سُدى، كل شيء راح هباءً مع انغلاق تلك البوابة، وها هو الجنوب يعود ليسطر فصلا جديدا من العصيان، الجنوب الذي يبدو أن راكان قد أغفل فسلة خبيثة من مرض التمرد في جسمانه وتجاهل بترها مع بقية ما بتره، وبينما هو ينظر إلى البحر الهائج، انفتح الباب، فنطق بنبرة جليلة:

- يااااه، أما زلت تتذكر أن لك أخًا يا صخر، عام، ها، عام انقضى ولم تذرني منذ أن حبستني هنا، يا ترى ما دافع هذه الزيارة، هل جئت نادما لتقول أن ما حذرتكم منه قد حدث، أم تكون جئت لتطمئن عليّ؟!.

وقف صخر بجانبه وأجاب:

ـ لا هذا ولا ذاك، جئتك لكي أعيدك إلى منصبك.

قهقه عارف متحسرا وقال:

ـ تعيدني! بعد ماذا؟!، بعد أن انسقت وراء طفل أهوج كماعز لا عقل لها، بعد أن أخربتم البلاد ودمرتموها!

ثم رمق أخيه بنظره، تيقن من خلالها أنه يمر بأسوأ كوابيسه، ولاحظ الخاتم الذهبي المصوغ على شكل أفعى تخنق خنصر اليد اليمنى لصخر، هذا الخاتم الذي لا يرتديه صخر إلا نادرا وعندما يكون يمر بفترة حالكة عصيبة، ويطوف به الشوارع ليذكر الناس بماهيته السامة ويجعلهم لا ينسون ما عاقبة الخارجين عن حدود طاعته.

صخر الذي تنهد مستاء، وفح:

ـ أقسم لك يا أخي أن هذا ليس دمارا ولا خرابا مقارنة بما هو قادم.

فقال عارف:

ـ أهؤلاء المتمردون في الجنوب يرهبونك إلى هذه الدرجة؟!

قال صخر:

ـ دعك من أولئك المعدمين، فمدد الشرطة في طريقه إلى هناك وسينهون المدن تباعا، أنا لا أكترث بأولئك الفوضويين.

«ماذا إذن؟!»، تساءل عارف متعجبا وقد وتره القلق البادي من قلب أخيه الصخري وهذا التأنق المبالغ في مظهره!، فقال الأفعى:

ـ لقد تمرد البحر والجبل واجتمعا علينا، فهناك في الجبال الصعاليك توحدوا تحت راية واحدة راية سيد الجبل،

يدعون أن إله الحرب قام من مرقده، يدعون أن سهم القدر بعث من جديد.

قاطعه عارف حيث قال:

ـ هاه، حقًا، هل يخشى الأفعى مجموعة من الصعاليك حتى لو كان يقودهم «هيبة» بذاته؟!

فقال صخر بنبرة قد تجلت فيها المرارة:

ـ ودعك من الصعاليك فليس هذا هو لب الخطر، الخطر قادم من البحر، لم يكن هناك إلا همسات مبهمة حذرنا منها الليث قبل رحيله، همسات عن كيان مريب أقرب لشيطاني، ولم نأخذها على محمل الجد، ولكن بعد وقوعنا تعالت الهمسات حتى صارت صيحات تهديد ووعيد، فهناك في أقصى أقاصي الأرض، على حافة العالم حيث الضباب الكثيف والماء المتجمد، والجليد المستديم، هناك مئات السفن تحمل عشرات الآلاف من القراصنة والمرتزقة، يركعون لإله البحر كما يزعمون، ويزعمون أيضًا أنه صقر نجى مني قديمًا بمعجزه ما وقادم ليطالب بحق أجداده.

تنهد ثانية ثم أكمل مستهجنا بذات المرارة:

ـ يبدو أن الآلهة غاضبة علينا، ولذلك اجتمعوا ضدنا!

فتساءل عارف:

ـ وماذا تريد مني؟!

قال صخر:

- أريدك أن تعود لصفنا، فيجب أن يتحدث إلى الشعب رجل يبجلونه ويقدرون كلماته.

«رجل يبجلونه ويقدرون كلماته»، هامسا ردد عارف وجابت خلده الأفكار المتضادة، وأثناء ذلك فح صخر وقد استجمع جسارته وارتسمت على محياه ابتسامات سامة:

- لا تقلق يا أخي، فأنا أعد الجحيم لجميع المعتدين، فأنا الحارس الأعظم صخر من آل سرد، الأفعى، أقوى محاربين الأرض، حتى لو احتشد كل آلهة الدنيا ضدي فلن أنكسر، ولن أخشع مهما كلف الأمر، حتى لو اضطررت لحرق الأرض بمن عليها!

عن تلك الحقبة، ثمة سر خطير، لا يدريه سوى رجل واحد يتنفس فحسب، كان عقل أشبوب قد طار كليًا، وكانت رغباته الوحشية قد استفحلت، ونزعاته العتهية قد تأججت، لا يخلد إلى النوم بدون أن يشهد إعدام أحدهم، الخونة كما يدعوهم، كان قد مضى على الليلة الحمراء حوالي سبع سنوات، وما زال البطل ينتقم ويزهق الأرواح تشفيا، الدم لا ينقطع عن ساحة المستقل، كان كل شيء يصرخ «كفى» حتى المصالب والمقاصل أصابهم الاكتئاب، فمنذ أن نصبوا لم يرتاحوا يومًا، حينها احتدمت الخلافات بين الأمير «ملكان» ووالده، ووصلت إلى طريق مسدود كأنما لا حل، وكان أشبوب قد فقد الثقة في كل من حوله إلا شخصا واحدًا فقط، شخص سلب الحيوات لأجله، شخص عده الوحيد الذي وقف معه عندما تخلى عنه الجميع وخذلوه، وهو الذي أهدر دماء

الآلاف على شرفه وقام بأبشع الفعلات حتى استقر عرشه من جديد واستتبت قواعده وترسخت، كان هذا الشخص هو جلاده صخر، ولما خشى أشبوب الغدر واستحسه أخذ احتياطات كان له السبق في ابتداعها، ولعل أغربهم أنه لم يكن ينعس إلا وأكثر رجل يثق فيه، ثقة عمياء، يقف بجوار مرقده، صخر كان لا يترك أشبوب حتى في موضع الخلاء، وبذلك أمن أشبوب ذاته بالملازمة الدائمة لأقسى جلادي الأرض وأوفى المخلوقات له، ولكن لم يمضِ على ذلك كثير، وكان خبر وفاة البطل أشبوب يصدو في جميع أركان المعمورة، الأكثرية صدقوا أن سبب الميتة المفاجئة هو كما أعلن ذبحة صدرية أي ميتة طبيعية تمامًا، والقليل جدا شطحوا وظنوا أن ملكان قد اغتال والده، وكان كليهما اعتقادا بعيد تمامًا عن لب الحقيقة، فأشبوب كان ذو صحة طيبة، وملكان ما كان يجرؤ أن يفعلها بيده ولا يقدر، لب الحقيقة أنه حدثت مساومة، صفقة سرية، جمعت اثنين ولا يعرفها إلا هذين الاثنين، وأحدهما قد واراه الثرى الآن، وطرفاها هما ملكان وصخر، الأفعى اغتال أشبوب عن طريق الخنق، وملكان تزين بالتاج وبدأ عهده الترميمي، في مقابل احتفاظ صخر بكرسيه في مجلس الرجال، وهكذا امتيازاته، ولقبه كحارس أعظم، ومكانته السلطوية اللا محدودة إلى آخر الدهر، والعجيب في الأمر أنه بعدما تم الخلاص من أشبوب لم يتطرق أحدهما لذلك بتاتًا ولا حتى عن طريق التلميح كأنه لم يكن، وظلت علاقتهما طوال فترة حكم ملكان لا تتعدى حدود سلطان وحارس أعظم، ولكن بالطبع كان كليهما يحفظان السر وبنود الاتفاق داخل خزائن من دماء وكتمان في قيعان أعماقهما.

# 31

## موقعة القلعة

شقشق نور الصبح، والضباب يولي أدباره متئدا، وبرغم صفاء الجو من أي برودة إلا أن السماء لم تنقطع عن إرسال صيبها، والثوار عراة الصدر مكتسي السراويل السوداء يهمون للتحرك، لقد اختارو زيهم وكذلك حددوا وجهتهم، والهدف هو قلعة الغربان.

وهناك حيث آخر نقطة في المدينة، أقصى الجنوب الغربي للوكر كانت قلعة الشرطة، مبنى أُسطواني الشكل مكون من خمسة طوابق، حجرية جبلية، لشدة التحامهم يوحى لك أنه مشيد من قطعة جبلية واحدة متعملقة، ويحيطه أسوار حجرية يبلغ ارتفاعها العشرة أمتار، وخلف القلعة يوجد إسطبل خيول، وأسفلها قبو ضخم شاسع المساحة، مفعم بالحبوب والخزائن النحاسية التي تحوي كافة أنواع الخيرات، وبغرب القلعة على بعد مئتي متر تقريبًا رقعة زراعية تنتصب فيها عيدان القصب شاهقة، ويتخللها بعض المدقات التي تقود إلى بقية الجنوب، أما عن شمال القلعة فكانت هناك أرض عقيمة تنفتح دروبها على الشوارع الرئيسية للمدينة، وكانت تلك العقيمة متوحلة من أثر الأمطار التي لم تتوقف بعد، ومن

هذه الدروب لاح ثمانية آلاف عاري صدر، شباب ورجال وصبية وشيوخ، يرفعون راية الجواد ويتقدمهم الفارس آسر بن جواد الحق.

بوابة القلعة النحاسية مغلقة، والثوار يصيحون في سباب ويطلبون من الغربان تسليم القلعة، ويتشاورون فيما بينهم، هناك من يقترح أن يتسلقوا الأسوار ويقتحمون، وثمة من يقول، بل نقذف عليهم النيران ونجبرهم على الخروج وبعضهم يشير إلى الحصار، وآخرون يردون، لا وقت للحصار، وآسر يرمق البوابة بعينين ناريتين تشعان غلا، وحمزة ثابت جامد النظرات والروح، ورومان تلقم قوسها وتخطف نظرات إلى جسد آسر اللامع بماء السماء الطاهر، وعقبة قليل الحيلة محتار، وخمدت المشاورات، لما انقشع الضباب وانفتحت البوابة النحاسية، وخرج منها الكبير معلول.

معلول يمشي متباطئا في ثقة منقطعة النظير كأنما يسير في نزهة، وابتسامات خبيثة متشفية تعتلي وجهه المتشكل كفطيرة ووديع الانحناءات، وكرشه يتدلل أمامه مختالا، والهلع يصيب الثوار، فالقلعة يخرج منها خمسة عشر ألف من الغربان، فلقد وصل المدد، هذا هو المؤكد الآن.

إرتص رجال الشرطة في صفوف منتظمه مكونين ترسانة حربية مهيبة الطلة، بينما نظر إليهم معلول وقال في استهجان وهو يشير إلي عراة الصدر:

- من هؤلاء؟!، أتدرون أيها الأشاوس هؤلاء الرعاع يريدون طردكم من قلعتكم واحتلالها.

فقبض الغربان على رؤوس سيوفهم، فأضاف الكبير:

ـ تمهلوا، تمهلوا.

ثم حول ناظريه إلى العراة وتحدث بنبرة سمجة مستفزة:

ـ أتعرفون ماهو أكثر ما يزعجني في الأمر؟!، أكثر مايزعجني أيها الرعاع هو أنكم اخترتم هذا الوقت الباكر والماطر، صراحة أنا أخشى على ملابسي من الوحل، وأيضًا لم أنتهي من تجهيز المحارق لكل هذا العدد.

ثم نظر إلى رجاله وأردف:

ـ يبدو أن أمامكم يومًا طويلا من العمل.

فنطق شيب عاري مترهل البدن وهو يرتجف:

ـ ما مصير عوائلنا؟!

فأجاب معلول:

ـ سيحرقون مثلكم، إلا إذا... إلا إذا رجحتم صوت العقل، وقررتم أن تريحوني من عناء تنظيف ثيابي وسيفي، واستسلمتم، عندها يمكنني أن أمنحهم حياة، بعد حرقكم بالطبع.

فترك الشيب المرتجف شومته، وهكذا من بعده فعل العشرات المذعورين فصرخ آسر فيهم:

ـ تصلبوا...

فرد عليه رجل أربعيني قوي البنية كان الإحباط قد نال منه ما نال:

ـ ها نحن نتصلب، ونرتضي الحرق فداء لأسرنا.

فأومأ معلول متصنعا التألم وتوجه إلى الشيخ عقبة وقال:

ـ حقًا؟!، أنت أيها البغيض خالق الرمز وعراب الملحمة، وأي ملحمة تلك التي تبغيها بهؤلاء البؤساء.

فأحنى عقبة رقبته وغلبته قلة حيلته وأخذ يمنع دمعاته، ويعزي نفسه بأنه على وشك الاجتماع مع قمر، وضميره يعذبه لما آلت إليه الأمور، فانتقل معلول إلى رومان وقال وهو يمسك بياقة فستانها الحريري داكن الزرقة:

ـ وأنت يا سيدتي النبيلة، مالك ومال هؤلاء الرعاع؟!

وانتقل إلى آسر وقال بلهجة متحسرة ساخرة:

ـ وأنت أيها الفارس المنشق، كيف سولت لك نفسك خيانة قسمك، حسنًا، انسَ ذلك، كيف سولت لك نفسك أن تقود هؤلاء المعدمين إلى هلاكهم.

وقبل أن يرد عليه آسر، توجه الكبير إلى حمزة ونطق وهو يقهقه:

ـ سحقا لك أيها الجرو!

كان آسر يتمسك بصلابته، ود لو أخمد سماجة معلول إلى يوم البعث، ود أن يموت وهو رافعًا سيفه، ولكن صوت سقوط الأسلحة من خلفه، يرمي إلى حقيقة واحدة، وهي أن المأخوذين بلذة الثورة قد واجهوا الواقع أبكر مما تخيل هو، وأبشع مما تخيل هو، من الجلي أن الثورة تنتهي قبل أن تبدأ، تذكر أمه وأخته فوهنت قبضته وأقبل على إسقاط البتار، وحينها ابتسم حمزة بمكر، كانت عيدان القصب تهتز وهناك حركة غير طبيعية في داخل الحقول، فقضب وجه معلول وأخذ يترقب، ثم انفجر في

الضحك عندما أبصر زيد يخرج من الحقول يلهث ويحمل مطرقة حديدية لا يقوى على رفعها، وقال الكبير وماء جوفه يبلل الوجوه اليائسة:

ـ ها قد أتى البطل المخلص!

فضحك رجاله وبتمختر ورعونه رفعوا أسلحتهم وهموا لإنهاء عملهم، ولم تمضِ ثوان حتى تجهم وجه معلول وانفجع، فلقد خرج من حقول القصب خمسة وعشرين ألفًا من عراة الصدر، كل ثوار الجنوب لبوا النداء، فأشهر آسر سيفه البتار ووضعه في قلب غراب، وكان هذا إيذانا ببدء الموقعة، وبكل وحشية وحقد التحم الثوار بترسانة الشرطة، بينما انسلّ معلول من بين الصفوف ودلف قلعته فتبعه آسر وهكذا حمزة.

الغربان يحاولون التماسك، يحاولون المقاومة، كلما اخترقهم الثوار، عاودوا التنظيم وسد الثغرات، الثوار كالضواري المسعورة، وترسانة الشرطة تتفكك، والدم ولا شيء غير الثأر والانتقام والدرب هو الدم، الغربان ابتغوا الفرار ودخول قلعتهم.

وفي فناء القلعة أخذ آسر يطارد معلول وتضاربت سيوفهم، وكان حمزة يدرك أن حسم هذه المعركة ليس في الخارج، وإنما هنا في الداخل فسقوط أحد المتصارعين يعني سقوط جانبه.

وكان آسر يوجه ضربات عنيفة مغلولة إلى معلول، وما كان من معلول غير التفادي وتصدي الضربات، إنه يبغي إنهاك آسر وإرهاقه حتي تحين الفرصة المواتية ويأخذه على حين غرة، هم حمزة بالتدخل ولكن نظرة الفارس أوقفته، حمزة يدرك أن معلول مبارز بارع برغم أن مكوناته لا تقول ذلك، إنه كبير القلعة ولا يرتقي ذلك المكان إلا سياف ماهر بلا ريب، وانتبه إلى مجموعة من الغربان يفرون من من قلب الموقعة قاصدين ولوج القلعة، فأغلق البوابة النحاسية في وجوههم وأوصدها.

آسر يلاحق معلول بضربات عنيفة، ومعلول يواصل الصد والتفادي، الكبير يهرب ويتحين، وقوى آسر بدأت في الفتور، آسر متهور، ومعلول يجذبه، آسر سريع، ومعلول ذكي، آسر قوي ومعلول يستنزف قوته، وحمزة يتمتم:

ـ فلننهي هذا العبث.

ثم يسحب سيفه، ومن الخلف وعلى غفله، وبثلاث ضربات متوالية أطاح برأس كبير القلعة معلول.

استاء آسر من فعلة صاحبه وجرى على الرواي وصرخ فيه وهو يشير إلى جثة معلول القابعة رقعة دماء تتسع:

ـ أين الشرف في هذا ياأخي؟!!

وبعدم اكتراث رد حمزة وهو يهز كتفيه:

ـ تبا للشرف.

ثم مسح دماء سيفه في بنطال الفارس المستفهم والمستنكر، وأخذ سيف آسر وخضبه بدماء القتيل، ورفع «بيضة الفيل» رأس معلول، وخرج مهللا هاتفا:

ـ لقد فعلها قائد الثورة «آسر»، وذبح «معلول»، الملعون!

ولقد كان الوضع خارج القلعة دمويا إلى أقصى حد، فلقد سقط من الغربان نصفهم، ولم يتخطَ قتلى الثوار ألفين، وما كان من الغربان غير تبادل نظرات تنم عن القنوط، ثم أنزلوا أسلحتهم ووضعوها أرضا وأعلنوا الاستسلام، ولم يجدِ ذلك مع المغلولين، فلقد استمر الثوار في مجزرتهم، وقوة إرادتهم، وبكل معنى كلمة وحشية أخذوا ينحرون الغربان، الأشلاء

تتطاير، والجثث امتزجت بالوحل، ولم تعد الأرض العقيمة عقيمة، فلقد تحولت إلى برك مهولة من دماء يطفوا على أسطحها أشلاء، عقبة يحول نظره في جميع الاتجاهات ولا شيء غير الموت، على امتداد البصر لا شيء غير الموت، على امتداد الرؤية المستقبلية لا شيء غير بحور من الدماء، ويبكي آثام أنشودته.

وبينما الغربان ينتهون، ورومان تستعد لتطلق سهم في كبد آخرهم، أوقفها حمزة، وأمسك بالشرطي وكان شابًا مليئا نوعا ما، وكانتا عينا آسر متعلقتا بصديقه ويرمقه بنظرة لم يفهم أحد مغزاها في حينها، وكان الشرطي يرتعش ويبكي والفاجعة تعتريه، ربت حمزة على ظهر الغراب الأخير وقال برفق وهو يعطيه رأس معلول ويدسها في صدره عنوة:

- اذهب واحكِ الحكاية، أخبر الآخرين عن ما فعله الثوار في وكر الذئب، وحدثهم عن جلد قائد الثورة آسر وكيف أنه نحر عنق حاكم المدينة معلول بلا أي عسر، حدثهم أن نيران الثورة قادمة لأجلهم وأنها لن ترحم أي مارق، هيا أيها البائس، ماذا تنتظر؟!، اذهب واحكِ الحكاية!

الثأر الثأر.

في قديم الزمان كان هنا رجالا أحرارا، غيلان سادوا العالم، عمروا الأرض، نشروا العلم،أخضعوا رقاب المارقين، تمسكوا بعهد الأول والأخير فأطالهم الله في البنيان،ونحن شباب أحرار، أحفاد أولئك الغيلان، جئنا الآن ننشد الحق، ننشد العهد.

ننشد...

الكرامة الكرامة

ننشد...

الحرية الحرية

ننشد...

العدل العدل

ننشد...

المساواة المساواة

واخترنا الدم دربا لنا، وجواد الحق سلطانًا علينا...

فالدم الدم.

والانتقام الانتقام.

# 32

## حور شبيل

كان يعبر الجسر الحجري الحديدي مخلفًا وراءه أريج العرين، ومقدما بتقزز على روائح الروث والعرق والفقر التي أزكمت وجدانه.

ترجل بين الأزقة الملتوية المحفوفة بالأكواخ الخشبية الباهتة من جير رخيص، عدل وضع قلنسوة ثوبه الحريري الأسود، وكان هو شامخا متوردا، وشتان الفارق بين هذه الظهيرة وبين تلك الليلة العاصفة التي شهدت وصوله على متن تلك السفينة التجارية، وبخطى محسوبة أخذ يثب فوق الحجارة متجنبًا سيول المجاري التي تغمر الأزقة، ونهاية انقشع اشمئزازه ووصل إلى غايته، وغايته هي ذلك المبنى الحجري الذي يتكون من ثلاث طوابق، ويبدو كصرح عملاق دخيل على هذا الجانب، وفكر أن هذا الصرح العملاق إما هو مملوك لأحد الأشراف أو ربما يخص قائد الشرطة «مارد» شخصيا، فعلى الرغم من أن نشاطه الظاهري هو أنه مجمع مقاهي، إلا أنه هو أكثر من يعلم خفاياه.

ولج المبنى حيث الطابق الأول المستعمل كمقهى، تحاشى العيون وتوجه مباشرة إلى الستارة الحمراء التي تخلف محيط المقهى أزاحها وتخطى تلك العتبة القرمدية، ليجد نفسه واقفا أمام السلم الخلفي خشبي الصناعة، فصعد، وتجاهل الضحكات الماجنة وأنين السكارى الذي يأتي من وراء أبواب الطابق الثاني، واستمر في الصعود حتى وصل حد الثالث وكان الجو هنا هادئًا مريحًا لنفسه، طرق الباب ففتحت له غانية ثلاثينية العمر، مبهرجة الوجه،عارية، ذات صدر ضئيل كحبيبات الليمون، وأرداف هائلة كأفخاذ التنانين.

احتضنته وقبضت على قضيبه، سحبته دالفة بيت البغاء وانساق خلفها ولعاب الشهوة ينز من جميع جوارحه، وانغلق الباب.

ساعة وخرج راضيا وعاد أدراجه، ولكنه هذه المرة لم يتجاهل ما يحدث في الطابق الثاني، فلقد ولجه، وتوهجت روحه، فهذه حانة، ونفسه تتشوق لكأس نبيذ، جال بنظره حتى انتشل غايته، كان يجلس هناك عند تلك الطاولة الخشبية، متواري وراء غيمات دخان السكارى، وجلس إليه.

كان المتواجدين الذين تكتظ بهم الحانة عن بكرة أبيها، يرتدون ثيابا فخيمة، وهيئتهم تدل أنهم إما أشراف أو تجار غريبون، وكانت ضحكات أرباب النفوذ والمال تتعالى شبقا وهم يداعبون نهود وعشوش الغانيات الملتويات بأجساد شبه عارية، وفكر جورشبيل أن هذه الحانة هي عالم مصغر لعظمويل، فهاهم الأغنياء ينكحون الفقراء، وأزعجه صوت ذلك الشاعر الذي يعتلي المسرح، صوته منفر يشبه النهيق، وقصيدته متهلهله فاشلة التملق وينشد:

ـ المجد لآل قروم، يعيش السلطان الملهم، وتعيش الشرطة وحراس السلطان، واللعنة على غول جندرة الجبان الغادر، وبالعناد في الكائدين سيظل الرمح الذهبي شامخا.

وتذكر كلمات السلطانة جنان، «الفاسدون يجيرون على حقوق العوام وليس الأغنياء يا أصهب، والفساد لا يتعلق بغنى أو فقر»؛ كم سعى للتقرب من السلطانة جنان، كم أراد أن يحتضنها، كم ود لو يلثمها، كم رغب لو وطأها، كم حلم بامتلاكها، كم استبدل وجوه بائعات الهوى بوجهها الخلاب، كم تخيل أنينها تحته من فرط النشوة، كم وكم وكم... يا جنان.

رائحة التبغ المحترق والكحل النفاذة، ورائحة المني العطن في فروج المومسات، بالإضافة لذلك الناهق، كونوا أهزوجة متناهية القبح والعفن.

أمسك جورشبيل الدورق الزجاجي المحمر من أثر النبيذ وصب في كأس نحاسي، وتساءل وهو يرتشف بنهم:

ـ ما حيلتك هذه المرة يا أورشبيل؟!

فأجاب أورشبيل وهو يسكب كأسا لذاته:

ـ تاجر حرير، أخبرتهم في الميناء أني تاجر حرير.

وتساءل جورشبيل:

ـ وأين حريرك.

رد أورشبيل:

ـ تركته للسائق الذي أوصلني لهنا.

ومشتاقا تساءل جورشبيل:

ـ كيف حال والدنا؟

قال أورشبيل:

ـ يتضرع للنجم بأن يسدد خطاك.

كان «أور» كما يتم اختصار الاسم في سمندا، يشبه أخاه بشدة، نفس الهيئة الصهباء، وذات الحواجب الكثة، ولكن «أور» مكتنز قليلًا وأكبر ببضع سنين، وكان يكتسي ثوبا حريريا سماوي اللون.

صب جورشبيل كأسا ثانيا ورفعه وأنزله فارغا وقال:

ـ متى سيتحرك الأسطول؟

قال أورشبيل:

ـ ليس بعد عام على الأقل.

فقال جورشبيل:

ـ ولما ليس الآن؟!، هذا هو أنسب وقت يا أخي.

قال أورشبيل:

ـ البوارج تحتاج وقتا للإصلاح والصيانة، والرجال أنهكوا في حرب الماريكية، نشكر النجم أنه وهبنا ذلك النصر.

فقال جورشبيل:

ـ أخبر الملك أن يستغل الفرصة ويتعجل التحرك.

قال أورشبيل وهو يقوم ذاهبا:

ـ الملك يرسل تحياته، ويقول لك، أنك فخر سمندا، وأنه لن ينسى أعمالك الجليلة هنا.

فتعانقا وعقب جورشبيل:

- صدقني لم أفعل شيئًا، فلقد كانت هذه الأمة غارقة في مستنقع من الخراء قبل وصولي بدهور!

وهذه المرة رفع جورشبيل الدورق واحتسى منه حتى غامت عيناه، وتلاعب الخمر بعقله، فتوالت مشاهد رحلته كأنها ومضات بعيدة سريعة خاطفة.

جورشبيل يقف أمام الملك ويحلف اليمين.

جورشبيل له أعين ثاقبة حاصدة لا تفوت أي أنملة وعقل مستقصي مستفسر لا يغفل أي تفصيلة.

سمندا تضع نصب أعينها حلم عودة الأرض المقدسة المغتصبة قديمًا.الضابط المخابراتي المقتدر جورشبيل يكلف بمهمة.

ميمون تاجر عبيد، ميمون مورد الخدم لقصر آل قروم، ميمون كلب مال، أطعم الكلب جيدا، الكلب يحمل الضابط إلى القصر، ميمون يعود لوطنه وأورشبيل يقتل ميمون ويدفن السر.

السيدة منجية، لقب الأصهب، كسب ود السيدة، إعادة توزيع الخدم، وجورشبيل خادم الأمير الساخط.تقرب للأمير، اقتل لأجل الأمير، الأمير أرعن، والأرعن يصبح سلطانًا.

السلطان طموح، السلطان يبغي الأرض والبحر، السلطان متردد، زود السلطان بالذهب، أقنع السلطان أن له مريدين في كل أرجاء المعمورة، السلطان يرسل جيشه إلى الجحيم.

أسطورة الزرقاء، ليث البحار، رماد رماد رماد.

صخر أفعى، صخر يتلاعب بمقدرات البلاد،ل م يعد هناك مقدرات.

مارد باطش، والفساد ممتد للجحور، الأمن غاشم، والظلم متفشي، والجهل متفشي، والفقر متفشي، وصباحة يؤمن خزائن الأشراف، والسلطان ملازم جناحه منعزل مخمور.

عظمويل هشة، عظمويل غارقة في مستنقعات من الخراء.

والنجم مبحر ليسترجع مقدساته!

تم بحمد الله الجزء الأول

من سلسلة عظمويل.